الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة باتنة 1– الحاج لخضر

كلية العلوم الإسلامية
قسم اللغة والحضارة الإسلامية

نيابة العمادة لما بعد التدرج
والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

جدل الدين واللغة وتأثيرهما في التكوين التاريخي للمجتمع الجزائري عند مولود قاسم نايت بلقاسم

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث في العلوم الإسلامية
تخصص: تاريخ إسلامي

إعداد الطالب

يوسف مقارمة

إشراف

أ.د أحمد بروال

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
شهر الدين قالة	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة 1	رئيسا
أحمد بروال	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة 1	مشرفا ومقررا
عمر بلعربي	أستاذ محاضر أ	جامعة باتنة 1	ممتحنا
نور الدين بن قويدر	أستاذ محاضر أ	جامعة باتنة 1	ممتحنا
جمال بلفردي	أستاذ التعليم العالي	الملحق الجامعي بريكة	ممتحنا
عبد الحفيظ قبايلي	أستاذ محاضر أ	جامعة سطيف 2	ممتحنا

السنة الجامعية: 1443–1444 هـ/ 2022–2023م

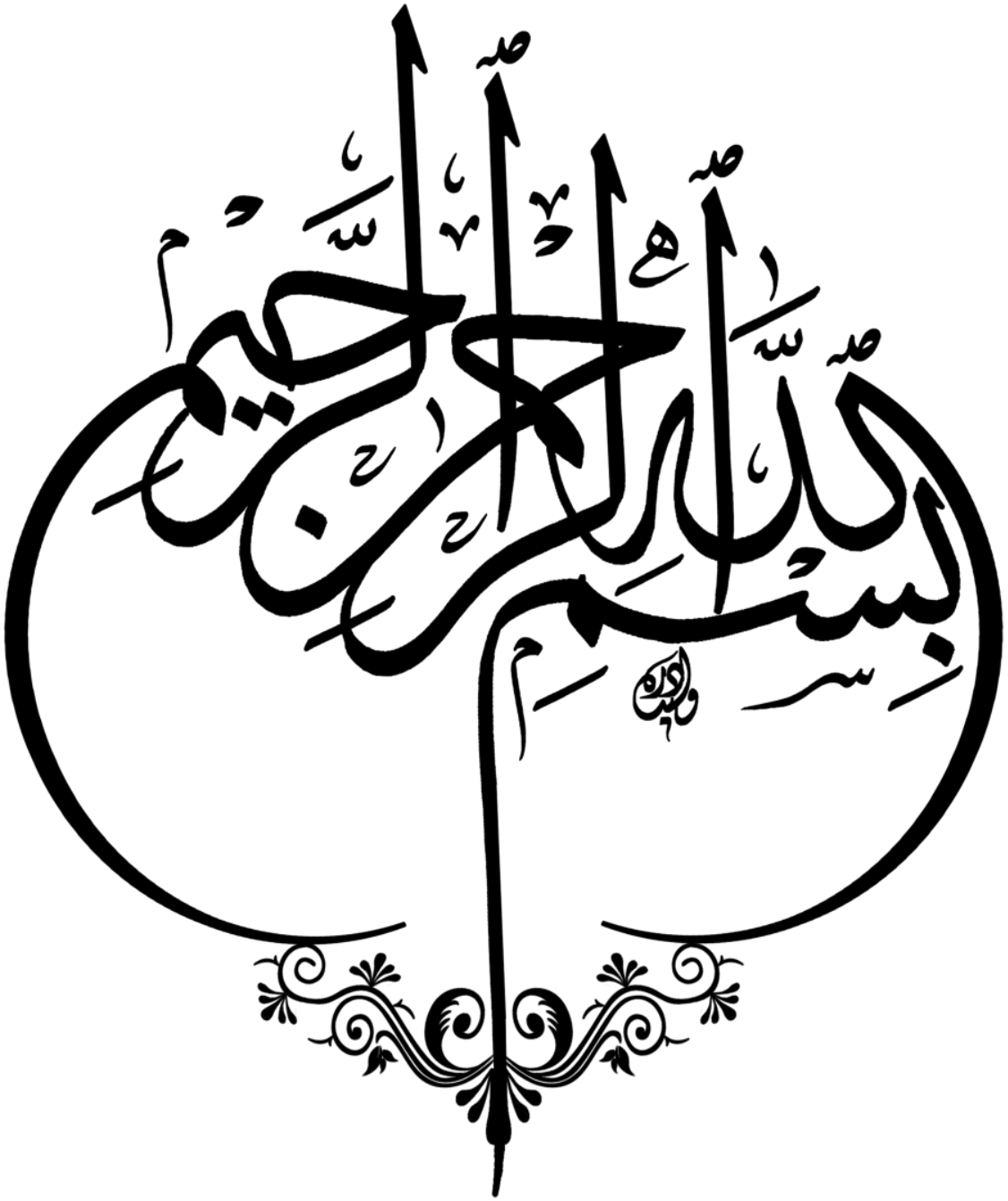
بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ " (الروم22)

قال صلى الله عليه وسلم: "لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأبيضَ على أسودَ، ولا لأسودَ على أبيضَ إلَّا بالتَّقوى، النَّاسُ من آدمُ، وآدمُ من ترابٍ"

إهـــــداء

إلى الذين آمنوا وكانوا يتّقون.

إلى كل أساتذتي، رمز العطاء، وإلى كل من علمني الحرف.

إلى كل من رافقني في مشواري الدراسي.

إلى جميع الأصدقاء والأحبة أين ما كانوا.

إلى تلك التي شجعتني على المثابرة والصبر طوال عمري.

إلى رمز الوفاء والإخلاص أهدي هذا العمل.

شكر وعرفان

اللهم ليس بجهدي واجتهادي إنما بتوفيقك وكرمك وفضلك علي، فلك الحمد أولا وآخرا.
ومصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم:"لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ"، فإني أتوجه بشكري الجزيل لمن رعاني طالبا في فترة الدكتوراه الأستاذ الدكتور أحمد بروال، والذي سهر على تأطيري عند إعدادي لهذا البحث، فأشكره على كل تلك التوجيهات المعرفية والملاحظات المنهجية والتي ساهمت في إخراج هذا البحث
ثم أزجي الشكر فائقه والثناء أجمله إلى كل من ساعدني في هذا البحث، وأقصد أصدقائي وزملائي الذين رافقوني في مساري التكويني حتى هذه اللحظة.
وعظيم الامتنان لمن أشار لي بنصح أو فكرة إقرارا بفضلهم ودورهم فجزاهم الله خيرا وأعلى مقامهم.

والحمد لله كيفما قام الوجود وتقوم

الطالب: يوسف مقارمة.

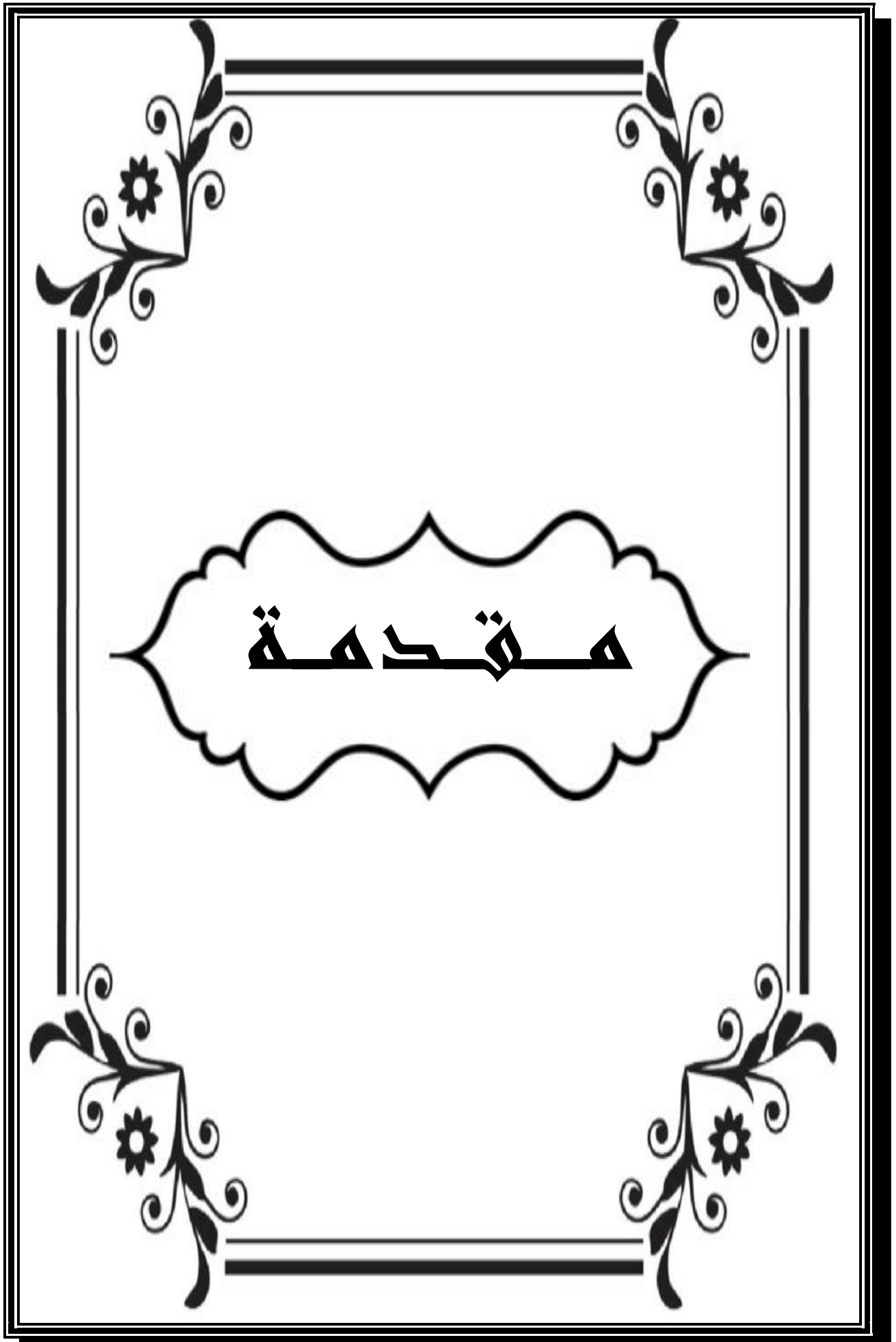
مقدمة

مقدمـــــة

الحمد لله حمدا يوافي نعمه، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

أولا: التعريف بالموضوع

عرفت أرض الجزائر منذ القدم وفود العديد من الشعوب والهجرات القديمة، فمن الفينيقيين القدماء، إلى الرومان، ثم الوندال، وصولا إلى الفتح الإسلامي، الذي عرفت الجزائر بموجبه تغيرا كبيرا خاصة مع استوطان العرب الفاتحين على أرض الجزائر، وإنشائهم للمدن، وبذلك اختلط البربر (السكان الأصليون)، مع العرب الفاتحين، فأدّى ذلك إلى تلاقح الأفكار وانصهار الأعراق في بوتقة واحدة شعارها الإسلام.

ولعّل الدارس لتاريخ الجزائر الثقافي يجد نفسه أمام مشربين رئيسيين للثقافة الجزائرية؛ مشرب أمازيغي بربري، سعى بكل الوسائل والطرق للحفاظ على هويته (خاصة في مجال اللغة والعادات) رغم اعتناقه الإسلام، ومشرب عربي إسلامي حاول فرض منطقه بحكم الزعامة السياسية والسابقة الدينية.

ومع نشوء حركة الاستعمار في الحديث والمعاصر، تعرضت الجزائر للاحتلال الفرنسي سنة 1830م، الذي لم يكتف باحتلال الجزائر جغرافيا، بل حاول طمس كل مقومات الهوية الجزائرية، خاصة في مجال الدين واللغة، كما عمل على تفريق المجتمع الجزائري، عن طريق خلق صراع قومي عرقي بين العرب والبربر ومذهبي عقائدي (الطرقية والباديسية) والإباضية والمالكية... الخ، وهو ما تجلى في قول الجنرال الفرنسي لويس رين:" إن مستقبل فرنسا في الجزائر يقوم على التفرقة بين العرب والبربر، والمالكية والإباضية، ومراقبة الطرق الصوفية وتوجيهها".

ولأن شعور الانتماء للوطن يدفع الانسان للحفاظ عليه والدفاع عنه حتى يصبح قوة رئيسية تتولد عنها القوى الأخرى (اقتصادية وسياسية واجتماعية...)، فقد دافع الجزائريون بقوة عن هويتهم، سواء ضد المستعمر الفرنسي، أو ضد أبناء الجزائر الذين انصهروا في بوتقة الثقافة الفرنسية.

ويعد مولود قاسم نايت بلقاسم(1927-1992م) من بين الذين نافحوا عن الثقافة الجزائرية بجميع مقوماتها، خاصة مع حملات التشويه التي طالت تاريخ الجزائر وشعبها، حيث صال وجال في الميدانين الثقافي والسياسي من أجل تمكين الأمة الجزائرية المكانة الطبيعية واللائقة بين أمم الدنيا.

فالرجل أدرك أن للجزائر مقومات خاصة بها، تنعقد عليها هويتها، ولعل الدين واللغة والتاريخ وحب الوطن أبرز هذه المقومات، التي تثبت أن هذا الشعب له تاريخه الخاص، وأنه ليس بحاجة لعصا شعب آخر يتكئ عليها، من أجل إثبات ذاته وتفرده، ولهذا رأينا ضرورة معالجة موضوع جدل الدين واللغة وتأثيرهما في التكوين التاريخي للمجتمع الجزائري من منظور مولود قاسم نايت بلقاسم.

ثانيا: إشكالية البحث

تتمحور إشكالية البحث في إبراز دور الدين واللغة في الحفاظ عن إنية المجتمع الجزائري، وكذا مساهمة مولود قاسم الفكرية في تحديد عناصر الهوية الوطنية، وكيف أن هذه العناصر تفاعلت مع بعضها لتشكل المجتمع الجزائري، لنصل إلى التساؤلات الآتية:

- ما هي جملة الاعتبارات الأصلية والجذرية التي أسست لتكوينية المجتمع الجزائري وساهمت في بنائه التاريخي؟
- أيهما أسّس للتكوين التاريخي للمجتمع الجزائري الدين أم اللغة؟
- هل الدين أسّس للمجتمع الجزائري؟ وأين يتجلّى دوره في المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري؟
- هل احتضنت اللغة الدين أم اعتبرت مناجزا له؟
- ما هي القنوات التي استمد منها مولود قاسم فكره واستخدمها في طرح أفكاره؟
- كيف تعاملت الدولة الجزائرية مع مشكلة العدالة اللغوية في المجتمع الجزائري، وأي دور لعبته المدرسة الجزائرية في صناعة الإنسان الجديد؟

ثالثا: أهمية الموضوع

يستقي الموضوع أهميته من أن الواقع العربي عموما والجزائري خصوصا، أصبح يطرح إشكالية الهوية، خاصة في ظل التحديات التي يشهدها العالم، في إطار نظام العولمة، التي استعملت كنسق للهيمنة والاختراق الثقافي للرموز والخصوصيات الثقافية، كما أنه محاولة لكشف مقومات المجتمع الجزائري عند مولود قاسم، خاصة أن مقومي الدّين واللغة هما الأساس الذي تُبنى عليه هوية المجتمعات، كما يستقي الموضوع أيضا أهميته من النقاشات الراهنة التي مازال الجزائريون يطرحونها حول موضوع الأنا، ومن نحن؟ بحثا عن تحديد الانتماء، في ظل هذا التنوع الثقافي والعرقي، الذي تتميز به البلاد.

ثم إن دراسة التراجم والشخصيات، عادة ما تتطلب موضوعاتها تحري الدقة والموضوعية عند طرح المعطيات المعرفية المتعلقة بالشخصية المراد دراستها، بغية إخراجها في أفضل صورة، لإعطاء فرصة للأجيال اللاحقة للاستفادة منها، ولكيلا تضيع الأعمال التي ناضل من أجلها هؤلاء الأقطاب، الذين يعتبرون رموز الأمة الجزائرية.

رابعا: أسباب اختيار الموضوع

ولأن اختيار الموضوع دائما ما يخضع لعدة اعتبارات، فإن السبب الرئيس لاختيار الموضوع، هو اعتقادنا أن أفكار مولود قاسم لازالت ميدانا خصبا للدراسة، كما أن البحث في مجمله، محاولة لفتح نقاش حقيقي لمسألة الهوية، من منظور رجل عايش فترتين مختلفتين تماما من تاريخ الجزائر، ساهمتا بشكل كبير في بلورة نظرته التاريخية والسياسية، فالرجل أمازيغي العرق، عربي الهوى، ما جعله في مرمى سهام الناقدين، ويمكن إجمال تلك النقاط عموما في:

1. ذلك الطرح الواقعي الذي ميز فكر مولود قاسم، فالرجل أراد علاج المرض قبل ظهوره.
2. أن سؤال الهوية والأنا والآخر؛ لازال يتصدر المشهد الثقافي الجزائري، بل وحتى المشهد السياسي، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالمناسبات الوطنية.

3. أن سؤال الهوية؛ لازال رغم عصر الانفتاح والعولمة يتصدر الأبحاث في العلوم الإنسانية خاصة في عصر الأزمات.
4. تصاعد النبرة الهوية وتوسع دوائرها حتى أضحت أحد آليات تفتيت المجتمعات العربية، خاصة منذ بداية الربيع العربي.
5. أن أغلب ما كتب حول تاريخ الجزائر في مراحل تاريخية متعددة كان يخضع لتوجهات شرقية أو غربية خاصة ما كان حول الفترة القديمة، بحث جعلوا من الجزائر منطقة فراغ حضاري، ما حملنا على ضرورة تصحيح هذه الرؤية الاستعمارية المتحاملة على تاريخ الجزائر.

خامسا: أهداف البحث

نهدف من بحثنا هذا إلى إبراز مجموعة من النقاط هي:

1. الاهتمام بالقضايا الوطنية الثقافية، بغية استشراف مستقبل أفضل للأمة الجزائرية، خاصة في ظل الفوات الحضاري الذي نعيشه في عالم اليوم، حيث أن أغلب الشعوب التي تعاني على المستوى الاجتماعي والاقتصادي، يلجأ أفرادها للنبش في الماضي، واستعادة تلك المشاكل القديمة القائمة على الاختلاف، ومناقشتها في ضوء راهنية اجتماعية جديدة، تختلف معطياتها عن معطيات تاريخية سابقة، وهذا ما يحدث في الجزائر اليوم، خاصة في ظل الانفتاح الإعلامي والثقافي الذي يميز الساحة الفكرية الجزائرية.
2. محاولة المساهمة في كتابة التاريخ الجزائري، بعيدا عن التحيز والانتماء الذي ميز بعض الكتابات السابقة.
3. إزالة اللبس عن رؤية مولود قاسم الفكرية والسياسية، وكشف مدى تأثيرها على الساحة الوطنية.
4. إبراز علاقة الدين واللغة في التكوين التاريخي للمجتمع الجزائري.
5. إبراز أهم الملامح التي كوّنت المجتمع التاريخي.
6. البحث هو محاولة علمية جادة لفتح ومناقشة ملف تكوينية المجتمع الجزائرية.

سادسا: منهج البحث

استجابة لإشكالية هذا الموضوع وسعيا لتحقيق أهدافه، اعتمدت على **المنهج التاريخي** بآلياته؛ -كالاستقراء والتحليل والوصف والنقد...الخ-، لأن موضوع هذه البحث يستدعي إعمال آليتي الاستقراء والوصف، وذلك لتتبع المنجز الهوياتي التاريخي الجزائري وما تعلق به من خطابات ونظريات، أما دراسة المضامين الفكرية والفلسفية لتراث "**مولود قاسم نايت بلقاسم**" وما ترتهن إليه من رؤى وخلفيات، فيستدعي إعمال آليتي التحليل والنقد للكشف عن مكمن التماسك في رؤيته.

سابعا: منهجية معالجة الموضوع

يقتضي البحث التاريخي إعمال مجموعة من الأدوات المنهجية، والتي تمنح البحث ضوابط معرفية، ومن بين هذه الأدوات طريقة التهميش، وقد كانت كالآتي:

في الكتب المنشورة ذكرت اسم المؤلف ولقبه، عنوان الكتاب، ثم التحقيق أو الترجمة، ثم دار النشر، ثم مكان النشر، ثم الطبعة، ثم تاريخ النشر، ثم الجزء، ثم الصفحة.

أما في حالة تكرار ذكر الكتاب في البحث، فإنني أكتفي بذكر صاحب الكتاب، أو كنيته، مع الإشارة إلى عنوان الكتاب، مع ذكر كلمة مرجع سابق، ثم الإحالة إلى رقم الصفحة والجزء.

بينما فيما يخص الملتقيات والندوات العلمية، فإنني أذكر اسم ولقب صاحب المداخلة، ثم عنوان مداخلته، مع الإشارة إلى أعمال الملتقى، ثم بقية المعلومات الأخرى.

أما في حالة المقالات العلمية، فأتيت على ذكر اسم ولقب صاحب المقال، عنوان المقال، اسم المجلة، البلد، العدد، سنة الإصدار، الصفحة.

بينما اعتمدت في ذكر الرسائل الجامعية على ذكر صاحب الرسالة أو الأطروحة ثم عنوان البحث، ثم نوع البحث، ثم الجامعة التي أنجزت فيها الدراسة، ثم سنة المناقشة، ثم الصفحة.

أما فيما يخص بتعريف المصطلحات وشرحها، فقد اكتفيت بشرح بعضها دون الآخر حسب حاجة الموضوع، والإحالة عليها في الهامش، مع الإشارة إليها ب نجمة (*) في المتن.

وأخيرا فإنني ذيلت البحث بفهارس للأعلام، والبلدان، وقائمة للمصادر والمراجع، ثم فهرسا للموضوعات.

ثامنا: خطة البحث

وللإجابة على تلك الإشكالات؛ ارتأينا تقسيم البحث إلى أربعة فصول رئيسة، بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة.

بحيث جاء **الفصل الأول** معنونا بـ: "**شخصية مولود قاسم وفكره**"، حيث استعرضنا فيه مختلف جوانب حياته الشخصية والعلمية، إضافة إلى رحلاته العلمية إلى مختلف الأمصار، وكذا انضمامه لصفوف الحركة الوطنية، وانخراطه في النشاط السياسي ضد الاستعمار الفرنسي، ثم عرّجنا في الأخير على أهم مصادره المعرفية والفكرية، لنستطيع بذلك فهم توجهاته السياسية والثقافية فيما بعد.

أما **الفصل الثاني**؛ فقد ناقشنا فيه "**التشكل التاريخي للمجتمع الجزائري**"، مستعرضين في ذلك جدلية الأصول والانتساب من خلال النصوص القديمة اليونانية والرومانية، وعند المسلمين أيضا، في محاولة للحفر في أكثر من مصدر للخروج بنتيجة تقربنا إلى الحقيقة العلمية، لا النظريات الأسطورية التي طبعت بعض الدراسات والأبحاث، خاصة تلك التي ناقشت مسألة الأصول، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى استعراض أبرز التسميات التي أطلقت على الشعوب التي سكنت منطقة شمال إفريقيا، بالإضافة إلى تقسيماتها الاجتماعية، لنختتم هذا الفصل بـ: معالجة الظروف التاريخية لميلاد المجتمع الجزائري، والمراحل التاريخية لتطور النظام الاجتماعي الأمازيغي.

وخصصنا **الفصل الثالث** لمعالجة "**المقومات الأساسية التي شكّلت المجتمع الجزائري**"، وذلك لا يتأتى إلا بالحفر في التطور الديني واللغوي في شمال إفريقيا عبر الفترات التاريخية المختلفة، عن طريق التطرق لأبرز الديانات واللغات التي ظهرت في

المنطقة، لأنّ ميلاد المجتمع الجزائري، قد جاء بعد مخاض عسير مع الجغرافيا والتاريخ، ولهذا يقتضي هذا المولود التأسيس لعناصر يتمسك بها، حتى تحميه من الاندثار.

لنختم الفصل بالتعرض لمقومات المجتمع عند مولود قاسم، والتي يجملها في التاريخ والدين واللغة.

وفي ختام البحث ناقشنا حدود وامتداد فكرة "الإنية" لمولود قاسم، ودور نظرته في صناعة هوية جزائرية متماسكة، وذلك باستعراض أهم روافد خطاب الهوية في الجزائر، وبيان نقاط التلاقي والتلاغي بين هذه الخطابات، ومحاولة التوفيق بينها، لنصل إلى إبراز دور المدرسة الجزائرية في الحفاظ على تماسك الهوية الوطنية، من خلال مناقشة تدريس اللغة الأمازيغية في المدرسة.

وأخيرا ذيّلنا البحث بخاتمة؛ ضمناها بأهم النتائج التي توصلنا إليها، إضافة إلى اقتراح بعض التوصيات والآفاق التي تخدم البحث العلمي.

تاسعا: الدراسات السابقة

لقد تطلب البحث الرجوع إلى مجموعة من الدراسات السابقة؛ فهي وإن كانت قليلة، إلا أنها كانت مهمة في استعراض جوانب فكرية للمرحوم مولود قاسم، غير أن مؤلفات الرجل كانت الحجر الأساس في بناء ومعالجة هذا الموضوع، خاصة وأننا حاولنا التعامل مع مؤلفات الراحل بطريقة مباشرة.

ولعل من بين أهم هذه الدراسات السابقة التي اعتمدتها في البحث ما يلي:

رسالة ماجيستير بعنوان: "**مولود قاسم نايت بلقاسم نضاله السياسي ونظرته للهوية الجزائرية 1927-1992م**"، للباحث إسماعيل تاحي، من جامعة قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ والآثار، 2007/2006، وهي رسالة مهمة في البحث، خصوصا وأن الطالب قد اعتمد فيها على مقابلات مع أفراد عائلة المرحوم مولود قاسم، خاصة عند استعراض مولده ونشأته، كما أن الباحث تطرق فيها لمسيرة الراحل السياسية منذ أن كان طالبا في الزيتونة وحتى عودته إلى الجزائر، كما استعرض أقطاب الإنية الأربعة عند مولود قاسم، وقد توصل الباحث من خلال بحثه، إلى أن مولود قاسم كان

له الدور الكبير في توسيع دائرة النشاط الثقافي، من المستوى النخبوي إلى المستوى الشعبي الجماهيري، وأن مشكلة الهوية لازالت تمثل إشكالية المثقف الجزائري الأولى بسبب ازدواجية التكوين الثقافي من جهة، والإرث الاستعماري من جهة أخرى.

وكذا كتاب "**مولود قاسم نايت بلقاسم –خواطر وذكريات–**" لرفيق دربه محمد صالح الصديق، وقد حوى الكتاب بين دفتيه العديد من المواقف والمآثر وشهادات الرجل في حق صديقه، وقد كان مفيدا جدا للتأريخ لحياة المرحوم مولود قاسم، خاصة وأن محمد الصالح الصديق قد زامل مولود قاسم في دراسته في تونس بجامع الزيتونة، وروى عنه الكثير من المواقف.

بالإضافة إلى كتاب بعنوان "**البعد الدعوي في أعمال مولود قاسم نايت بلقاسم**"، وموضوع الكتاب يبحث في طروحات وأفكار الأستاذ الراحل مولود قاسم، وعن آليات ووسائل ومبادئ فلسفة بناء المجتمع الإسلامي الحديث، بين ما هو أصل فيه ومرجع، كما يبحث أيضا في مجهود الراحل وكفاحه الدعوي العلمي في بناء جزائر ما بعد استرجاع الاستقلال.

كما لا يفوتني الإشارة إلى كتاب **أحمد بن نعمان** الموسوم بـ "**مولود قاسم نايت بلقاسم حياة وآثار، شهادات ومواقف**"، والذي حوى بين دفتيه العديد من المقالات والحوارات الصحفية والندوات التي أقامها الرجل في حياته، بالإضافة إلى شهادات أصدقائه، ومن عمل معه أيام كان على رأس وزارة التعليم الأصلي، وقد تناولت تلكم المقالات جوانب عديدة ومتنوعة من حياة الرجل، لامست تقريبا جل المراحل النضالية للمرحوم مولود قاسم، وأهم الأعمال التي قام بها على رأس الوزارة، كما جمعت دفتي الكتاب بعض الحوارات المتناثرة في المجلات والجرائد العربية والوطنية، بحكم أن أحمد بن نعمان قد زامل المرحوم مولود قاسم، وجمعتهم الكثير من الأعمال في فترات متعددة من سنوات السبعينيات والثمانينيات.

كما وجب التنبيه أيضا إلى الكتاب الموسوم بـ "**الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم المفكر الموسوعي والوطني الثائر**"، وهو في الحقيقة كتاب أعدته جامعة قسنطينة للعلوم الاسلامية، بمناسبة تخرج الدفعة العشرين سنة 2007م، والتي تحمل اسم المرحوم مولود قاسم، وقد حوى الكتاب على مجموعة مقالات متشعبة المعارف، أبرز فيها المتدخلون

إسهامات الرجل الفكرية والثقافية، وقد ذيّل الكتاب بمجموعة من الملاحق والصور التي تبين نشاط المرحوم مولود قاسم.

وأيضا كتاب: "**سؤال الهوية والإنّية عند مولود قاسم نايت بلقاسم في ظل العولمة**"، وهو أيضا أعمال ملتقى نظمته كلية الفلسفة، بجامعة الحاج لخصر، باتنة/الجزائر، في الفترة الممتدة بين 24/23 نوفمبر 2010، وقد ناقش المتدخلون جوانب من فكر مختلفة من فكر مولود قاسم، إلا أن استفادتي من أعمال هذا الملتقى كانت ترتكز حول ثلاث مداخلات هي:

-الأولى لـ محمد الصغير بن لعلام، انطباعات من وحي الصداقة والعمل، وقد استعرض فيها المتدخل مجموعة من الأحداث والآثار التي جمعته مع مولود قاسم، بحكم مزاملته له أثناء الدراسة، والعمل.

-والثانية لـ عليش لعموري، المقومات الأساسية في بناء الإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم 1927-1992م، وقد كانت مداخلة الباحث حول نظرة مولود قاسم للإنية الجزائرية، وماهي مقوماتها.

-أما الثالثة فهي للباحثة زهراء عاشور، معنونة بـ "الهوية اللغوية بين ساطع الحصري ومولود قاسم نايت بلقاسم"، وقد قامت الباحث بمقارنة المنطلق الإنوي بمولود قاسم مع نظيره ساطع الحصري، مبينة نقاط التلاقي بينهما، ومنبهة إلى نقاط الاختلاف في تبنيهم للنظرة الهووية للمجتمع.

عاشرا: صعوبات البحث

وكعادة كل بحث لا يخلو من الصعوبات، ولعل أكبر صعوبات البحث، هو مكانة الرجل في التاريخ السياسي للجزائر، بدءا بنضاله كطالب في صفوف الحركة الوطنية، وبعدها كمسؤول في الحكومة الجزائرية، الأمر الذي جعل حياة الرجل تقف على العديد من المحطات، ومن بين الصعوبات:

- عدم التزام الكاتب بالقيود الأكاديمية، سواء بالنسبة لتقسيم المادة العلمية، أو في مقدمة كتبه، وحتى خاتمتها التي ذيّل بها كتبه.
- الطابع المناسباتي لمقالات الرجل، فعادة كل مقالاته تحمل مضمونا لإحياء ذكرى أو مناسبة معينة، الأمر الذي حملنا على استنطاق ما كتبه.
- التكرار الذي ميّز أسلوب الكاتب في أكثر من مقالة، ففي كثير من مقالاته يلجأ لعرض نفس الفكرة.
- الطابع الشمولي لشخصية الكاتب، إذ نجده يحاضر في الفن والشريعة، والتاريخ واللغة والسياسة، إلى حد الاضطراب أحيانا، ولهذا جاءت مقالاته متعددة المناهل متشعبة المواضيع.
- الطابع الجدلي لمؤلفات الكاتب، إذ عايش الرجل فترتين مهمتين من تاريخ الجزائر (مرحلة الاحتلال ومرحلة البناء بعد الاستقلال)، ميزهما الجدال والصراع لأجل إثبات الوجود في الأولى، والصراع الفكري في الثانية.

إحدى عشر: مصادر البحث

كما هو معلوم فالراحل مولود قاسم كان قد خلّف وراءه العديد من الكتب والمقالات، ولعل من بين أهم ما تركه:

1- **كتاب إنية وأصالة**

وهو مؤلف ضخم، نشر لأول مرة سنة 1975م، وطبعته مطبعة دار البعث بقسنطينة، وقد حوى بين دفتيه مجموع المقالات التي كتبها مولود قاسم، في مجلة الأصالة، بالإضافة إلى محاضراته الكثيرة التي ألقاها في أوقات متلاحقة ومناسبات مختلفة، وكذا تعليقاته وتدخلاته أثناء جلسات ملتقيات الفكر الإسلامي إلى سنة 1975م، وقد حوى هذا على ستة وسبعين مداخلة، مختلفة الاهتمامات، لكنها اهتمت كلها بموضوع الإنية مثلما يتضح من خلال العنوان الذي اختاره المؤلف لكتابه.

2- **كتاب أصالية أم انفصالية**

يقع الكتاب في جزأين، وقد طبع لأول مرة سنة 1980م، بمطبعة البعث بقسنطينة، ونشرته وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، وقد حوى هو الآخر مجموعة من المقالات التي كان المؤلف ينشرها في مجلة الأصالة، بالإضافة إلى مداخلاته وتعقيباته في ملتقيات الفكر الإسلامي بين سنوات 1975-1980م، وقد اختار له المؤلف عنوانا قريبا لعنوان المؤلف الأول (إنية وأصالة)، وذلك لترابط موضوع الكتابين، كما أن الكتابين يمثلان لب نظرته الإنوية، خاصة وأن موضوع الكتابين قد تطرقا تشعب ولامس كثير من جوانب المشاكل الاجتماعين التي تعاني منها الجزائر بصفة خاصة، والعالم الإسلامي بشكل أعم.

3- **كتاب: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830م**

هو الآخر يقع في جزأين، وطبع لأول مرة سنة 1985م، بدار البعث بقسنطينة، حاول الكاتب من خلاله، أثبات علو كعب الدولة الجزائرية، وقيمتها في البحر الأبيض المتوسط قبل 1830م، وبالعودة على أسباب التأليف، فيرجعها الكاتب إلى إنكار البعض أن يكون للجزائر وجود كأمة من الأمم قبل تعرضها للاستدمار، خاصة وأن الأمر تزامن مع زيارة الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان (Valéry Giscard d'Estaing)إلى الجزائر سنة 1975م، حين قال "أن فرنسا التاريخية تحيي الجزائر الفتية"، وقد تطرق مولود قاسم في كتابه هذا إلى عديد المسائل التي تمس تاريخنا بدءا بالتحالف الجزائري العثماني، وانضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية، ودور هذه الأخيرة في رد الاعتداءات الاسبانية، ثم عرض دور الجزائر في الحفاظ على سلامة البحر المتوسط، والحروب والمعاهدات التي أبرمتها مع دول الحوض المتوسط، مثل ايطاليا والبرتغال، وبريطانيا والدنمارك وغيرها من الدول التي كانت تبحث عن السيطرة على البحر الأبيض المتوسط، كما تطرق لعلاقة الجزائر بروسيا، القوة البحرية العظمى آنذاك.

أما الجزء الثاني فقد خصصه لعلاقة الجزائر مع فرنسا قبل الاحتلال الفرنسي، فيتحدث في البداية عن نشأة العلاقات الجزائرية الفرنسية والمعاهدات التجارية الأولى التي قامت بينهما، منذ عهدي مملكة بجاية وحكومة مارسيليا، وكذلك المساعدات التي قدمتها الجزائر لفرنسا قبل سنة 1830م. كما يتحدث أيضا عن النوايا العدوانية الفرنسية

ضد الجزائر منذ القرن الثالث عشر، ويورد بالتفصيل المشاريع التي سبق أن خُططت للاعتداء على الجزائر من قبل ملوك فرنسا، ثم الغارات العدوانية التي شنتها فرنسا على الجزائر والحروب التي قامت بينهما، رغم المساعدات والامتيازات التي حضيت بها فرنسا في الجزائر.

كما تطرق مولود قاسم بعدها إلى كافة المعاهدات التي أقيمت بين الجزائر وفرنسا، وقد خصص لها فصلا كاملا عنونه ب المعاهدات السبعون بين الجزائر وفرنسا، وقد استعرضها مولود قاسم كلها مراعيا ترتيبها الزمني.

وأما الفصل الأخير من الكتاب فقد خصصه للحديث عن العدوان الفرنسي على الجزائر سنة 1830 وأسبابه، وذيّل الفصل بذكر المعاهدات التي أبرمت بين فرنسا والجزائريين بعد الاحتلال، ووصولا إلى اتفاقيات إيفيان مارس 1962م.

4- كتاب ردود الفعل الأولية داخلا وخارجا على غرة نوفمبر

نشر الكتاب دار البعث سنة 1983م، وقد جاء الكتاب مقسما إلى ثلاثة فصول، تضمن الفصل الأول الأوضاع العامة في الجزائر قبل اندلاع الثورة الجزائرية، كما تطرق إلى نشاط الأحزاب السياسية، أما الفصل الثاني فقد جاء معنونا بردود الفعل الأولى على أول نوفمبر في الجزائر وفي فرنسا، وقد قسمه الكاتب إلى مبحثين ناقش الأول ردود الفعل لدى الأحزاب السياسية هنا في الجزائر وكذلك عند المعمرين أو كما يطلق عليهم المدمرين، أما المبحث الثاني، فإنه استعرض فيه ردود الفعل في فرنسا لدى الحكومة الفرنسية، ممثلة في وزارتها الداخلية، ولدى الشخصيات والصحافة والأحزاب الفرنسية.

أما الفصل الثالث فقد خصصه لردود الفعل خارج الجزائر وخارج فرنسا، وقد قسمه هو الآخر إلى مبحثين؛ تناول الأول ردود الفعل الأوروبية والأمريكية، أما الثاني؛ فقد خصصه لردود الفعل العربية والإسلامية.

كما تجدر الإشارة إلى أن المؤلف له كتاب آخر، بعنوان الجزائر، وهو مكتوب بالألمانية، نشره مكتب جامعة الدول العربية ببون سنة 1957م، وقد احتوى الكتاب على محاضرات وحوارات كان قد ألقاها الكاتب في ألمانيا أيام الكفاح التحرري، لكن للأسف

الكتاب لم يترجم للعربية، وضاع كما ضاعت الكثير من الأحاديث التي كانت له في التلفزة الألمانية والبريطانية، يوم كان نائبا لرئيس مكتب جبهة التحرير الوطني في كل من ألمانيا والنمسا وهولاندا والسويد وبقية الدول الاسكندنافية.

أما بالنسبة للمراجع الرئيسية المعتمدة في هذا البحث نجد:

-كتاب **البربر ذاكرة وهوية** للكاتب الفرنسي غابرييل كامبس (ت2002م)، وقد حاول فيه صاحبه البحث في أصول البربر عن طريق المعطيات اللغوية، وعلم الإناسة، بالإضافة لنشاط قبائل الصحراء القدماء، بالإضافة إلى حياة البربر الاجتماعية والاقتصادية في فترات التاريخ المختلفة، وصولا إلى الفتح الإسلامي، كما تطرق فيه إلى ديانات البربر القديمة، وكيف أن البربر قد تدرجوا في عبادة الآلهة حتى وصلوا الإسلام، فالكتاب يعد مصدرا مهما للتأريخ للفترة القديمة من حياة البربر، غير أنه يجب التنبيه، ورغم أن **كامبس** ولد بالجزائر (20 ماي 1927م) واشتغل بالتعليم في ثانويات العاصمة ومشرفا على "المركز الوطني للبحث الاجتماعي"، و"المركز الجزائري للبحوث الأنثروبولوجية وما قبل التاريخ والإثنوغرافية" إلى غاية 1969م، ورغم التزامه بالموضوعية في كثير من أبحاثه، إلا أنه وقع في الزلل المنهجي الذي وقع فيه سابقوه من الباحثين، بعد أن حاول طمس جهود الأمازيغ القدماء، حين رأى أن المنطقة دخلت التاريخ ليس بجهودها، وإنما بجهد الغزاة، أما كتاب **حرب يوغرطة** لـ ساليستيوس، والذي أشار فيه إلى تاريخ البربر القديم، فهو الآخر اعتمد فيه على الرواية الأسطورية في تدوينه، ثم إنه يمثل الخط الأيديولوجي لروما، ولهذا وجب الحذر عند التعامل مع مثل هذه المصادر رغم أهميتها العلمية والمعرفية.

-كتاب **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي** للباحث عبد الكريم غلاب، والذي حاول من خلاله ربط الجغرافيا الطبيعية لشمال افريقيا بالتاريخ، وقد حاول إثبات أن المغرب لم يكن يوما أرضا بكرا بل إن توسطها العالم القديم يجعل منها محطة هامة للتجارة والزراعة، ثم استعرض كافة الرحلات التي كانت من/إلى بلاد المغرب، ليخلص في الأخير إلى أن المغاربة أصلاء في بلادهم، رغم كل محاولات التهميش والتزييف.

-كتاب **سؤال الهوية في شمال افريقيا** لصاحبه محمد الكوخي؛ وقد حاول فيه الباحث مناقشة سؤال الهوية في شمال افريقيا من مختلف أبعاده البشرية واللغوية والثقافية والتاريخية

والسياسية، مشيرا في الوقت نفسه أن سؤال الهوية في المنطقة المغاربية، هو سؤال حديث برز بعد مجيء الاستعمار ونشوء الدولة الحديثة، كأحد نتائج هذا التحول البنيوي في حياة المجتمعات المغاربية، كما أن الكاتب يدافع بشدة عن مقولة التعدد والانصهار في تعريف هوية الانسان في المنطقة، وبالتالي فإن أي حديث عن هوية جزئية أو خاصة، عربية كانت أم أمازيغية هو من قبيل الخرافة.

-كتاب **اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي** لـ جلبير غرانغيوم؛ وقد تحدث فيه عن ظاهرة التعريب في شمال افريقيا، وكيف أن السلطات الحاكمة عملت على اقصاء اللهجات المحلية، بحجة إحداث القطيعة مع المستعمر القديم، بحيث اعتبر التعريب سلاح لشرعنة الحكم في شمال افريقيا، كما تحدث عن دور القرآن في هذا المسعى، إذ يعتبره مؤسسا للغة جديدة، في بيئة كانت لوقت طويل تابعة لقوى امبراطورية، فشلت في ترسيخ لغاتها في المنطقة.

الفصل الأول:

شخصية مولود قاسم وفكره

المبحث الأول: حياة مولود قاسم الشخصية والعلمية

المبحث الثاني: نضال مولود قاسم السياسي والثقافي

المبحث الثالث: المرجعية الدينية والوطنية لدى مولود قاسم

الفصل الأول: شخصية مولود قاسم وفكره

إن الكتابة عن مولود قاسم ومآثره، وخصاله، لا يمكن أن يحيط بها موضوع كهذا، لأن الرجل عظيم حياّ وميتّا، فهو من الشخصيات التي تركت أثرا كبيرا في مسار الحياة الثقافية والتعليمية في الجزائر، ومن الباحثين الذين لازالت تشد إليهم الأقلام، خاصة إذا تعلق الأمر بتاريخ الجزائر الثقافي، لقد عاش الرجل من أجل تثبيت مبدأ أمة جزائرية موجودة في التاريخ، تقوم على هوية ثابتة مقوماتها الإسلام والعربية وحب الوطن، وقد صاحب وجود هذه الثلاثية حياته كلها من نعومة أظافره إلى يوم وفاته، غير أنه وجب التنويه إلى أننا بصدد التأريخ لسيرة رجل هو نفسه لم يكتب عن نفسه شيئا، كما فعل أقرانه، بل إنه لما سئل عن ذلك اكتفى بالقول: "أنه ليس من الاحتشام ولا من التواضع أن يتكلم الانسان عن نفسه هكذا –وأسوء من ذلك أن يكتبه– خاصة إذا لم يفعل أكثر من أداء واجبه"[1]، غير أنه عاد بعد ذلك وكتب بعضا من فترات حياته بشكل عابر، ولهذا كانت شهادة رفاق دربه في شخصه وسيرته، أهم بكثير مما كتبه عن نفسه.

سنحاول في هذا الفصل تتبع مراحل حياته منذ الولادة وبدايات تحصيله العلمي، مرورا بحياته النضالية في الفترة الاستعمارية وما بعد الاستقلال، كما سنعمل على توضيح أهم المصادر الفلسفية لنظرته الإنوية.

---

[1]– أحمد بن نعمان، مولود قاسم نايت بلقاسم –حياته وآثاره–شهادات ومواقف، دار الأمة، الجزائر، ط2، 1997، ص12.

المبحث الأول: حياته الشخصية والعلمية

يعتبر التأريخ لحياة الأشخاص عملا مهما لاستشفاف أبرز محطات حياتهم، وتأثيرها عليهم، ولهذا سنحاول في هذا المبحث تتبع حياة مولود قاسم، وأبرز المحطات التي مر بها، بدءا بمولده ونشأته، ثم تتبع مسار نضاله السياسي والثقافي، ونصل إلى دراسة أهم المرجعيات الفكرية التي ساهمت في بلورة نظرته الإناوية.

المطلب الأول: المولد والنشأة

ولد **مولود بن محمد أوسعيد نايت (آيت، آيث) بلقاسم**، في 06 يناير 1927م، بقرية بلعيال* إحدى قرى جبال بني عباس في القبائل الصغرى[1]، نشأ وسط عائلة فلاحية متوسطة الحال[2]، مكونة من الأب والأم وأخوين[3]، عرفت عائلته الحياة النضالية منذ أن وطئت قدم المستدمر الفرنسي أرض الجزائر، فقد شارك أجداده في ثورة المقراني سنة 1871م، مما جعل العائلة تعيش تحت ظروف القهر والحرمان والمراقبة من طرف السلطات الفرنسية، انتقاما لمشاركتها في المقاومة، فكان همّ والده عندئذ توفير الحد الأدنى للعيش لعائلته، الأمر الذي دفعه للهجرة إلى فرنسا علّه يستطيع توفير حياة كريمة لهم، مما دفع مولود قاسم إلى تحمل مسؤولية البيت مبكرا بحكم أنه أكبر إخوته[4]، وهو ما ساهم بشكل كبير في صقل شخصيته مبكرا.

---

* قرية بلعيال هي إحدى قرى آيث عباس التابعة إداريا لبلدية إغيل علي دائرة أقبو بولاية بجاية.

[1]– يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995، ج1، ص267.

[2]– محمد الصغير بن لعلام، انطباعات من وحي الصداقة والعمل، ضمن كتاب سؤال الهوية والإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم في ظل العولمة قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخصر، باتنة/الجزائر، 24/23 نوفمبر 2010، ص115.

[3]– تاحي إسماعيل، مولود قاسم نايت بلقاسم نضاله السياسي ونظرته للهوية، مذكرة ماجيستير، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة/الجزائر، 2007/2006م، ص10.

[4]– المرجع نفسه، ص 10.

تلقى تعليمه الأول كبقية أقرانه في كتاتيب القرية، علي يد الشيخين **محمد آمقران شقار ومحمد آقسوح**[1]، وقد كانت تتولى هذه الكتاتيب تعليم مبادئ القراءة والكتابة، وتحفيظ جزءا من القرآن الكريم، فحفظ من القرآن الكريم ما شاء له الله أن يحفظ، ثم انتقل بعدها إلى المدرسة الفرنسية بالقرية سنة 1933م، بعد بلوغه سن السادسة، حيث كان التعليم بها إجباريا، وهناك تابع تلقي دروسه حتى أتمّ المرحلة الابتدائية[2]، وقيل أنه تركها عامدا لبعد تلك المدرسة عن مسكنه[3]، بعد ذلك أخذه والده إلى زاوية سيدي **يحي العيدلي** بثامقرا، رغبة منه في أن يحفظ القرآن كاملا، ويكتسب فيها معلومات فقهية ولغوية تمكنه من تبوأ منصب إمام القرية مستقبلا، وهناك جلس إلى الشيخ **طاهر آيت علجت**[4] –أطال الله عمره–، والذي ملأ قلب مؤلفنا علما وإيمانا، الأمر الذي فتح عينيه أكثر على حب العلم وصار متطلعا لأكبر من الإمامة والإفتاء.

بعد أن أتم مولود قاسم تعليمه في زاوية سيدي **يحي العيدلي**؛ توجه صوب مدرسة جمعية العلماء المسلمين والتحق بها رغبة في الاستزادة في العلم، وكانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد أسّست مدرسة بقلعة بني عباس سنة 1934م وافتتحتها سنة 1936م[5]، ردا على النشاطات التبشيرية الكبرى التي كانت تمارسها السلطات الفرنسية بمنطقة القبائل، إذ عرفت المنطقة نشاطا كبيرا، سواء من طرف السلطات الفرنسية التي بنت المدارس وأجبرت سكانها على الالتحاق بها أو التعرض للعقوبة، أو من طرف الإرساليات التبشيرية التي أرادت فصل المجتمع الجزائري عن هويته الدينية، وهناك درس على يد المربي الشيخ **محمد وعمرو جلواح**[6]، والذي بث في روح مؤلفنا رحمه الله قيم الوطنية

---

[1]– أحمد شقار الثعالبي، هوت ثريا مضيئة من سماء الوطن، عن أحمد بن نعمان، مولود قاسم نايت بلقاسم –حياة وآثار، شهادات ومواقف، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، دط، 2016، ص217.

[2]– تاحي إسماعيل، مولود قاسم.... ونظرته للهوية، مرجع سابق ص 12.

[3]– عصام بن الشيخ، العلامة مولود قاسم نايت بلقاسم الأمازيغي المدافع عن العربية، عن أحمد بن نعمان، مرجع سابق، ص306.

[4]– محمد الصغير بن لعلام، انطباعات من وحي الصداقة، مرجع سابق، ص115.

[5]– يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، مرجع سابق، ص266.

[6]– أحمد شقار الثعالبي، هوت ثريا من سماء الوطن، مرجع سابق، ص217.

الأصيلة، إضافة إلى اكتسابه معارف جديدة، في فترة دراسته تلك، انبثق فيها وعيه، وامتدت آفاق دراسته لأبعد من العلم والمعرفة، فصار مهتما أكثر بواقع الأمة الجزائرية وما تعانيه تحت وطأة الاحتلال، كما أهلته تلك المعارف للالتحاق بجامع الزيتونة.

المطلب الثاني: رحلاته العلمية

تعتبر الرحلة العلمية إلى الحواضر العلمية ذائعة الصيت كالزيتونة والأزهر، ملاذ الكثير من الجزائريين الراغبين في التحصيل العلمي، وتحصيل المعرفة، لنيل الحظوة العلمية في الجزائر، ولهذا لم يشذ مؤلفنا عن القاعدة، وكانت له رحلات علمية عديدة منها:

الفرع الأول: رحلته الى تونس

لقد كان لهذا الازدواج التعليمي أثره على شخصية مولود قاسم، مما انعكس على اهتماماته الفكرية فيما بعد، خاصة لما أتيحت له فرصة السفر إلى تونس سنة 1946م، لمواصلة دراسته العلمية هناك بجامع الزيتونة الشهير، وعن هذه الرحلة يروي مولود قاسم أنّ هجرته كانت حافلة بالمصاعب، حيث كان الوصول إلى هناك محفوفا بالمخاطر وبعد جهد جهيد، حيث أنه قطع المسافة بين الحدود الجزائرية والتونسية ليلا سيرا على الأقدام وعبر الجبال والشعاب رفقة تجار السوق السوداء، خوفا من الوقوع في أيدي المراقبة الفرنسية[1]، ولما وصل إلى هناك وهب نفسه للعلم والتعلم، رغبة في التحصيل والتفوق، إذ كان يلزم نفسه بدراسة مقررات من هم أكبر منه، إضافة إلى إنجاز ما يكلفه به أساتذته من فروض وأعمال أدبية[2]، مما جعله رائدا في العلم بالنسبة لأقرانه، إذ يروي من عرفه هناك أنه كان ينكب على قراءة كل ما وقعت عينه عليه، سواء في الأدب أو التاريخ أو السياسة، ثم عاد إلى الجزائر سنة 1947م، ودخل السجن بسبب حديثه عن مجازر 8 ماي 1945م، لكنه عاد إلى تونس

---

[1]– عليش لعموري، المقومات الأساسية في بناء الإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم 1927–1992م، ضمن كتاب أعمال الملتقى الوطني الأول سؤال الهوية والإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم في ظل العولمة، مرجع سابق، ص276.

[2]– محمد صالح الصديق، الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم –خواطر وذكريات ومواقف وشهادات–، دار الأمل، تيزي وزو/الجزائر، ط2، 2004، ص31.

بعد خروجه من السجن واستقر بجامع الزيتونة، حتى تحصل على شهادته الجامعية سنة 1949م.

أما عن الظروف الاجتماعية التي صاحبت وجوده في تونس فيروي صديقه محمد الصالح الصديق أن "الكثير منا _طلبة الجزائر_ فقراء يعانون من شظف العيش ما يجعل الحياة عسيرة لا تطاق، وكان مولود قاسم من هؤلاء لولا المعونة المالية من المرحوم عمرو شريفي صاحب المكتبة الجزائرية بباب عزون سابقا لتوقف وسط الطريق، وكان إذا اتصل بهذه الإعانة دعاني لتناول القهوة في مقهى الديوان التي كان للطلبة فيها خفض قليل، فأبتهج واعد ذلك اليوم سعيدا"[1]. إن هذه القصة من محمد الصديق تبين مدى صعوبة الظروف التي واجهت الطلبة الجزائريين، خاصة وأن المستعمر الفرنسي قد حرم الجزائريين من أبسط متطلبات الجزائريين وهو الأكل، كما تبين لنا مدى التلاحم الذي كان بين الطلبة من جهة والشعب الجزائري عامة من جهة أخرى، إذ كان الواحد منهم يجود على زملائه بما يملك ولو كان قليلا، ومما يستفاد من هذه القصة أيضا أن تجار الجزائر كان لهم الفضل في وصول بعض الطلبة لما هم عليه اليوم، وإذا ما نظرنا إلى كل هذه العوامل نستطيع أن نفهم لماذا استطاع الجزائريون القيام بأعظم ثورة في القرن العشرين، لقد كان اكمال الدراسة في ظل هذه الظروف تحديا كبيرا، فكيف بمن صنع التفوق وتخرج الأول في دفعته؟

الفرع الثاني: رحلته الى مصر

بعد أن أكمل دراسته في تونس سنة 1949م وتخرجه بدرجة امتياز، هاجر مولود قاسم إلى فرنسا والتحق بمعهد اللغات الشرقية بباريس[2]، وهناك اطلع على مناهج المستشرقين حول التاريخ الإسلامي، وكذا أتيحت له الفرصة للاطلاع على التراث الغربي، لقد كانت تلك الفترة على قصرها مهمة جدا في صدمة مولود قاسم المعرفية، إذ لعب الفكر الغربي دورا في استواء فكر الشخصية والإنية لديه، لكن سرعان ما استدعته قيادة حزب الشعب في القاهرة للالتحاق بمصر سنة 1950م، بغرض تحويله إلى العراق لدراسة الطيران

---

[1]– محمد صالح الصديق، الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم –خواطر وذكريات ومواقف وشهادات–، مرجع سابق، ص20.

[2]– أحمد بن نعمان، مولود قاسم... حياة وآثار، مرجع سابق، ص16.

كما يروى عنه[1]، غير أن هذه الرحلة لم يكتب لها النجاح بسبب الخلاف بين مصر والعراق آنذاك، فلم يجد مولود قاسم بدا من أن يلتحق بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة ويسجل بقسم الفلسفة، وهناك أتيحت له الفرصة للتعرف على أساتذة كبار كمحمود قاسم، وعبد الواحد وافي، وتوفيق الطويل، وزكي نجيب محمود وفيلسوف الجوانية عثمان أمين ، وبفضلهم استطاع الاطلاع على أعلام الفكر الغربي **كماركس وكانط وهيغل** وغيرهم من الفلاسفة الذين ساهموا في تأطير الوعي الأوروبي في العصر الحديث، إلى جانب اطلاعه على أعلام الفلسفة الإسلامية كابن سينا وابن رشد والفارابي وابن طفيل، غير أن عثمان أمين كان له التأثير البالغ على شخصية مولود قاسم (تأثر به مولود قاسم أيما تأثر بسبب انتصاره للقضية الجزائرية التي كانت غائبة عند كل من عرفهم هناك) خصوصا وأنه أبدى اهتماما بالغا بالقيم الإنسانية كالحرية والتحرر والعقل والأخلاق، الأمر الذي حفّز مولود قاسم العاشق للحرية والقيم الأخلاقية، لقد كان لاحتكاك مولود قاسم بهؤلاء الأساتذة فرصة كبيرة للاطلاع على مراحل تطور الفكر الفلسفي بكل حقبه الزمنية الأمر الذي ساعده على بناء رؤيته المذهبية الإنوية[2].

من جهة أخرى كانت دراسته بمصر فرصة له لزيارة الشام والاطلاع على أحوالها، ومما يروى أن اسم قاسم التصق به هناك، إذ كتب مولود قاسم العديد من المقالات للتعريف بالجزائر وقضيتها، بعد أن لمس غياب هذه القضية وسط الأمة الإسلامية نهائيا، لقد كانت جريدتي النصر والأيام منبرا لإسماع صوته والتعريف بقضيته الأم، ولم يأل جهدا في مهمته هذه حتى داخل مصر، إذ يروي رحمه الله أنه طلب مرة ملاقاة الوزير المصري ليطلعه على أحوال الجزائر، وعن ظروف القهر والحرمان التي يعانيها الجزائريون والتي وصلت حد سرقة هوية الشعب الجزائري عن طريق إلحاقه بالدولة الفرنسية، وقد أراد مولود قاسم أن يدلل على كلامه باستخراج جواز سفره الذي كان فرنسيا، الأمر الذي أدهش الوزير المصري، وفي الوقت الذي توقع مولود قاسم من الوزير المصري المساندة والانتفاضة للقضية الجزائرية حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ ضحك الوزير المصري متعجبا وقال: "أنت تملك جواز

---

[1]– أحمد بن نعمان، مولود قاسم... حياة وآثار، مرجع سابق، ص16.

[2]– تاحي إسماعيل، مولود قاسم...ونظرته للهوية، مرجع سابق، ص18

سفر مثل هذا! يا بختك"[1]، الأمر الذي أغضب مولود قاسم كثيرا، وقال للوزير المصري أنا أعتز بجزائريتي لا بفرنسا واستأذن بالانصراف.

الفرع الثالث: هجرته إلى أوروبا

تخرج مولود قاسم من قسم الفلسفة سنة 1954م وكان الأول على دفعته كالعادة، ليرحل إلى فرنسا مباشرة قصد مواصلة تكوينه العالي، وهناك بفرنسا سجّل بجامعة السوربون رسالة الدكتوراه بعنوان الحرية عند المعتزلة، غير أن نداء الوطن كان أقوى إذ أن نشاطه السياسي المبكر وانخراطه في صفوف حزب الشعب حتّم عليه الاستجابة لنداء الثورة، وهو الأمر الذي كان عائقا أمامه لإكمال دراسته العليا، مما اضطره للانتقال إلى براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا آنذاك، لكنه غادرها سريعا إلى ألمانيا وبالضبط إلى مدينة بون سنة 1957م وسجّل بجامعتها مجددا لتحضير دكتوراه في الفلسفة بعنوان الحرية عند كانط، غير أن النضال السياسي منعه من ذلك مرة أخرى، فوهب نفسه لقضية الجزائري الكبرى وهي حرية الجزائر من المستدمر الفرنسي، إذ عيّن نائبا لرئيس مكتب جبهة التحرير الوطني في كل من ألمانيا والنمسا وهولاندا والسويد وبقية الدول الاسكندنافية[2].

لقد ظل حلم الحصول على الشهادة يراود مولود قاسم مهما تقدم به العمر وتقلده المناصب السياسية المختلفة، إذ يشير أبو القاسم سعد الله أن مولود قاسم قد قام بتسجيل مشروع الدكتوراه من جديد بجامعة الجزائر، غير أنه لم يوفق مرة أخرى لإكمال دراسته، وهكذا نجد أن حياة الراحل كانت مثابرة واجتهاد وكد، لبلوغ أعلى المراتب العلمية لخدمة الجزائر وفقط[3].

---

[1]– محمد الصغير بن لعلام، انطباعات من وحي الصداقة والعمل، مرجع سابق ص116.

[2]– أحمد بن نعمان، مولود قاسم، مرجع سابق، ص17.

[3]– أبو القاسم سعد الله، سي مولود ظاهرة فذة، عن أحمد بن نعمان، مرجع سابق، ص223.

المبحث الثاني: نضاله السياسي والثقافي

عرفت مسيرة الرجل النضالية العديد من المحطات المهمة، فالرجل وعى المعركة الحقيقية للأمة الجزائرية منذ نعومة أظافيره، ولهذا كانت حياته مليئة بالجهاد المتعدد، فمن الجهد في سبيل الوطن إلى الجهاد في سبيل الفكر والرأي والثقافة.

المطلب الأول: انخراطه في صفوف الحركة الوطنية ونشاطه السياسي

شهدت الجزائر في الربع الأول من القرن العشرين، أول بوادر الحركة السياسية على يد الأمير خالد، ثم ما لبثت أن تطورت تحت ضغط التغيرات العالمية آنذاك، وقد وجد فيها الجزائريون الملاذ للتعبير عن رغباتهم، وتوجهاتهم الفكرية والسياسية، ولعل حزب الشعب الجزائري، كان أكثر الأحزاب تأثيرا على الساحة السياسية الجزائرية، وسنحاول في هذا المطلب تتبع مسار النضال السياسي لمولود قاسم منذ انخراطه في صفوف الحركة الوطنية.

الفرع الأول: انضمامه لحزب الشعب

لقد كان الانضمام إلى الحركة الوطنية الجزائرية أول خطوات النضال السياسي، ولذلك نجد أن أول خطوات مولود قاسم في هذا المجال كانت لحظة وصوله إلى تونس، إذ يروي صديقه محمد الشريف بن الشيخ الذي رافقه في رحلته العلمية إلى تونس سنة 1946م، أنهم لما وصلوا إلى تونس انفتح أمامهما اتجاهان، ولابد من الجمع بينهما، ولا سيما بالنسبة للفتى الجزائري الذي كان يطمح إلى مستقبل أفضل؛ اتجاه لطلب العلم واتجاه آخر سياسي أملته علينا وضعية البلاد [1].

وبهذا انخرط مولود قاسم رسميا في جمعية الطلبة الجزائريين، والتي كان يرأسها آنذاك عبد الحميد مهري، وكانت هذه الجمعية أحد الفروع التي تنتسب إلى حزب الشعب الجزائري، والتي كانت مسؤولة عن تأطير الطلبة الجزائريين بالخارج، من خلال عقد لقاءات دورية في خلايا أو اجتماعات رسمية، يحضرها كبار المسؤولين في الحزب آنذاك مثل المرحوم أحمد مزغنة والأمين دباغين، حيث كانت هذه الاجتماعات تعرّف الطلبة بقضايا الجزائر ومنهج العمل السياسي، وهو ما وجد فيه مولود قاسم غايته.

لقد كانت مرحلة دراسته في تونس فرصة له في التحصيل وبناء شخصيته التي كان لها الأثر في اتخاذه لكثير من المواقف فيما بعد، لقد فهم مولود قاسم مبكرا أن المعركة

---

[1]– محمد الشريف بن الشيخ، صور ومواقف، عن أحمد بن نعمان، حياة وآثار، ص211.

الكبرى هي تحرير الجزائر من المستدمر الفرنسي لذلك نراه يكتب ويحاضر في السياسة، فقد كان جل اهتمامه متركزا حولها، لذلك كانت خطاباته تركّز على الأوضاع السياسية التي تميز الجزائر بصفة خاصة والأمة الإسلامية بصفة عامة، وقد تجلى هذا الاهتمام أكثر في تونس إذ يعمد الطلبة الجزائريون إلى التمرن على الخطابة مساء كل خميس (كان الطلبة الجزائريون يتمرنون على الخطابة لأن نصيبهم من التعليم عندما يعودون إلى الجزائر، سيكون الإمامة أو تعليم القرآن في إحدى الزوايا فكانت الخطابة ضرورية لمثل منصب كهذا)، فكان معظم الطلبة يتحدثون في الدين والأخلاق، إلا مولود قاسم فإنه يتحدث في السياسة والنقد والتنديد بتأخر المسلمين، الأمر الذي جعله في مرمى سهام بعض الطلبة الذين كانوا يخشون دخول هذا المضمار الخطير، إذ عابوا عليه اهتمامه الزائد بالسياسة الأمر الذي لم يتقبله مولود قاسم "فكان منه إلا أن هاج وثار وقذف بكلمات لاذعة"[1]،

وبعد انتقاله إلى مصر سنة 1950م، كان أول اتصال له بالطلبة الجزائريين المقيمين هناك، على يد لجنة تحرير المغرب العربي، والتي كان من مهامها استقبال ومساعدة الطلبة الجدد القادمين من البلاد المغاربية[2]، حيث أصبح عضوا نشطا بها، وتعرف من خلالها على العديد من الشخصيات الوطنية، لعل أبرزها محمد بوخروبة المعروف ب هواري بومدين، وعن هذه التجربة يروي مولود قاسم أنه كان إلى جانب دراسته، كان في الوقت نفسه يساعد الإخوان في مكتب القاهرة[3].

الفرع الثاني: نشاطه السياسي في الحركة الوطنية

انفتحت عين مولود قاسم نايت بلقاسم على النشاط السياسي منذ صباه، لما كان طالبا في مدرسة جمعية العلماء المسلمين، حيث يشهد من عاصروه أنه لما كان بالمدرسة الفرنسية، ونتيجة لليتم التاريخي الذي أحسه هناك اطلع على كتابين مهمين في تاريخ الجزائر؛ الأول كان بعنوان "هذه هي الجزائر" للمؤرخ أحمد توفيق المدني، والثاني بعنوان "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" لأحد أعمدة الجمعية مبارك الميلي[4]، فكان الكتابان بمثابة

---

[1]– محمد الصالح الصديق، خواطر وذكريات، مرجع سابق، ص21.

[2]– تاحي إسماعيل، مولود قاسم... ونظرته للهوية، مرجع سابق، ص17.

[3]– أحمد بن نعمان، حياة وآثار، مرجع سابق، ص16.

[4]– المرجع السابق، ص40.

الأرضية التي انطلق منها، غير أن رحلته إلى تونس كانت الانطلاقة الفعلية للنشاط السياسي، فهناك تعرف على أقطاب النشاط السياسي الجزائريين، الذين وجدوا في تونس الأرضية المناسبة لممارسة نشاطهم.

وتجدر الإشارة إلى أن مولود قاسم لحظة وصوله إلى تونس، وجد زخما كبيرا من النشاط الثقافي والسياسي في أوساط الطلبة الجزائريين، الأمر الذي حفزّه للانخراط معهم، فانضم إلى جمعية العلماء المسلمين سنة 1946م، وكانت تنتسب وقتها إلى حزب الشعب، ويرأسها آنذاك المناضل الكبير عبد الحميد مهري[1]، وأصبح عضوا فعّالا داخل الحزب، لما عرف عنه من الحيوية والنشاط، مما أتاح له التقرب من أقطاب الحركة الوطنية هناك؛ أمثال أحمد بودة، والدكتور محمد الأمين دباغين، حامد الروابحية، أحمد مزغنة، والأمين بلهادي، الذين كان لهم الفضل في تبلور النشاط السياسي للمرحوم مولود قاسم وخاصة في شقه الثوري الاستقلالي.

عاد بعد ذلك مولود قاسم إلى الجزائر سنة 1947م، وكانت البلاد لازالت تئن من وطأة مجازر 8 ماي 1945م، مما جعل أعين البوليس الفرنسي تتبع حركة كل أبناء البلد الوافدين عليه من الخارج، وكان مولود قاسم من بينهم، حيث عاد إلى مسقط رأسه، وصار يعلّم أبناء القرية الأناشيد الوطنية في فترة الصيف، وسجن بسبب ذلك في أقبو من جوان إلى نوفمبر 1947م[2].

بعد خروجه من السجن عاد إلى تونس لاستكمال دراسته، وهناك واصل طريقه النضالي، في صفوف الحركة، لكنه هذه المرة اختار جهاد القلم، فأصبح يشارك في الكتابة في جريدة المغرب العربي الجزائرية، وكانت الناطقة باسم حركة انتصار الحريات الديمقراطية، كما كان يساهم بكتاباته في جريدة المنار، وقد ساعده في ذلك سعة اطلاعه، وسعة أفقه، وكثرة مداومته على نشاطات الجمعية والحزب، مما أهله للارتقاء في صفوف الحركة، "إلى أن بلغ عضوا قياديا في اتحاد الطلبة الذي كان يرأسه عبد الحميد مهري"[3].

---

[1]– محمد الشريف بن الشيخ، صور ومواقف، عن أحمد بن نعمان، حياة وآثار، مرجع سابق، ص211.

[2]– سليم شيخاوي وطاهر يحياوي، في بيت المرحوم مولود قاسم مواقف وذكريات، عن أحمد بن نعمان، حياة وآثار، ص26.

[3]– تاحي إسماعيل، مولود قاسم... ونظرته للهوية، مرجع سابق، ص42.

لقد كانت الثورية أحد صفاته الأساسية إذ يروى أنه "تزّعم حركة الطلبة التي دعت إلى إضراب عام للمطالبة بإدخال العلوم الحديثة في المنهج الدراسي، ولم يتوقف الاضراب إلا بعد الاستجابة لهذا المطلب"[1].

بعد تخرجه من الزيتونة سنة 1949م رحل مولود قاسم إلى فرنسا كما يروي عن نفسه[2] والتحق بمعهد اللغات الشرقية بباريس، لكنه اشتغل في الوقت نفسه بالمكتب الدائم لحركة انتصار الحريات الديمقراطية، وكان بالمكتب وقتها محمد يزيد، والدكتور شوقي مصطفاي، وبلقاسم راجف، ومحمد خيضر، وعابد فيلالي، غير أن إقامته هناك لم تدم طويلا، فقد استدعي لمصر سنة 1950م بواسطة الشاذلي المكي، ممثل الحزب بالقاهرة، وكان من المفترض أن يوجه لدراسة الطيران في العراق، لكن الأزمة الديبلوماسية بين مصر والعراق حالت دون ذلك، فالتحق بكلية الآداب لدراسة الفلسفة، وفي الوقت نفسه كان يتردد على مكتب الحزب لمساعدة القادة هناك[3].

تعتبر فترة الدراسة في مصر مهمة جدا في حياة الراحل النضالية، فبفضلها استطاع أن يوصل صوت الجزائر لكل الأقطار العربية، وخاصة بلاد الشام، من خلال نشره للكثير من المقالات التي تشرح معاناة الشعب الجزائري، في العديد من الصحف والمجلات العربية المختلفة، كما أتاحت له الفرصة للتعرف على أقطاب النضال في المغرب العربي، وهذا بفضل انضمامه إلى لجنة تحرير المغرب العربي*، والتي كانت تضم الحركات النضالية لدول شمال افريقيا الثلاث، مما ساهم في تبادل الآراء وتعزيز أواصر التعاون بين النخب

---

[1]– محمد الصغير بن لعلام، انطباعات من وحي الصداقة، ضمن كتاب سؤال الهوية والإنية، مرجع سابق، ص115/116.

[2]– حوار أجراه مولود قاسم مع جريدة الجمهورية بتاريخ 1985/07/13م، عن أحمد بن نعمان، حياة وآثار، مرجع سابق، ص15.

[3]– المرجع السابق، ص16.

*: تأسست هذه اللجنة بالقاهرة في 1948/01/05م، بزعامة المغربي عبد الكريم الخطابي، وكانت تضم حركة الانتصار للحريات الديمقراطية الجزائرية، الحزب الدستوري التونسي، وحزب الاستقلال المغربي، كان هدفها توحيد النضال المغاربي، إذ اعتبرت أن قضية المغرب العربي واحدة، وكفاحه واحد، كما ربطت مستقبل المغرب العربي بالعالم الإسلامي، مع بيان أن المغرب كل لا يتجزأ، وبالتالي وجب أن يمس الاستقلال أقطابه الثلاث.

المغاربية، فأصبح مولود قاسم أكثر نشاطا، وثورية، فأحيا المناسبات الوطنية، وشرح القضية الجزائرية للأخوة العرب، مبينا أنّ الجزائر تمر بفترة عصيبة من تاريخها، ومؤكدا في الوقت نفسه على عروبتها، وأن تاريخها من صميم التاريخ الإسلامي والعربي.

إن أهم قرار تمخّض عن نشاط الحركة وقيادات الحزب في مصر، هو تكوين رأي عام جزائري، موحد، رافض للوجود الفرنسي في الجزائر، وهو ما ساهم في تعزيز الفكر الثوري الاستقلالي لدى قيادات الحركة، ثم بثه في وعي الطلبة الجدد القادمين إلى مصر، فلم تمضي أربع سنوات من وصول مولود قاسم إلى مصر حتى اندلعت ثورة الفاتح من نوفمبر، وقد كان وقتها مولود قاسم قد تخرج من جامعة القاهرة، وانتقل إلى فرنسا لمواصلة دراسته هناك، وكان قد سجّل بجامعة السوربون رسالة لنيل دكتوراه دولة "تحت عنوان الحرية عند المعتزلة مع الأستاذ دو غونداياك"[1]، غير أن اندلاع الثورة الجزائرية، والذي زامنه نشاط كثيف للمرحوم مولود قاسم آنذاك داخل الأوساط الحزبية والحركة الطلابية، حال دون اتمامه لرسالته، إضافة إلى أوضاعه الاجتماعية الصعبة التي كان يعيشها في فرنسا، والتي حتمت عليه الاشتغال بسفارة العراق لسد حاجته المعيشية[2].

كان لمولود قاسم نشاط حزبي كبير في فرنسا، خاصة بعد تأسيس فدرالية جبهة التحرير الوطني عام 1955م بفرنسا، والتي بفضلها تمكنت جبهة التحرير من نقل الكفاح إلى التراب الفرنسي، كما عملت هذه الفدرالية على استقطاب المناضلين، وجمع التبرعات والمساعدات المالية، كما عملت على الدعاية السياسية داخل الأوساط الأوروبية، رغبة في جلب التعاطف ولفت الأنظار للقضية الجزائرية، وكان المرحوم مولود قاسم من بين المناضلين النشطين في هذا المجال مستغلا، خبرته النضالية وانضمامه المبكر للحركة الوطنية، فتم عقد العديد من الندوات والمحاضرات التي أشرف عليها شخصيا، والتي من خلالها استطاعوا توضيح الرؤية، وتبيان أن الثورة الجزائرية حق مشروع مادام الفرنسيون لازالوا يقمعون كل صوت ينادي بالحرية للشعب الجزائري.

---

[1]– مولود قاسم نايت بلقاسم، عن أحمد بن نعمان، حياة وآثار، مرجع سابق، ص16.

[2]– المرجع نفسه، ص16.

إلى جانب نشاطه الحزبي داخل جبهة التحرير الوطني، قام مولود قاسم بتأسيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين[1]، رفقة محمد بن يحي، أحمد طالب الإبراهيمي، عبد الرحمن مهري وغيرهم، والتي كان له دور كبير في استمالة الطلبة الجزائريين وإقناعهم بضرورة العمل المسلح داخل جبهة التحرير الوطني، كما كان له دور كبير في نجاح الاضراب الذي دعت إليه جبهة التحرير الوطني 19 ماي 1956م، والذي أثبت الطلبة من خلاله مساندتهم المطلقة للثورة الجزائرية، الأمر الذي جعل قيادات الحركة في مرمى البوليس الفرنسي، مما اضطر قيادات الجبهة بأمر مولود قاسم بمغادرة فرنسا، ومنحه منحة لإكمال دراسته في براغ التشيكوسلافية في ديسمبر 1956م[2]، وكانت آنذاك تشيكوسلافيا تابعة للمد الشيوعي، المناهض للحركات الاستعمارية، غير أن إقامته هناك لم تدم طويلا، وغادرها إلى بون الألمانية في مارس 1957م، وهناك سجل مرة أخرى بجامعتها لتحضير دكتوراه في الفلسفة حول مبدأ الحرية عند كانط، وفي الوقت نفسه زاول نشاطه الحزبي من خلال إلقاء المحاضرات وإجراء الاتصالات مع قيادات الحزب، حيث كانت مهمته آنذاك التعريف بالقضية الجزائرية واستقطاب أكبر عدد من المتعاطفين مع الثورة الجزائرية، إلى أن عيّن نائبا لرئيس الوفد الدائم ببون المكلف ببلدان ألمانيا والنمسا وهولندا من مارس 1958م إلى ماي 1961م[3].

لقد كان لمولود قاسم في ألمانيا صولات وجولات، نابعة من حبه الكبير لوطنه، مستغلا اتقانه الجيد للألمانية، حيث قام بشرح حقيقة الكفاح المسلح في الجزائر، وأحقية الشعب الجزائري في نيل استقلاله، وهذا بعد نشاط الدعاية الفرنسية التي وصفت النضال الجزائري بالأعمال التخريبية المعزولة، فكان يعقد الندوات والملتقيات ويدعو إليها الطلبة من مختلف الجنسيات، يكون فيها محاضرا، شارحا لقضيته ومدعما لحديثه بصور لبشاعة الاستعمار، "فقد كان يحسن الألمانية ويعرف البلاد، فضلا عن صلاته الواسعة بالأوساط

---

[1]– يحي بوعزيز، الطلبة الجزائريون ودورهم في الثورة، مجلة الثقافة، العدد 83، سبتمبر/أكتوبر، 1984م (المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر)

[2]– مولود قاسم، عن أحمد بن نعمان، حياة وآثار، مرجع سابق، ص16.

[3]– المرجع نفسه، ص17.

الجامعية، والتنظيمات الطلابية، وحتى الشخصيات السياسية"[1]، الأمر الذي جعل السلطات الفرنسية تحتج عليه لدى السلطات الألمانية، فمنع من التحدث في بيليفيد من سلطة بون، ثم منع من الدخول إلى ألمانيا، ليتم سجنه فيما بعد مدة شهرين من أفريل إلى جوان 1961م[2].

لقد كانت فترة إقامته في ألمانيا فرصة كبيرة للاطلاع على ما تجود به المكتبات الألمانية، من مصادر تاريخية استطاع من خلالها الاطلاع على كل المعاهدات التي أقامتها الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، والتي تثبت وجود الدولة الجزائرية، وأن لها كيان مستقل عن الدولة العثمانية، الأمر الذي جعل كريم بلقاسم رئيس الوفد الجزائري المفاوض في مفاوضات إيفيان، يستدعيه إلى جنيف (بعد خروجه من السجن) وتكليفه بإنجاز دراسة تاريخية عن الحدود الجزائرية، لتكون وثيقة دعم في المفاوضات، بعد أن ادعى الفرنسيون عكس ذلك[3].

يروي محمد الصغير بن لعلام أن الوفد الجزائري المفاوض في إيفيان، قد اتصل بمولود قاسم بقيادة سعد دحلب وزير خارجية الحكومة الجزائرية المؤقتة، طالبين منه إيجاد وثائق تثبت أن الصحراء كانت جزءًا من الجزائر، بعد أن احتدم النقاش بين الوفد الجزائري والفرنسي حولها، إذ يروي مولود قاسم رحمه الله أنه مكث ثلاثة أيام في مكتبة بلدية جنيف إلى أن وجد وثيقتين فرنسيتين، الأولى تسجل زيارة باي الشرق لورقلة، والثانية تسجل زيارة الداي صالح إلى ما نسميه الآن عين صالح، وبهذا استطاع الوفد الجزائري إثبات وحدة التراب الجزائري كاملا[4].

بعد انتهاء مهمته بجنيف عينه سعد دحلب مشرفا على العلاقات مع البلدان الاسكندنافية سنة 1961م، ليواصل بذلك رحلته النضالية هناك، فتعلّم اللغة السويدية في أيام معدودة، حتى يسهل عليه الاندماج في المجتمع الجديد، وواصل بالمقابل شغفه العلمي

---

[1]– تاحي إسماعيل، مولود قاسم... ونظرته للهوية، مرجع سابق، ص84.

[2]– سليم شيخاوي وطاهر يحياوي، في بيت المرحوم مولود قاسم مواقف وذكريات، عن أحمد بن نعمان، حياة وآثار، ص26.

[3]– أحمد بن نعمان، مولود قاسم حياة وآثار، مرجع سابق، ص203

[4]– محمد الصغير بن لعلام، انطباعات من وحي الصداقة، ضمن كتاب سؤال الهوية والإنية، مرجع سابق، ص117.

بالمكتبات السويدية، بحثا وتنقيبا عن كل ما يخص الجزائر، لعله يروي عطشه المعرفي حول تاريخ الجزائر المجيد.

بعد الاستقلال تقلد العديد من المناصب وخاصة في الفترة الممتدة بين الستينيات والسبعينيات، مساهما في بناء الجزائر بعد خراب الاستدمار الفرنسي، وقد عيّن[1]:

1/ مدير مكتب الأمين العام للمكتب السياسي، المرحوم محمد خيضر، مكلفا بالشؤون الديبلوماسية منتدبا من وزارة الشؤون الخارجية (نوفمبر 1962-افريل 1963م.)

2/ رئيس قسم البلدان العربية بوزارة الشؤون الخارجية (مارس-سبتمبر 1964م)

3/ مدير الشؤون السياسية بوزارة الشؤون الخارجية، وزير مفوض (سبتمبر 1964-أفريل 1966م)

4/ مستشار سياسي وديبلوماسي في الرئاسة، منتدبا من الخارجية إلى الرئاسة بطلب من هذه الأخيرة (أفريل 1966-يونيو 1970م)

5/ وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية (يونيو 1970-1977م)

6/ وزير لدى الرئاسة مكلفا بالشؤون الدينية (1977-1979م)

7/ عضو اللجنة المركزية، مستشار الرئاسة (1979-1983م)

8/ عضو اللجنة المركزية وأمانتها الدائمة، بالمجلس الأعلى للغة الوطنية 1984

[1]- مولود قاسم نايت بلقاسم، عن أحمد بن نعمان، مولود قاسم حياة وآثار، مرجع سابق، ص13.

المطلب الثاني: نشاطه الثقافي

إن الجهاد السياسي والعسكري الذي لا يؤزره الجهاد الثقافي مصيره الفشل، حتى وإن حقق المرجو منه باستعادة الحرية، وهذا ما قام به المرحوم مولود قاسم، الذي دخل غمار الصراع الفكري مبكرا، وذلك بنشره العديد من المقالات في جرائد عربية وجزائرية مختلفة، هدفها التعريف بالجزائر وما تعانيه في ظل الاحتلال الفرنسي، إذ يشير رفاق دربه أن أول عهد له بالكتابة والنشر كان في تونس، في الفترة بين 1947م و1949م، حيث نشر مقالاته في جريدة **لسان العرب**، وفي نفس الفترة نشر في جريدة **المغرب العربي**، و**الشعب** و**المنار** الجزائرية، وبعد انتقاله إلى مصر كتب في العديد من الجرائد والمجلات العربية كمجلة **علم النفس** المصرية، و**البيان** و**الفيحاء** و**الزمان** و**النصر** السورية، وبعد انتقاله إلى ألمانيا واصل جهاد القلم وكتب في جريدة **korrespondenz die arabisghe** سنة 1957م، وقد كانت كل هذه المقالات تصب في خانة التعريف بالجزائر وقضيتها الثورية.

ولعل الشعور "بالاغتراب الثقافي"[1]، هو الذي دفع مولود قاسم خوض غمار الكتابة، فهو ينتمي أصلا للثقافة العربية–الإسلامية، والتي غيّبت طيلة الوجود الفرنس في الجزائر، واستمر تغييبها وتهميشها بعد الاستقلال، لأن الدولة الجزائرية تبنت الثقافة الفرنسية كواجهة بارزة لمسار البناء الحديث، وهو ما حزّ في نفسه كثيرا، فوهب حياته لإحياء الثقافة الإسلامية، مستغلا وصوله لوزارة الأوقاف سنة 1971م.

الفرع الأول: مولود قاسم الوزير

لقد كانت فترة استوزاره حافلة بالأحداث والمتغيرات، فالمرحوم مولود غيّر الأمور رأسا على عقب، فبعد أن كانت وزارة الأوقاف في مؤخرة الوزارات، لا يخصص لها من الميزانية العامة السنوية سوى مبلغ زهيد، ضعيفة المستوى في الميدان الفكري والتربوي، ضعيفة الإطارات، فكان من بين أهم القرارات التي اتخذها، تغيير اسم الوزارة إلى وزارة الأوقاف والتعليم الأصلي والشؤون الدينية، حتى تجمع بين الدين والتعليم، ومن أجل ذلك فقد عمل على رفع مستوى الإطارات وتكوينهم، بالإضافة إلى رفع مستوى الأئمة والوعاظ بالتكوين المستمر، ولأجل ذلك قام بإنشاء المعاهد الإسلامية لتكوين وإعداد إطارات دينية كفأة وأصيلة، وحتى يستطيع المسجد أن يقوم بدوره كاملا، فأمر أن يشارك المسجد في محو

[1]– أبو القاسم سعد الله، سي مولود ظاهرة فذة، عن أحمد بن نعمان، مولود قاسم...حياة وآثار، ص223.

الأمية والتوعية الدينية، والاجتماعية والسياسية، كان رحمه الله يريد للمسجد أن يكون خصبا حيويا، يجذب إليه الناس (خاصة الشباب منهم) ويمكّنه من القيام برسالته، لا كمسجد للصلاة فقط، بل وأيضا، كمدرسة ومجلس علم، مما يؤهله ليكون مركز الاستقطاب الأول على الصعيد الاجتماعي، فالمسجد بالنسبة إليه هو القاعدة الأولى التي تؤطر وعى المجتمع، ولأجل ذلك عمل على رفع أجور موظفي السلك الديني، وإدخال رجاله في الوظيف العمومي، حتى يتسنى لهم القيام بأدوارهم المنوطة بهم[1].

لقد ساهمت معاهد التعليم الأصلي في لقد ساهمت معاهد التعليم الأصلي في إحياء التعليم الذي حافظ على شخصية الجزائر الأصيلة، وحصنها، وأكسبها المناعة ضد محاولات المسخ الاستعمارية[2].

لقد كانت تلك المعاهد إلى جانب تكوين الإطارات والأئمة تعنى بتدريس الطلبة وتكوينهم، وهو ما اصطلح عليه التعليم الأصلي، والتي تخرج منها الآلاف، حيث انتشرت الثانويات والمتوسطات في معظم الولايات، وكانت المعاهد تدرس باللغة العربية، وعمل مولود قاسم على تطوير مناهج التعليم بها، وتحسين برامجها، وجعل مؤسساته تعلم جميع المواد تماما مثل نظيرتها في التعليم العام، كما "رسّم أهلية التعليم الأصلي بنص قانوني، وجعلها معادلة لأهلية التعليم العام، ثم أنشأ بكالوريا التعليم الأصلي، ذات الشعب الثلاثة: الأدبية العلمية والرياضية"[3].

لقد كان مشروع التعليم الأصلي يحمل في طياته منهجية مكتملة في التعليم، وقد سعى أصحابه لتتويجه بالدراسات العليا الجامعية، غير أن إلغاء التعليم الأصلي سنة 1976م، بحجة توحيد التعليم كان بمثابة الضربة القاضية للحلم المنشود، لقد كان التعليم الأصلي يزعج فئة كبيرة من المستغربين الفرنكوفونيين، ولهذا سعوا جاهدين ليقبروه قبل أن يتمدد أكثر فأكثر، فهم كانوا يرون فيه أكبر خطر يهدد وجود اللغة والثقافة الفرنسية في

---

[1]– يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، مرجع سابق، ص 272.

[2]– سليمان الشيخ، صاحب مبدع إلياذة الجزائر، عن أحمد بن نعمان، مولود قاسم...حياة وآثار، ص249.

[3]– المأمون القاسمي، مولود قاسم الوزير المسؤول، عن أحمد بن نعمان، مولد قاسم... حياة وآثار، مرجع سابق، ص252.

الجزائر، خاصة وأنّ طلابه أثبتوا تفوقهم الكبير على نظرائهم من طلبة التعليم العام، فدعوا إلى إلغائه لتوحيد التعليم والحيلولة دون نشوء جيلين مختلفين في التوجيه والتفكير، وكان لهم الأمر في الأخير، وهو ما اعتبره مولود قاسم توخيذا للتعليم وليس توحيدا[1].

إلى جانب ما سبق أنشأ المرحوم مولود قاسم مجلة الأصالة عام 1971م، خلفا للقبس التي كان يصدرها الوزير السابق العربي سعدوني[2]، لتواكب حركة التطور في البلاد وتكشف الغطاء عن ماضي الجزائر المشرق وتاريخها الحافل بالأمجاد والبطولات، وقد كانت هذه المجلة عنوانا للإبداع والتزود بالثقافة الصحيحة، وقد وصلت صمعتها الآفاق، وكانت نافذة على الجزائر إلى كل البلدان، وقد عمّرت هذه المجلة عقدا من الزمن وتم إعدامها من طرف الشيخ عبد الرحمن شيبان سنة 1981م.[3]

لقد جمعت مجلة الأصالة أقلام كثير من المؤرخين المبدعين الجزائريين، وغير الجزائريين، الذين ساهموا فيها بأفكارهم، وكانت الوجهة الأولى للراغبين في القراءة والاطلاع على الثقافة الإسلامية، حيث تندرج مجلة الأصالة ضمن نطاق تخصص الفكر الاجتماعي والتاريخ، وقد ساهمت بشكل كبير في التعريف بتاريخ الجزائر عبر العصور، وقد صدر أول عدد للمجلة في سنة 1971م، وكانت تصدر كل نصف شهر، حتى سنة 1975م، ثم ما بين سبعة وتسعة بين سنوات 1975م و1979م، إلى أن استقرت على خمس أعداد في السنة العاشرة، واستصدر منها 91 عدد في المجمل، قبل أن يتوقف إصدارها حتى يومنا هذا.

إن مجلة الأصالة كانت نافذة مهمة للمعرفة، ولمن أراد أي يطلع على تاريخ الجزائر، ولذلك حرص رحمه الله على أن تصدر في وقتها، وخصص لها ميزانية خاصة بها، من ميزانية وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، كما أنها كانت شبه مجانية (2 دينار)،

---

[1]– محمد الهادي الحسني، للتاريخ، عن أحمد بن نعمان، مولود قاسم... حياة وآثار، مرجع سابق، ص280.

[2]– سعد بوعقبة، الرجل... الأمة، عن أحمد بن نعمان، مولود قاسم... حياة وآثار، مرجع سابق، ص288.

[3]– يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، مرجع سابق، ص274.

تشجيعا للقراءة والمطالعة، وقد وردت بعض مقالاتها مشكولة تسهيلا للقراءة بالنسبة للمبتدئين، ممن تعلموا اللغة العربية حديثا.

الفرع الثاني: مساهمته في ملتقيات الفكر الاسلامي

عمل مولود قاسم على إنشاء مديرية خاصة تعنى بتنظيم ملتقيات الفكر الإسلامي، وأخذ يدعو إليها صفوة المفكرين والباحثين، بعد أن كانت تقام على شكل ندوات صغيرة، كما دأب على عقد كل ملتقى في ولاية مختلفة حتى يتسنى لزوار الجزائر التعرف على كل منطقة، ووزع محاور الملتقى، وأدخل محور التاريخ، والذي كان عادة يخصص للمنطقة المحتضنة للملتقى.

وكان المرحوم مولد قاسم يشرف بنفسه على تنظيم الملتقى، وتحديد مكانه وزمانه، ومحتواه، ومحاوره، ويعقد في أفخم الفنادق والمركبات السياحية ويشرف بنفسه ويراقب إقامة الطلاب في المعاهد والثانويات، وقد أشرف رحمه الله على تنظيم عشر ملتقيات كاملة، ذاع فيها صيت الملتقى واستقطب إليه جموع من الأساتذة بمختلف الجنسيات والأعراق، وكتبت عنه كبرى الصحف وأشادت بحسن تنظيمه، وتنوع المحاور، وحرية طرح الأفكار ومناقشتها[1].

تعتبر الانطلاقة الحقيقية لملتقيات الفكر الإسلامي في الملتقى الرابع الذي احتضنته قسنطينة من 10 إلى 19 أوت 1970م، وهو أول ملتقى أشرف عليه المرحوم مولود قاسم، وكان خارج العاصمة (محاولة إعطائه البعد الوطني)، وقد دعا إليه مولود قاسم صفوة العلماء من العالم أجمع، إذ حاضر فيه 28 عالما ومفكرا، إلى جانب مشاركة 600 طالبا، وقد تنوعت فيه المداخلات، ولتشمل قضايا ثقافية ودينية وتربوية ووطنية، إذ عالج المحاضرون مشكلة الحضارة، والمرأة، والشباب واللغة، ودور الطالب، وحرية الفكر، أما الملتقى الخامس والذي احتضنته مدينة وهران من 20 جويلية إلى 1 أوت 1971م، فقد حددت محاوره في ثلاث نقاط كبرى هي: اللغة والثورة الثقافية، مشكلات الأسرة الإسلامية وتربية الجيل في عالم اليوم، الأسرة ومتطلبات التنمية في الاقتصاد الحديث، ويلاحظ هنا أن المحاور قد عالجت مشكلات تعاني منها الأمة المسلمة، وهو ما يثبت أن نشاط الملتقى كان يتماشى مع ما تعانيه الأمة، ويحاول الخروج بسبل علاجها وفق الشريعة الإسلامية.

---

[1]– يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، مرجع سابق، ص256.

بعد ذلك توالت الملتقيات وكانت تعقد كل مرة في ولاية من الولايات الجزائرية، فانعقد الملتقى السادس بالعاصمة الجزائر، وقد صادف انعقاده الذكرى العاشرة لاستقلال الجزائر، والذكرى الالفية لتأسيس مدينتي مليانة والمدية، وكانت أشغاله في الفترة الممتدة من 24 جويلية إلى 10 أوت 1972م، وقد دعي إلى هذا الملتقى 64 أستاذا ومفكرا من دول مختلفة، بالإضافة على مشاركة 1336 طالبا، أما الملتقى السابع؛ فقد انعقد في مدينة تيزي وزو في الفترة الممتدة بين 10-1973/07/22م، وهو الملتقى الذي عرف حضور مفكرين وعلماء من مختلف المذاهب الإسلامية، أما بالنسبة للملتقى الثامن فقد عقد في مدينة بجاية الحمادية في 03/15 إلى 1974/04/15، وقد ناقش فيه وضع الأقليات والجاليات الإسلامية، ومساهمة الحضارة الإسلامية في الفكر الإسلامي، كما ناقش موضوع الإنية والأصالة مع التفتح والعالمية.

لتستمر بعدها ملتقيات وهذه المرة مع الملتقى التاسع، والذي انعقد بتلمسان في الفترة الممتدة من 10 إلى 1975/07/19، وقد ناقش المحاضرون قضايا تاريخية وأدبية واقتصادية مختلفة، تشمل مساهمة تلمسان في الحضارة والفكر الإسلامي، وموقف الدولة العثمانية من سقوط الأندلس، وكذا أسباب سقوط الأندلس، وهل كان الشعر أحد أسبابها، وما هو دور الآداب والفنون في تعزيز الأخلاق، كما تطرق المحاضرون إلى العدالة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع العربي.

أما الملتقى العاشر للفكر الإسلامي فقد عقد في مدينة عنابة في 10-1976/07/17م، وقد برزت فيه اهتمامات المحاضرين بالاقتصاد ودوره في دفع عجلة التنمية، ولهذا فقد جاءت محاوره كالآتي: ازدهار الحضارة والفكر في الغرب الإسلامي، ضرورة التصنيع في العالم الإسلامي، الابعاد الاقتصادية، والروحية، والسياسية، والاجتماعية للعبادات وأهميتها للفرد والأمة.

ليعود المحاضرون في الملتقى الحادي عشر في ورقلة (6-1977/02/15م)، ليناقشوا مشكلة المرأة في العالم الإسلامي بعد أن اقترحت الأمم المتحدة أن تكون سنة 1977م سنة المرأة.

ثم بعد ذلك عقد الملتقى الثاني عشر (7-1978/09/14م) بباتنة، وناقش فيه المحاضرون إشكالية الدين والعلم، وهل الدين يقف حاجزا أمام العلم، خاصة بالنسبة للعلوم

الطبيعية والطبية، كما ناقش المتدخلون، دور الأم في عالم الأسرة؛ خاصة مع ما تشهده الأسر اليوم من تشتت وضياع، وتطرقوا أيضا إلى وضعية الجامعات الإسلامية، وأي دور يجب أن تضطلع به في عالم اليوم، أما الملتقى الأخير والذي كان تحت إشراف المرحوم مولود قاسم، فهو الذي انعقد بتمنغست في 08/30-1979/09/08م، والذي خصص لمناقشة دور افريقيا في انطلاق الحضارات، وهل من الممكن أن تنهض بنفسها، بعد عقود طويلة من الاستعمار، كما ناقش المتدخلون مشكلات الطفل في عالمنا، وما هي السبل حتى يحضى بتربية وفق الأطر الدينية للإسلام، حتى نستطيع تنشئة جيل متمسك بأصوله العربية والإسلامية.

ومما يحسب للوزير؛ حرصه على طباعة أعمال الملتقى ونشرها، على حساب الوزارة لتعم الفائدة، وكان من شدة حرصه أن تتضمن طباعة الأعمال المناقشات والردود أيضا، فكان لا يكتفي رحمه الله بطباعة المحاضرات فقط، حتى يضمن الشفافية وتنوير الرأي، ويعطي لكل أستاذ محاور الرد على كل الأسئلة التي ترده، وعيا منه لقيمة المناقشات وما تحمله من إضافات قد تفوق قيمة المحاضرة، كما كان يشرف على تصحيح الكتاب قبل طبعه ويحتفظ بنسخ منه لتوزع على الأساتذة المحاورين في الملتقى القادم.

الفرع الثالث: جهوده في مجال التعريب

غير أن أكبر معركة خاضها في نضاله الثقافي، كانت معركة التعريب، بسبب معارضة الكثير من السياسيين لمنهجه الذي سعى لتطبيقه، حيث ناضل على كافة المستويات حتى تعود للغة العربية مكانتها، حتى أعلنت سنة 1971م سنة شاملة للتعريب، لكنها لم تحقق الأمل المنشود بسبب خروجه من الوزارة من جهة وإلغاء التعليم الأصلي من جهة أخرى، لكنه واصل نضاله الثقافي وتحمل عبء إعداد قانون تأسيس أكاديمية 19 جوان للغة العربية، وتكلف بإعداد إنشاء مجمع اللغة العربية بالجزائر، وكان من مهامه وضع خطة التعريب الشامل.

وعن خطة التعريب التي اعتمدتها الدولة الجزائرية، يستعرض مولود قاسم في حواره مع مجلة العربي الكويتية[1] مساره، حين قال: "أن معركة التعريب لا تقل ضراوة عن معركة

[1]- حوار أجراه مولود قاسم مع الصحفي أبو المعاطي أبو النجا، ونشرته مجلة العربي الكويتية، العدد 335، أكتوبر 1986م، عن أحمد بن نعمان، مولود قاسم حياة وآثار، مرجع سابق، ص126/137.

التحرير"، وذلك أن التبعية الثقافية للمستعمر ستقودنا يوما ما نحو التبعية الاقتصادية والسياسية وحتى الرحية، ولذلك عملت الدولة الجزائرية بعد الاستقلال لإحداث القطيعة مع المستعمر رغم قلة الإمكانيات.

ولهذا فقد سارت عملية التعريب عبر خطين متكاملين:

الخط الأول: إدخال تدريس اللغة العربية في أول عام دراسي بعد الاستقلال (1963م)، في جميع سنوات التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي[1]، وقد كان هذا القرار حاسما وتاريخيا آنذاك، بسبب شح الأساتذة المعربين، مما اضطر الدولة الجزائرية آنذاك بطلب الأساتذة من مصر وسوريا وفلسطين لتحقيق هذا المسعى، وقد كانت تدرس بحجم ساعي يتراوح بين سبع ساعات في الأسبوع في المرحلة الابتدائية، وأربع إلى خمس ساعات في المرحلتين المتوسطة والثانوية.

أما **الخط الثاني**، فإنه يعتبر الأهم لأنه كان يهدف إلى جعل اللغة العربية أداة التدريس، وهذا المسعى بدوره ينقسم إلى عدة مراحل.

– المرحلة الأولى (1970/1964): تم فيها تعريب السنة الأولى والثانية تعريبا كاملا، أما السنة الثالثة فكان التعريب فيها جزئيا، أما بالنسبة للمرحلة الثانوية؛ فقد أنشئت فيها ثلاث ثانويات معربة تعريبا كاملا.

– المرحلة الثانية (1974/1971م): تم في هذه الفترة التعريب الكامل للسنتين الثالثة والرابعة الابتدائية، كما تم تعريب ثلث المواد للسنتين الخامسة والسادسة في المرحلة الابتدائية، وثلث المواد بالنسبة لمستوى السنة الأولى للمرحلتين المتوسطة والثانوية.

– المرحلة الثالثة (1979/1975م): خرجت فيها الحكومة الجزائرية بالعديد من القرارات التي تخص التعريب نذكر منها:

1/ انعقاد الندوة الوطنية الأولى للتعريب؛ والتي تم من خلالها تبني قرار يقضي بالتعريب الشامل لمؤسسات الدولة سواء في التعليم أو الإدارة أو المحيط الاجتماعي والثقافي ووسائل الإعلام.

2/ تعريب معاهد تكوين إعداد المعلمين للمرحلتين الابتدائية والمتوسطة، كنتيجة حتمية لتعريب لغة التعليم الابتدائي.

---

[1]– أحمد بن نعمان، مولود قاسم، مرجع سابق، ص131.

3/ تكوين مدارس عليا تابعة للجامعات لإعداد أساتذة الثانوي العام والثانوي التقني في كل من العاصمة ووهران وقسنطينة.

– المرحلة الرابعة (1984/1980م): وهي المرحلة الأخيرة في خطة التعريب الشاملة، يتم فيها دمج المرحلة الابتدائية مع المتوسطة باعتبارهما تعليما إلزاميا، وتكون معربة تعريبا كاملا، وبذلك تصبح المرحلة الأساسية عبارة عن تسع سنوات.

أما على مستوى التعليم الجامعي فإن حظه من التعريب كان وافرا، فقد سعت الدولة إلى إدماج اللغة العربية كلغة تلقينية كمرحلة أولى، في كليات الآداب والعلوم الإنسانية، والحقوق، العلوم الاقتصادية، وكان ذلك ابتداء من العام 1963/1962م، أما في المرحلة الثانية فتصير اللغة العربية لغة التدريس والتحصيل، وذلك ابتداء من سنة 1971م في علوم التاريخ، الفلسفة، الاجتماع، التربية، وعلم النفس، والآداب، أي أن الشعب الأدبية والإنسانية يتم التدريس فيها باللغة العربية وحدها، غير أن الدولة قد احتفظت ببعض الأقسام التي تدرس باللغة الفرنسية، أما على مستوى كليات العلوم التقنية، فقد تقرر تدريس اللغة العربية كوحدات لغوية، حتى يتمكنوا في المستقبل من استعمال اللغة العربية كأداة عمل مهنهم[1].

لقد كانت خطة التعريب التي تبناها مولود قاسم؛ تستهدف تنشئة جيل متضلع بتاريخ وطنه، ويتغنى بمنجزات أسلافه، قادر على التواصل الحضاري مع محيطه، لقد أراد للجزائر أن تحيا بالغة العربية كما تحيا ألمانيا بالألمانية، وفرنسا بالفرنسية، ولا يكون ذلك إلا باسترجاع اللغة العربية في الجزائر، وتعود لمكانتها التي كانت عليها قبل وصول الفرنسيين.

يقول الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد حول عملية استرجاع اللغة العربية "لتحقيق هذه العملية عملية استرجاع اللغة الوطنية، نحتاج إلى ثلاثة أو أربعة عناصر وهي: النصوص: نصوص رسمية تشريعية وقانونية وسياسية، والأدوات، أي الأجهزة الآلات الكاتبة، والأجهزة المبرقة وأجهزة الاعلام الآلي، ومعرفة اللغة الوطنية وكذلك المنهجية"[2].

فبالنسبة للنقطة الأولى أصدرت الدولة الجزائرية مراسيم عديدة للنهوض باللغة العربية، لعل آخرها ما نص عليه ميثاق 1986م، الذي شدد على أن اللغة العربية هي اللغة

---

[1]– مولود قاسم، مجلة العربي، مرجع سابق، ص133.

[2]– حوار أجراه مولود قاسم مع جريدة النصر في: 1 نوفمبر 1986م، عن أحمد بن نعمان، مولود قاسم حياة وآثار، مرجع سابق، ص138.

الرسمية للبلاد، ووجب ترقيتها، وتعميم استعمالها، سواء في التعليم، أو في الإدارات، أو في المحيط، وهو القرار الذي بقي حبرا على ورق بالنسبة للمحيط والإدارات الجزائرية، وأما بالنسبة لوسائل تطبيق هذا القرار، فهي وإن كانت موجودة فهي قليلة جدا، ووجب توفيرها حتى يتم التطبيق الأمثل لهذا الميثاق[1].

إنّ إشكالية التعريب في الجزائر تبقى قضية صراع حضاري وفكري، بين نخب الجزائر، وهذا الصراع هو سبب فشل كل القوانين والإصلاحات التي باشرتها الدولة الجزائرية بعد الاستقلال، ولا يمكن معالجة هذا الصراع بقوانين أو نصوص، ما لم يتم التوافق على إعادة صياغة المشروع الحضاري الوطني في الأساس، والتمكين له؛ لا يتم إلا بمراعاة جميع الفئات المشكلة لعناصر المجتمع الجزائري، وهو ما تفطن له مولود قاسم، حين كتب مقالا نشره بجريدة المجاهد الأسبوعية في نوفمبر 1962م، تحت عنوان تعريب الأمخاخ والقلوب قبل الألسنة، مبينا فيه أن اللغة ليست غاية في ذاتها، وإنما هي مجرد أداة للتعبير عما يتمخض عنه التفكير المنطقي، أو تتدفق به الإحساسات والعواطف، فالهدف من التعريب هو توحيد التفكير، بين فئات المجتمع الجزائري المختلفة، ولهذا يقول آيت مسعودان "إن أروع انجاز ظل يفتخر بتحقيقه في هذا الإطار التوحيدي لأجزاء الأمة، هو قيامه كوزير للشؤون الدينية، بتأدية صلاة الجمعة بالقرارة بجانب الإمام إبراهيم بيوض، وهذا حرصا منه على لم الشمل، فقد كانت كل كتاباته ومحاضراته تتسم بالغيرة الفائقة على وحدة الجزائر ترابا وشعبا"[2].

---

[1]– أحمد بن نعمان، مولود قاسم، مرجع سابق، ص142/143.

[2]– سعيد آيت مسعودان، رجل المبادئ والوحدة الوطنية، عن أحمد بن نعمان، مولود قاسم...حياة وآثار، ص240.

المبحث الثالث: المنحى الروحي والفكري عند مولود قاسم

إن القارئ لسيرة الراحل مولود قاسم؛ يجد أن الرجل تداخلت العديد من الروافد المعرفية في تكوين جوانبه الفكرية والروحية، والتي أثّرت بشكل كبير على مساره المهني والنضالي فيما بعد.

المطلب الأول: المرجعية الاسلامية

فبالعودة إلى نشأته، نجد أن التحاقه بالكتاتيب والزوايا، وتعلم مبادئ الكتابة وقراءة القرآن على يد شيوخها، كان له الأثر في ترسيخ القيم الإسلامية، واعتزازه بالهوية الإسلامية فيما بعد، فرغم حداثة سنه، ومحدودية أفقه الفكري آنذاك، إلا أن الأهمية الفكرية للقرآن الكريم، قد تسربت إلى مكامن وعيه، وأصبحت تثير نفسه وتتوقها لنزعة الحرية، والتمرد على قيود المستعمر، ولا أدل على ذلك مما وقع له مع مدرسه بالمدرسة الفرنسية، إذ يروى عنه أنه لما كان تلميذا بمدرسة آباء البيض في قرية **إغيل علي** ببني عباس، كان المعلم الفرنسي لا يألوا جهدا في تسميم أفكار التلاميذ وتشكيكهم في القيم الإسلامية والتاريخية والمقومات الشخصية الجزائرية، فكان أن رسم ذات مرة صورتين، إحداهما لرجل مصفف الشعر، أنيق الملبس، وقد أدخل يديه في جيبه، والأخرى لأعرابي أشعث الشعر، مغبّر الوجه، مشوش اللباس، وعلى كتفه خُرج فيه زاد، وفي يده عصا يتوكأ عليها، وكان دافع المعلم من هذه الصورة السخرية من الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وتمجيد المسيح، كما أن اللباس كان لباس المجتمع العربي المسلم ومن ضمنه الجزائري، وكان دائما يسأل التلاميذ عن أي الصورتين تحظى بالقبول لديهم، فكان أنّ مولود قاسم اختار صورة الأعرابي لأن عنده زادا لا يجوع من اتبعه، وعصا لا يخاف من كان معه، فلم تنته الحصة حتى كان مولود قاسم عند الدرك الفرنسي يستجوبونه عن هذه الأفكار ومن أين استسقاها، فكانت هذه الخطوة الأولى من مسيرة طويلة في نضال مولود قاسم[1].

بعد هذه الحادثة انتقل مولود قاسم للدراسة في مدارس جمعية العلماء المسلمين، وهناك أشبع بقيم الوطنية، فالمعلوم أن الجمعية تأسست كرد فعل على سياسة التجنيس والتنصير التي مارستها السلطات الفرنسية، لذلك فقد وجهت كل جهودها للدفاع عن مقومات وثوابت الأمة الجزائرية، الأمر الذي أتاح له الاطلاع على تاريخ الجزائر، وخطورة مساعي

[1]– محمد الصالح الصديق، مولود قاسم خواطر وذكريات، مرجع سابق، ص43/42.

الادماج الفرنسية، فانكب على قراءة الجرائد والمجلات التي كانت تصدرها جمعية العلماء المسلمين، الأمر الذي عزز في نفسيه حب الانتماء للوطن ونمى حس الوطنية لديه، مما دفعه للهجرة إلى تونس، والالتحاق بجامع الزيتونة، وهناك تعرّف على أفكار ومبادئ الحركة الوطنية، والتي يمثلها حزب الشعب، الأمر الذي أذكى في نفسه الحماسة للوطن، وأصبح أسير هذه الأفكار.

مما سبق يتراءى لنا أن أول مرجعية ساهمت في التكوين الفكري عند مولود قاسم كانت المرجعية الإسلامية الوطنية، التي بلورت أفكار المسار النضالي لديه.

وفي سنة 1949م هاجر مولود قاسم إلى مصر بعد تخرجه من جامع الزيتونة، والتحق بجامعة القاهرة وهناك تعرف على أساتذتها ومفكريها، ولعل أكثر ممن تأثر به مولود قاسم أستاذه عثمان أمين، الذي فتح عيني مولود قاسم على تعلم الفلسفة والآداب العربية والأجنبية، وهذا ما أتاح له الاطلاع على التراث العربي الإسلامي، كالمعتزلة، وإخوان الصفا، وابن سينا، وابن رشد وغيرهم، وكذلك قرأ لديكارت وكانط، وشهد على عظمة العقل العربي وما أنتجه من فلسفات تبعث على الفخر.

لقد كان لعثمان أمين دور كبير في ترسيخ هذه الرؤية الفلسفية عند مولود قاسم، كيف لا وهو الوحيد الذي كان يذكر الجزائر في محاضراته، ويستشهد بتاريخها، الأمر الذي كان يبعث الفرح في نفس مؤلفنا، وفي هذا يقول "وكم كان يسرني أن أسمع اسم الجزائر في أكثر من مرة في محاضراته تلك، في وقت كان فيه هذا الاسم مجهولا في مصر، وغير مصر من المشرق والمغرب"[1].

المطلب الثاني: المرجعية الغربية

لقد كان أول عهد مولود قاسم بالفلسفة الغربية بمصر، غير أن الفلسفة الألمانية استحوذت على جل اهتمامه، لأنها كانت مشبعة بفكرة القومية والهوية، وهو ما كان يبحث عنه مؤلفنا بالضبط، فالفلسفة الألمانية وليدة الأحداث التاريخية التي تعرضت لها ألمانيا، فقد عانت هذه الأخيرة الضياع والشتات، كما حدث للجزائر في الفترة الاستعمارية، فانكب على دراستها، وتأثر أيما تأثر **بفيخته**، وخطاباته للأمة الألمانية، والتي يحذر فيها قومه من خطورة الارتماء في أحضان المستعمر الفرنسي، بقيادة نابليون آنذاك.

---

[1]– مولود قاسم، أصالية أم إنفصالية، مرجع سابق، ج2، ص323.

لقد استمد مولد قاسم من الفلسفة الألمانية ذلك الحضور الكبير لفكرة الهوية والأمة، وفي ذلك يقول: "لماذا فيخته بالذات دون غيره؟ لأنه كان يعيش ظروفا مثل تلك التي يعيشها المفكر المسلم الحريص على إنّيته"[1]، ولذلك فقد رأى مولود قاسم في نضال فيخته المثال الذي يحتذى به، في الذود عن الأمة الجزائرية، التي تعيش ما عاشته على فترات محدودة من التاريخ، فلا نكاد نقرا محاضرة له، إلا ويذكر فيخته مستشهدا بأقواله، مقتفيا بسيرته، ما فتح الباب أمام خصومه لاتهامه بميولات نازية[2]، نظير هذا الاهتمام المفرط بالفلسفة الألمانية عموما وبمقولات فيخته خصوصا، ما حدا به لتوضيح هذه النقطة بالذات، "أما فيما يتعلق بالجانب الأيديولوجي الذي تقولون أنه اتبع النازية، فأقول أبدا؛ ففيخته مثلا كان يريد أن يرفع من شأن أمته، ومن شأن لغتها وثقافتها، وكان يقول إن الألمانية خلقت للتعبير عن الجمال والقيم الروحية، ولكن مع ذلك فهو نفسه كان يتواصل مع فلاسفة فرنسيين، وكان يقرأ بالفرنسية، وليس هناك علاقة بين النازية والفكر الألماني العريق"[3].

لقد جعل مولود قاسم المرجعية الغربية (الألمانية) منطلقا لنظرته للإنية، إذ أن اللغة تحتل مكانة هامة في أبحاث الفلاسفة والمفكرين الألمان، إذ يؤكد هايدغر أن "الطبيعة هي التي أقرت التمايز اللغوي بين الشعوب، وأن اللغة بمنزلة الوعاء الذي تتشكل فيه وتتنقل بواسطته أفكار الشعب وهي أيضا قلب الشعب وروحه"[4] أما فيخته؛ فيعتبرها مرادفا للأمة، وأنهما متلازمتان، لا يمكن الفصل بينهما، ولهذا فاللغة هي مادة المواد. وهي النظرة التي حملها معه مولود قاسم طيلة حياته، وعمل لأجلها لما كان مسؤولا في الحكومة الجزائرية، حيث سعى لتكون اللغة العربية لغة الحياة القومية في الجزائر، فتكون بذلك مثل الحصن

---

[1]– عبد الرزاق بلقاسم، الهوية الحضارية للأمة الجزائرية بين مولود قاسم نايت بلقاسم ومصطفى الأشرف –دراسة تحليلية–، مذكرة ماجيستير، قسم العلوم الإنسانية: شعبة الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة باتنة/الجزائر، 2015/2014، ص65.

[2]– المرجع نفسه ص 66

[3]– أحمد بن نعمان، مولود قاسم حياة وآثار، مرجع سابق، ص103.

[4]– زهراء عاشور، الهوية اللغوية بين ساطع الحصري ومولود قاسم نايت بلقاسم، أعمال الملتقى الوطني الأول حول سؤال الهوية والإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم في ظل العولمة، قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة/الجزائر، 24/23 نوفمبر 2010، 224/207.

الذي نحتمي به، على أن لا تصبح هذه القومية بمثابة الغيتو الذي نتخندق داخله، ونقصي كل طرف آخر.

صحيح أن مولود قاسم جعل المرجعية الغربية مدخلا لمنهجه الفكري، إلا أنه لم يتنكر لأصله وفصله، وهذا يرجع بالأساس لتكوينه الديني، فهو الذي يعرف بفيلسوف الإنية والأصالة، إذ أن الأصالة تمثل ذلك التصور العقلي لقوة الإنية لدى أمة من الأمم، ولهذا لقد أراد رحمه الله أن تمتلك الذات الجزائرية كيانا ثابتا يستطيع الصمود في وجه التأثيرات المعرفية والثقافية والعالمية.

كان مولود قاسم يريد لبلاده شبابا متمسكا بدينه، حافظا لمقومات شخصيته، واعيا لإنيته وأصالته، وفخورا بتعلقه بذلك كله لا مباهيا بتقصيره فيه وبتجرده عنه[1]، لأن الإنية والأصالة مع التفتح والعالمية هي السبيل لأن تحتل الجزائر المكانة اللائقة بها بين الأمم القوية الراقية، وقد سئل رحمه الله مرة كيف نصير أمة؟ فكان رده: "نحن الآن غمة، ولكي نصير أمة يجب أن نكون قوة، ولكي نكون قوة يجب أن نكون كتلة"[2]، وهو ما سعى رحمه الله إلى تحقيقه، فالوحدة بين المسلمين من جهة وبين الجزائريين أنفسهم من جهة أخرى هي سبيل النهضة وتحقيق المكانة المرجوة بين الأمم.

إن هذه المراحل التعليمية التي مرّ بها مولود قاسم، جعلت منه شخصية ثرية المعارف، غزيرة المناهل، الأمر الذي انعكس على شخصيته ونضاله، فقد تشّبع بفكرة القومية والهوية والأصالة، وهو ما جعله يناضل طوال عمره، من أجل تثبيت مبدأ أمة جزائرية موجودة في التاريخ، تقوم على هوية ثابتة، مقوماتها الإسلام والعربية والتاريخ، وحب الوطن، لم يكن المرحوم، شخصا عاديا، وإنما هو "شعلة من الوطنية، وكتلة متحركة ومتنقلة من الإخلاص لوطنه الجزائر، وللإسلام والعربية وأمة العروبة، وديار الإسلام، ويملك ثقافة عالية جدا، وفذة، في العلوم والحضارة العربية الإسلامية، وفي التاريخ الجزائري أساسا، والمغاربي، والعربي بصفة عامة والعالمي بصفة أعم، وطعم هذه الثقافة بإتقانه لعدة لغات أخرى أبرزها: الفرنسية، والانجليزية، والألمانية، والسويدية، والإسبانية"[3].

---

[1]– عبد اللطيف عبادة، عن أحمد بن نعمان، مولود قاسم حياة وآثار، مرجع سابق، ص416.

[2]– محمد الصالح الصديق، خواطر وذكريات، مرجع سابق، ص76.

[3]– يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، مرجع سابق، ص 271.

ومما يرويه عنه أصدقاؤه أن المرحوم كان "عبارة عن موسوعة ودائرة معارف بحالها، له في كل علم باع وطرف، وفي كل فن رصيد... وبسبب تضلعه في العلوم والمعارف، انتخب عضوا مراسلا في المجمع اللغوي بالقاهرة، وعضوا عاملا في المجمع اللغوي بدمشق، والمجمع اللغوي بالأردن، وكان يعد العدة لإنشاء المجمع اللغوي بالجزائر عندما عاجلته المنية، واختطفته في صيف عام 1992م"[1].

"فقد كان ذكي الفؤاد، قوي الحافظة، واسع الخيال، شديد الانتباه، واستغل هذه المواهب وتعداها بالمران، فكان لها ما كان من علم ومعرفة، وعمق في الادراك، وبعد في النظر، ووضوح في الرؤية، ومكانة مرموقة بين عباقرة هذا العصر، ومن عرفه عرف أنه ليس رجلا عاديا"[2].

من صفاته أنه كان "متقد النشاط، مرهف الإحساس، قوي الحب لوطنه، ميال إلى قراءة الصحف والمجلات، إذا أصدر رأيا دعّمه بالدليل، ولكن في شيء من الشموخ والاعتداد بالنفس"[3].

هذا هو مولود قاسم... الأديب في خلق والمثقف في التزام، والايديولوجي في وطنية، وأننا مهما كتبنا فلن نفيه حقه، فلقد أعطى لهذا الوطن كل ما يملك، من عرق ودم، وحبر، فلندعه للتاريخ الذي سينصفه ولا شك[4].

وفي الأخير يمكننا القول؛ إن عظمة أمة من الأمم ليست بالمظاهر الغابرة، وعبقرية الرجال لا تقاس بالتماثيل التي تقام لهم، ولا بالتصفيق والهتاف اللذين يقابلون بهما، ولا في الألقاب التي يسبغونها على أنفسهم، وإنما تقاس بالأعمال التي يقومون بها، وتتمثل في راحة ضميرهم، وحكم الأجيال، وسجل التاريخ.

---

[1]– يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، مرجع سابق، ص271.

[2]– محمد صالح الصديق، خواطر وذكريات، مرجع سابق، ص26.

[3]– المرجع نفسه، ص20.

[4]– عبد الرزاق قسوم، السمفونية العذبة، العازفة دوما على النغم الوطني، عن أحمد بن نعمان، مولود قاسم... حياة وآثار، ص241.

الفصل الثاني:

تاريخية تشكل المجتمع الجزائري

المبحث الأول: البربر جدلية الأصول والانتماء

المبحث الثاني: التسمية والتقسيمات

المبحث الثالث: ميلاد المجتمع الجزائري والظروف التاريخية لتشكله

الفصل الثاني: تاريخية تشكل المجتمع الجزائري

يواجه الباحثون المتخصصون في إطار إعادة كتابة تاريخ الجزائر إشكالية هوية الإنسان المغاربي القديم*، والتي أسالت الكثير من الحبر، والمداد بين العلماء، والباحثين، سواء كانوا غربيين، أم أمازيغ، أم عربا، والإجابة عليها تقتضي التوغل في تاريخ المجتمع الأمازيغي، بغية الوصول لفهم طبيعته، وخصائصه، إلاّ أنه وجب الإشارة قبل ذلك إلى أن مسألة البحث في تاريخ المغرب الكبير؛ قد عرفت حملات عديدة من التشويه، خاصة في "ظل تحرك الآلة الأيدولوجية بالمسخ، والترهيب، وجميع التهويمات"[1]، محاولةً لتقزيم شخصية المغرب الكبير، فالمسلمون أثناء الفتح أرادوا كسب ودّ البربر، عن طريق ربطهم بأصول مشرقية دموية، أما الباحثون الغربيون فقد حاولوا أن يجعلوا منهم ذوو أصول غالية، لتبرير الوجود الاستعماري بالمنطقة، وهو ما ضاعف من نسبة الغموض، وتبني الأحكام المسبقة، والجاهزة، الأمر الذي قادنا نحو التساؤلات التالية: ما هي أصول البربر؟ وما أهم مواطنهم؟ ولماذا تعرض البربر(الأمازيغ) لكل هذه المحاولات من التشويه؟ ولماذا أثار البحث في الأصول كل هذا اللغط؟ وعلى أي أساس استند من بحث في تاريخ هذه الأمة؟ ولماذا تم التعامل مع تاريخ المنطقة بطريقة انتقائية؟

---

*: أثارت نقطة البحث في أصول البربر اهتمام الكثير من الباحثين والمؤرخين، على اختلاف مشاربهم، مما أفضى إلى العديد من الآراء، والتي كانت رغم تعددها تصب في خانة الأدلجة والايديولوجيا، مما يجعل التعامل معها في غاية الحذر والتحفظ.

[1]– عقون محمد العربي، الأمازيغ عبر التاريخ _نظرة موجزة في الأصول والهوية، التنوخي للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 2010، ص7.

المبحث الأول: البربر جدلية الأصول والانتماء

قبل الخوض في عرض الأبحاث والدراسات التي تناولت تاريخ الأمازيغ، وجب علينا التنويه أن ما قيل حول أصل البربر ينتمي إلى ثلاثة حقول هي:

1/ المصادر الكلاسيكية القديمة: للباحثين اليونانيين، والرومان كـ: سالوستيوس، وهيرودوت، وبروكوب وغيرهم من الذين نحوا منحى أسطوريا في تحديد أصل البربر.

2/ المصادر الإسلامية القديمة: للطبري، والمسعودي، وابن كثير وغيرهم، والذين نحوا بدورهم منحى يقوم على تبنى الروايات التاريخية الدينية والإسرائيليات، كما أنهم حاولوا إعطاء تفسير ديني لكل حدث تاريخي.

3/ مصادر البحث الحديثة: التي حاول أصحابها البحث في الأصول باستعمال علوم الأركيولوجيا، والأنثروبولوجيا، واللغة، وأشهر هؤلاء الباحثين غابرييل كامب، وغوتييه، واستفان غزال.... وقد كانت أبحاثهم في أغلبها خدمة للأهداف الاستعمارية[1].

[1]–تبنى هذا التقسيم غابرييل كامب في كتابه البربر: ذاكرة وهوية، ترجمة، عبد الرحيم حزل، افريقيا الشرق، المغرب، دط، 2010، ص55 وما بعدها.

المطلب الأول: أصول البربر

سنحاول في هذا المطلب استعراض أهم المقولات والدراسات التي بحثت في أصل البربر من خلال النصوص القديمة، وكذلك عند المؤرخين المسلمين، وإبراز أهم نقاط التقاطع بين الرأيين.

الفرع الأول: من خلال النصوص القديمة

دلّت المعطيات الأثرية، ومضامين النصوص التاريخية أن منطقة شمال إفريقيا قد عرفت وجود الجنس البشري على الأقل منذ 2 مليون سنة[1]، فتكون بذلك ثاني أقدم منطقة عرفت تواجد الإنسان بعد إثيوبيا، لكن رغم ذلك مازالت مسألة البحث في أصل السكان تثير لغطا بين الباحثين، ذلك أن بلاد البربر –حسب مؤرخي المدرسة الكولونيالية– "هي آخر منطقة متوسطية دخلت التاريخ، ليس بجهدها وإبداعاتها، ولكن الفضل يعود دائما إلى الاستعمار"[2]، وهو ما أشار إليه مولود قاسم حين قال: أن أجدادنا رغم أنهم كانوا فصحاء بلغاء من حيث جلائل الأعمال، ولكنهم كانوا بكما أميين من حيث تسجيلها، والإبانة عنها، وبالتالي يصعب البحث في تاريخ الأمة القديم[3]، وما عرف منه، وكتب عنه "ارتبط بالغزو البوني والروماني والوندالي والبيزنطي ثم الفتح العربي ثم الامتداد التركي ثم الاستعمار الفرنسي والاسباني"[4]، ما فتح المجال للضنّيات والتقديرات، وهو ما حتّم علينا الوقوف طويلا عند هذه التكهنات علّنا نستطيع الخروج منها برأي يتناسب مع ما وصله العلم الحديث.

---

[1]– وهذا استنادا إلى المعطيات الحضارية التي وجدت في منطقة عين الحنش(العلمة–سطيف) شرق الجزائر والتي يقدر العلماء تاريخها ب مليوني سنة

[2]– غابرييل كامب، في أصول بلاد البربر ماسينيسا أو بدايات التاريخ، تعريب، العربي عقون، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، دط، دت، ص7.

[3]– مولود قاسم نايث بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830، دار الأمة الجزائر، ط2، 2007، ج1، ص45.

[4]– عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2005، ج1، ص33.

يرى أب التاريخ هيرودوت أن أصل البربر يعود إلى طروادة، وقد هاجر الطرواديون إلى شمال إفريقيا قديما بعد أن حطمهم التحالف الإغريقي[1]، وامتزجوا مع السكان الأوائل، الذين ينتمون حسبه إلى "أمتين أصليتين هما: الليبيون في الشمال، والإثيوبيون في الجنوب"[2]، حيث أن ما نفهمه هنا من كلام هيرودوت أنه يوجد عنصر محلي قبل الهجرة الطروادية التي تحدث عنها، لكنه رغم ذلك ينسب أصول البربر إلى تلك الهجرة.

أما المؤرخ الروماني سالوستيوس فقد ميّز ضمن سكان إفريقيا عمقين: عمق ليبي وآخر جيتولي، ويغلب عليهما طابع البداوة، ولا يخضعون لأي سلطة حاكمة، اندمجوا فيما بعد بأقوام مختلفة قادمة من إسبانيا وهم الميديون، والفرس، والأرمنيون، (كانوا ضمن جيش هرقل) مما أحدث تغيرا في التركيبة الاجتماعية لدى السكان، فاختلط الفرس مع الجيتول وتسّموا بالنوماد (البدو الرحل الرعاة) وسكنوا الجنوب، أما الميديون، والأرمن فقد اختلطوا بالليبيين، وسكنوا السواحل، وعملوا في التجارة مع الضفة الأخرى للمتوسط[3].

وعلى النقيض من ذلك يذهب بروكوب إلى أن البربر كنعانيون هاجروا من فلسطين إلى شمال إفريقيا، وبالتالي يرجع أصلهم إلى المشرق. وإلى هذا الرأي ذهب سترابون؛ إلاّ أنه يعدهم من الهند[4]، وبهذا تكون الهجرة حسب بروكوب وسترابون هي سبب في إعمار شمال إفريقيا.

إن أهم ملاحظة يمكن لنا أن نستخلصها من هذه الآراء أنها نحت منحى أسطوريا أثبت الزمن بلاءته، خاصة في ظل تطور أبحاث الأنثروبولوجيا، والأركيولوجيا، كما أنها تبيّن كمية التحامل على أصل هذه الأمة، ومحاولة جعلها تابعة لغيرها، حين اعتبرت المجتمع الأمازيغي مجتمعا غير متجانس في منظومته البشرية، فمن غير المعقول أن نربط

---

[1]– محمد حقي، البربر في الأندلس دراسة لتاريخ مجموعة إثنية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية(92هـ–711م/422هـ–1031م)، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء(المغرب)، ط1، 2001، ص16.

[2]– محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، دط، دت، ص27.

[3]–غايوس كريسبوس سالوستيوس، الحرب اليوغرطية، ترجمة: المبروك دويب، منشورات جامعة بنغازي، ليبيا، دط، دت، ص32،33.

[4]– محمد حقي، البربر في الأندلس، مرجع سابق، ص16.

تاريخ أمة كاملة بالهجرات الخارجية، كما أن الاستناد على قول الأسقف أوغسطين في إحدى رسائله إلى روما "إذا سألتم أهل البادية من النوميديين عندنا عن أصلهم أجابوك بلكنة خاصة أنهم كنعانيون"[1]، فإنه لا يعد بمثابة القول الفصل في عدّ البربر من المشرق، لأن الانتساب إلى المشرق كان يعد فخرا من جهة، وتسترا من جهة أخرى، خاصة في ظل الظلم الذي سلطته الإمبراطورية الرومانية على البربر، كما أن هذه الرسالة ليست دليلا على أن أصل كل السكان من المشرق، فأوغسطين كان يعيش في إقليم جغرافي امتدّت إليه أذرع الحضارة القرطاجية، وخضع لسلطانها ردحا من الزمن، فلابد أن هذه الرسالة خاصة ببقايا الفينيقيين في الجزائر، كما أن تلك الأقوال (أقوال المؤرخين) السابقة، قد أثبتت وجود عنصر بشري محلي امتزج مع غيره من الأقوام المهاجرة ليكوّن إنسان شمال إفريقيا.

الفرع الثاني: أصول البربر عند المسلمين

نحا النسّابة والمؤرخون العرب كابن حزم وابن خلدون والمسعودي والبكري وغيرهم، بدورهم منحى غريبا في تحديد أصل البربر، متأثرين في ذلك بالتفسيرات الدينية، حيث أرجعوا أصول سائر البشر إلى جد أكبر؛ هو آدم عليه السلام، ثم تفرعت منه جميع الأقوام، وبالتالي هو إقرار آلي للأصول المشرقية للبربر.

فالمؤرخون العرب (وخلاصتهم ابن خلدون[2]) أوردوا روايات عديدة تتحدث عن أصل البربر، والثابت فيها أنهم من المشرق، ويمكن إجمال تلك الروايات في أن:

- البربر يمنيون هاجروا إلى شمال إفريقيا.

-البربر من قبائل غسّان هاجروا إلى شمال إفريقيا بعد سيل العرم، وقيل تخلفهم أبرهة ذو المنار بالمغرب.

-البربر من فلسطين من بلاد الشام، هاجروا إلى شمال إفريقيا بعد قتل ملكهم جالوت[3].

---

[1]-محمد البشير شنيتي، أضواء على تاريخ الجزائر القديم، دار الحكمة، الجزائر، دط، 2003، ص150.

[2]- ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت، دط، 2000، ص120، 123.

[3]- أبو القاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دط، 1992، ص 97. وأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، المسالك والممالك، تحقيق: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2003، ج1، ص250.

-البربر من سبأ من ولد النعمان بن حمير.

-البربر من ولد بن كنعان بن نوح[1].

-البربر أخلاط من كنعان، والعماليق.

-البربر من ولد حام بن نوح[2].

هذه الروايات التي أوردها ابن خلدون عن المؤرخين العرب القدامى، أثبتت الرؤية المشرقية لأغلبهم؛ وارتكانهم للنوازع الدينية، بحيث تصبغ كل رواية تاريخية بصبغة دينية لتضفي عليها نوعا من المشروعية، وبالتالي تحظى بالقبول داخل الأوساط الشعبية.

أما في العصر الحديث؛ ومع تطور الأبحاث العلمية، فإن مسألة البحث في الأصول قد اتخذت منحى جديدا يعتمد على ما توصل إليه العلماء من نتائج علمية في المجالات المختلفة، وأخذت هذه الأبحاث تتوسع (خاصة مع توسع الحركة الاستعمارية في منتصف القرن 19)، فكانت كلما زادت في عددها، تزيد الموضوع تعقيدا وغموضا.

تشير أغلب الأبحاث الحديثة على قدم الاستقرار البشري في شمال إفريقيا، وأنّ هذه الأرض لم تكن بكرا كما اعتقد بعض الباحثين، وإنما سكنها البشر قبل 30 ألف سنة على الأقل، وقد أفرزت لنا هذه الأبحاث أراء متداخلة ومتضاربة في آن واحد يمكن إجمالها في:

أ/ أبحاث علماء الأركيولوجيا: تزعم هذا التيار الباحثون الألمان الذين استندوا في بحوثهم على تشابه المعطيات الحضارية بين المشرق، والمغرب، خاصة من حيث تشابه الأسماء، وقد سعوا من خلالها إلى إثبات النسب المشرقي للبربر.

ب/ أبحاث علماء الأنثروبولوجيا: تزعم هذا التيار الباحثون الفرنسيون وعلى رأسهم غابرييل كامبس واستفان قزال وغيرهما، حيث تشير الجماجم البشرية التي وجدت في شمال إفريقيا، إلى التشابه الفيزيولوجي بين سكان ضفتي البحر المتوسط، وأن هذه الجماجم تعود إلى الألف التاسعة قبل الميلاد، لتوافق وجود الحضارة العاترية غرب الجزائر، وأن إنسان هذه الحضارة كان معاصرا لإنسان كرومانيون الأوروبي، مما يعزز فرضية أن البربر هم أوروبيو

---

[1]- أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط6، 1984، ص22.

[2]- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الملوك والرسل، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط2، دت، ج1، ص442

الأصل. كما أن تشابه التقاليد الجنائزية، والشواهد القبورية في المغرب، مع نظيرتها في المشرق، لا يلغي كذلك فرضية هجرة أقوام من المشرق إلى المغرب، وأن أصل البربر كذلك من المشرق.

ج/ أبحاث علماء اللغة: علّقت عليها أمال كبيرة لكشف خبايا تاريخ البربر، لأن اللغة حسب علماء اللسانيات هي أقدم تجليات الهوية، وقد اعتمد أصحاب هذا المذهب على التقارب المعجمي لبعض اللغات القديمة للوصول إلى أصل اللغة الأمازيغية، إلا أنهم سلكوا مناهج عقيمة ابتعدوا فيها عن الحقيقة، كما أن التشابه بين اللغات كان من حيث التراكيب لا المفردات، وقد خلصوا إلى وجود تأثيرات مشرقية في المنطقة[1].

وإذا ما أردنا عرض هذه الآراء والتوجهات فيمكننا أن نجملها في مدرستين:

مدرسة تدّعي الأصول الشرقية الكنعانية، أو الحميرية، وأخرى تدّعي الأصول الهندو أوروبية، لكن الثابت في كلا المدرستين أنها تثبت وجود عناصر محلية تدّعمت بهجرات أجنبية.

[1]– لأكثر تفصيل حول هذه الأبحاث ينظر: محمد حقي، البربر في الأندلس، مرجع سابق، ص22/19.

المطلب الثاني: البربر وجدلية الوصل والفصل بين الشرق والغرب

ازداد الاهتمام بقضية الأصول الأولى للأمازيغ منذ القرن الماضي، وذلك نتيجة تضارب الرؤى والزوايا التي نظر بها الباحثون إلى هذه المسألة، ولهذا ارتأينا استعراض أهم تلك الأفكار وعلاقتها بموضوع الدراسة

الفرع الأول: أصل البربر عند الباحثين الفرنسيين

يرى مؤرخو المدارس التاريخية أن الاعتماد على الآثار، وما تبقى من القرون السالفة، هو الحل للوصول إلى إجابات منطقية على أسئلة الأصول، والانتماء التي خصّت بها هذه المنطقة، فغابرييل كامب مثلا عند دراسته لأصول البربر، قام بالتمعن في البقايا البشرية المختلفة من عصور ما قبل التاريخ (العصر الحجري الأعلى الذي يقدر عمره ما بين 40.000 إلى 10.000 سنة)، حيث يعود ببحثه إلى الإنسان العاقل الأول، من خلال السعي للإحاطة بخصائصه، وتتبع تكوينه، وتحولاته في الزمان، والمكان، ليصل إلى أن سكان البحر المتوسط الأوائل من القفصيين 8-5 ق.م الذين استوطنوا شمال إفريقيا هم الأسلاف الحقيقيون القدامى للبربر[1].

أما شارل أندري جوليان فهو الآخر يذهب (تحت تأثير النظرة الإيديولوجية للمدرسة الكولونيالية) إلى اعتبار أن البربر مركبا جنسيا، تشكل عن طريق الهجرات المختلفة، والمتعاقبة على طول الزمن "فالبرابرة ومنهم يتركب العنصر الأصلي لسكان إفريقيا لا يكوّنون جنسا بالمعنى الفني لهاته الكلمة، بل مركبا جنسيا لم تغيّره الزحفات التي توالت عليه تغييرا محسوسا"[2].

لكنه يعود وتحت تأثير الأبحاث الحديثة إلى اعتبار أن سكان شمال إفريقيا أصلاّء في وطنهم، وأن ما تعاقب على هذه المنطقة من هجرات، وعمليات غزو، تعذّر عليها إحداث تغيّر جنسي على واقع البلاد، بسبب العدد من جهة[3]، وبسبب اتساع المكان، وتفرق

---

[1]- غابرييل كامب، البربر ذاكرة وهوية، مرجع سابق، ص16.

[2]- شارل أندري جوليان، افريقيا الشمالية تسير-القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية-، ترجمة، المنجي سليم وآخرون، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1976، ص21.

[3]- تشير المصادر التاريخية أن عدد الرومان الذين استقروا في شمال إفريقا قد قارب 100 ألف، وعدد الوندال كان 80 ألف، وعدد العرب الفاتحين 150 ألف، وأن عدد الهلاليين والسليميين 100 ألف، وإذا

النازحين من جهة أخرى، وهو ما أشارت إليه مها عيساوي بقولها "أن التجمعات البشرية في بلاد المغرب القديم كانت هائلة الأعداد ومنظمة فيما بينها ولها أساليبها في التواصل"[1]، أما ما أورده المؤرخون الرومان القدماء كـ ساليستيوس وبروكوب، من روايات تشير إلى توغل الفرس، والميديين، والأرمن، والعبرانيين في إفريقيا، فهي مجرد أسطورة لا نصيب لها من الصحة، ولا اعتبار لها تاريخيا، رغم وجود ما يؤيدها في مصنفات العرب (خاصة رواية بروكوب التي تحدث فيها عن غزو العبرانيين لليبيا)، لكنه في المقابل يقر بوجود عنصرين أساسيين يستمد منهما الإنسان الأمازيغي أصولهما إنسان **مشتى العربي** وإنسان ما قبل المتوسطي[2].

أما عن التنوع اللغوي الذي يميز شمال إفريقيا اليوم، فمرده لا يعدو الفروق اللغوية بين أبناء الجنس الواحد، ولا يعبر عن تقابل جنسي في شمال إفريقيا.

أما المؤرخ الفرنسي الآخر غوتييه، فهو أيضا اتخذ منحى بعيدا في التأصيل لتاريخ هذه الأمة، فإذا كان سلفه من الباحثين قد حاولوا ربط تاريخ البربر بالهجرات، والغزوات، فهو نفى أن يكون لهم أصل أو تاريخ، متجاهلا كل تلك الشواهد التي تدّل على تجذر أصل البربر، ويشير أن سكان المغرب هم البربر، لكن كما يقول "نحن لا نعرف أصلهم ولا من أين قدموا"[3]، لكنه عاد ليسلك نهج سلفه، ويقول أنهم تشكلوا نتيجة الهجرات المختلفة المتعاقبة على شمال إفريقيا، لكن الفارق عنده؛ هذه المرة أنهم "نزحوا من الغرب إلى

قارنا هذه الأعداد مع عدد البربر آنذاك مستندين على عدد أفراد جيوش ماسينيسا وصيفاكس ويوغرطة ...فإننا نكاد نجزم أنها فعلا عاجزة على إحداث تغيّر جنسي في بنية الجنس البربري ... لأكثر تفصيل عد إلى كتاب حضارات افريقيا القديمة، الصادر عن جين أفريك(اليونيسكو)، باريس، اشراف: جمال مختار، 1985، ج2، ص331/332.

[1]– مها محمود عيساوي، الانسان المغاربي القديم الصحراوي وإشكالية التدوين من خلال الرسوم الصخرية، دورية كان التاريخية، العدد 17، سبتمبر 2012، ص23/32.

[2]– شارل أندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية–تونس، الجزائر، المغرب الأقصى–من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م، تعريب، محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1978، ص54/55.

[3]–غوتييه، ماضي شمال افريقيا، ترجمة، هاشم الحسيني، مؤسسة تاوالت الثقافية، ليبيا، دط، 2010، ص19.

الشرق"[1]، رغم أنه يقر بغرابة هذا الرأي، لتبقى كل تلك الآراء مجرد ترجيحات عقلية لا تستند إلى شيء.

الفرع الثاني: أصل البربر عند الباحثين العرب

أما عند الباحثين العرب فقد تباينت أراؤهم حول هذه المسألة نتيجة التأثيرات الدينية من جهة، وخطابات القومية العربية من جهة أخرى، وإن غلب عليهم النقل، والاجترار تارة، والتأثر بأبحاث المدرسة الكولونيالية تارة أخرى.

فمحمد شفيق مثلا يرى أن "كل ما روي من الأشعار العربية في موضوع نسب البربر وإلحاقهم بقبائل العرب من مضرية، وقحطانية، لم يكن مبنيا على معرفة مضبوطة، وإنما كان صادرا عن رغبات سياسية كانت تراود نفوس العرب والبربر معا"[2]، كما أنه يتفق كثيرا مع كامب في مسألة التأريخ للبربر، فنجده يربط تاريخ سكان شمال إفريقيا بالقرن التاسع قبل الميلاد(وهو تاريخ ظهور المدنيات في شمال إفريقيا ويوافق وجود الإنسان القفصي)، ليجعل منه بداية تاريخ الأمازيغ، كما أنه تحدث كثيرا عن الهجرات البشرية القادمة من الشرق التي حدثت قبل ذلك، والتي يستمد منها الإنسان الأمازيغي القديم أصله، بحيث تشير "النتائج الأولى التي أفضت إليها البحوث، أن سكان إفريقيا الشمالية الحاليين في جملتهم، لهم صلة وثيقة بالإنسان الذي استقر بهذه الديار منذ ما قبل التاريخ، أي منذ ما قدّر بـ: 9000 سنة من جهة، وأن المد البشري في هذه المنطقة، كان دائما يتجه وجهة الغرب انطلاقا من الشرق من جهة أخرى"[3].

ومن زاوية أخرى يتساءل –محمد شفيق–، عن الفائدة المرجوة من البحث عن أصل الإنسان الأمازيغي اليوم، لأنّ هذا المجال سيفتح لنا بابا آخر، يوجب علينا أن نلتمس منه مواطن للصينيين، والمصريين القدماء، وحتى العرب "وبناء على هذا يمكن القول أن من العبث أن يبحث للبربر عن مواطن أصلية غير التي نشأوا فيها منذ ما يقرب من مائة قرن"[4].

---

[1]– غوتييه، ماضي شمال افريقيا، مرجع سابق، ص19.

[2]–محمد شفيق، ثلاث وثلاثون قرنا من تاريخ الأمازيغ، مؤسسة تاوالت الثقافية، ليبيا، دط، دت، ص17.

[3]–المرجع نفسه، ص20/19.

[4]– المرجع نفسه، ص20.

أما في رده على من قالوا أنّ أصل البربر من اليمن، فإنه يؤكد أن القرابة بين الأمازيغ، واليمانيين، تكمن في قرائن ثلاثة لا تفي بالمطلوب وهي:

1/ التشابه في بعض أسماء الأماكن في طول الطريق البري بين المغرب، واليمن.

2/ التشابه في بعض الألفاظ بين الأمازيغية، والحميرية، مع اختلاف دلالاتها التعبيرية.

3/ التشابه الشكلي بين حروف التيفيناغ، وحروف الحميريين مع اختلاف الأداء الوظيفي لها (تشابه الأشكال، واختلاف تأدية الأصوات)[1].

هذه هي نقاط التلاقي، والتلاغي بين اليمانيين، والأمازيغ حسب محمد شفيق، والتي ردّ فيها عن أصحاب المقاربة اللغوية في التأصيل لتاريخ البربر، إلا أنه يجب التنويه أن المقارنة الأنثروبولوجية أصبحت جد دقيقة، وبإمكانها الإجابة على كثير من الأسئلة التي واجهت العلماء والمؤرخين قبل القرن التاسع عشر.

من زاوية أخرى نرى من الباحثين من تأثر كليا بالرؤية المشرقية من أمثال محمد علي دبوز، الذي ربط الأمازيغ كليا بالمشرق، حيث أن أول من سكن شمال افريقيا "جماعات من أبناء يافث انتقلوا إلينا من المشرق، ومنه انتقلوا إلى جنوب أوروبا كما تدل على ذلك الآثار والنصوص الصحيحة"[2]، ولأن أرض المغرب عنده كانت بكرا، ولم تطأها أقدام، فالهجرة المشرقية كانت سببا في إعمارها، قبل أن يتراجع في رأيه حول النسب لا الرؤية، ويقر بأن البربر هم من أبناء حام لا من أبناء يافث، وفي هذا إثبات للنسب المشرقي للأمازيغ، فهم حسبه جنس ناتج عن هجرة تمت قبل ثلاثين قرنا، إلا أنه يجعل لهم نسبا صريحا منفردا عن النسب العربي "إن البربر أمة صريحة النسب، واحدة الأب، تتبع جميع قبائلها من أصل واحد هو مازيغ بن كنعان...وقد ادعى بعض المؤرخون عكس ذلك، وأكدوا أن البربر خليط من أجناس كثيرة، وليسوا جنسا واحدا ليفرقوا جماعتهم، بإيهامهم أنهم من أصول عديدة، ومن شعوب مختلفة"[3].

فهو يرى أن ادعاء النسب العربي، وإلحاق البربر بالعرب مرده سياسي بحت–سواء أكان صادرا عن حسن نية أم العكس–، واعتبر هذا الادعاء خرافة، وبدعة ممقوتة، هدفه

---

[1]– محمد شفيق، ثلاث وثلاثون قرنا من تاريخ الأمازيغ، مرجع سابق، ص21/20.

[2]– محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، مؤسسة تاوالت الثقافية، ليبيا، دط، 2010، ج1، ص25.

[3]– المرجع نفسه، ص39/37.

تبرير إسناد رئاسة الدولة الإسلامية لفئة معينة، كما أنه سعي لتبرير استيطان العرب بشمال إفريقيا.

وفي المقابل نجد عثمان الكعاك يتبنى رأي المدرسة الكولونيالية صراحة، بأن جعل البربر مزيجا من أجناس متعددة نزحت من أوروبا، ومن الشرق، وفي هذا الصدد يقول"الشعب البربري، أو شعب الأمازيغ (أي الأشراف الأحرار) نزح إلى شمال إفريقيا بعضه من أوروبا، وبعضهم من اليمن على طريق الحبشة، ومصر، وليبيا، وانتشر في ربوع المغرب وجهات من الصحراء وأطراف من مصر، وكان ذلك في عصور متقادمة لا تقل عن ثلاثين قرنا قبل ميلاد المسيح"[1].

وفي خضم المعطيات السابقة، برز باحث مغربي في قراءة جديدة لتاريخ المغرب الكبير، تعتمد على ربط الجغرافيا بالتاريخ، من أجل الوصول إلى نتيجة تتوافق، ورؤى الباحثين المختلفة، بحيث يشير عبد الكريم غلّاب أن فكرة البحث عن الموطن الذي جاء منه الأمازيغ، جاءت من ظلم التاريخ لهذه المنطقة، التي لطالما ارتبط اسمها بتاريخ الغزوات، والهجرات، فكان طبيعيا أن يربط أصل الإنسان فيها بخارج المنطقة[2].

وخلاصة ما ذهب إليه عبد الكريم غلاب:

1/ أن البحث عن مصدر الإنسان البربري(الأمازيغي) لا يفيدنا في شيء، لأنه يحيلنا إلى فكرة أن كل الشعوب التي عاشت في منطقة ما؛ قدمت إليها من منطقة أخرى.

2/ أن جلّ الأبحاث التي تمت في هذا الصدد انطلقت من مقاييس الشكل أو اللغة، يستوي في ذلك المؤرخون العرب والأجانب، وكانت نتائج أبحاثهم تصب في خانة الأيديولوجيا، فالدراسات الغربية حاولت أن "تطبع كل ظاهرة عرقية أو بشرية أو تاريخية أو حتى جغرافية بالفكر الاستعماري"[3]، وبالتالي تم ربط الأمازيغ بسكان أوروبا لإضفاء نوع من المشروعية على وجود الفرنسيين والإسبان والإيطاليين في شمال إفريقيا أثناء الحقبة الاستعمارية، وكذلك فعل قبلهم العرب حين ألحقوا الأمازيغ بالعرب نتيجة التشابه الشكلي واللغوي في بعض المفردات العربية والأمازيغية، فتقرر عندهم أنهم يمانيون أو فلسطنيون، رغم جهلهم بالطبيعة

---

[1]– عثمان الكعاك، البربر، مؤسسة تاوالت الثقافية، ليبيا، دط، 1375هـ، ص7.

[2]– عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب، مرجع سابق، ص33.

[3]– المرجع نفسه، ص34.

الجغرافية لشمال إفريقيا بسبب محدودية آفاق تفكيرهم من جهة، وحتى تسهل عمليات الفتح من جهة أخرى.

3/ أن الجغرافيا الطبيعية لبلاد المغرب لم تكن يوما منعزلة على نفسها، بل فتحت ذراعيها لكل أنواع الهجرات، والغزوات، كما أن توسطها للعالم القديم، جعل الأمازيغ يشهدون قيام، وأفول العديد من الحضارات القديمة، والمختلفة على ضفاف المتوسط، مما استدعى الكثير من عناصر التأثير، والتأثر.

4/ أن عناصر السكان الذين امتزجوا بالبربر كانوا من روافد ثلاثة هي:

- الرافد المشرقي المتمثل في الفينيقيين، الذين هاجروا إلى شمال إفريقيا، وأسسوا حضارة مشتركة على طول سواحل المغرب الكبير، وأثروا أيّما تأثير في الثقافة، واللغة، والتجارة، والفلاحة، فكانت صورة المجتمع الأمازيغي فيما بعد تعبيرا على هذا التأثير.
- الرافد الجنوبي المتمثل في هجرة الزنوج، وتأسيسهم لحضارة الصحراء.
- الرافد العربي الشرقي الذي يعتبر من أهم الروافد التي أثّرت على المجتمع الأمازيغي، بسبب الطابع الاستيطاني للعرب، وكذا توالي الهجرات على فترات التاريخ المختلفة (توالت الهجرات نحو المغرب منذ الأيام الأولى للفتح، وتواصلت بعده بسبب الثورات من جهة وفرار أصحاب الأفكار الخارجية إلى المغرب، حتى وصول الهلاليين والسليميين)، فتكوّن نموذجا جديدا من السكان، وأصبح المجتمع المغربي يضّم عناصر جديدة شعارها الإسلام.
- يضاف إلى هذه الروافد، روافد أخرى كاليونانيين، والرومانيين، إلاّ أن تأثيرهما كان محدودا بسبب انحصار تواجدهما، وكذا العقلية الاستنزافية لهما[1].

وبناء على ما تقدم؛ يشير عبد الكريم غلاّب إلى أن شمال إفريقيا هو موطن الأمازيغ الأول، وأنهم أصلاء في وطنهم، وأن وجودهم امتد من لوبيا القديمة (ليبيا اليوم) إلى نهر السنغال وحتى إلى إفريقيا جنوب الصحراء، وما تحدث عنه المؤرخون من هجرات، هي من قبيل الملاحة البشرية القديمة، القائمة على البحث عن الأكل، والشرب، والهروب من

[1]– عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب، مرجع سابق، ص35/39.

المجاعات، والأوبئة، والحروب، وأن هذه المنطقة قد أخذت نصيبها منها، إلا أنها هضمت الجميع، وأصبحوا أمازيغيين.

الفرع الثالث: أصل البربر عند الباحثين الجزائريين

غير أن ما يهمنا في بحثنا هذا هو رأي الباحثين الجزائريين حول هذه المسألة، باعتبارهم المعني الأول بهذا البحث، إلا أنّ أول ملاحظة صادفتنا، وهي أنّ ذلك الخلط البيّن الذي وقع بين الباحثين الغربيين، قد انتقل إلى الباحثين الجزائريين، فتباينت آراؤهم تبعا لانتماءاتهم الثقافية، والأيديولوجية بين:

1/ اتجاه عروبي (يمثل الأغلبية): يرى الجزائر قطعة من الشرق ماضيا، وحاضرا، ومستقبلا، مما لا يقبل مساومة، أو مراجعة، فهم يرون أن الهوية الإثنية للسكان المغاربة الأولين تتحقق في المشرق العربي لا في غيره.

2/ أقلية ترى أن الجزائر إما جزء من الغرب نزا (وثب) عليها الشرق، وعليها انتزاعها منه، وإرجاعها إلى مجالها الأصلي (وكل رجالها من المفرنسين)، أو بلد بشعب ذي أصول محلية مستقلة؛ واجتهدت لدحض فرضية الأصل العربي، والأوروبي معا، أيا كان الثمن، وبكل الوسائل[1].

3/ فئة أخرى ثالثة ترى أن "المغرب اكتسب هويته عبر فترات تاريخية متتالية انصهرت خلالها ثقافات الشعوب الأصلية (الأمازيغية)، والإفريقية، والزنجية، واليهودية، والمتوسطية، والفينيقية، والرومانية، والوندالية (الجرمانية)، ثم العربية الشرقية، والأوروبية حديثا"[2]، فهذه الفئة تؤمن أن معطى الهوية معطى متحرك، وليس ثابتا، وتتميز هذه الفئة بأن آراءها تتميز بالاعتدال، والوسطية.

وبناء على هذا التقسيم سنقوم بتصنيف آراء، وأبحاث المؤرخين الجزائريين سواء القدامى، أو المحدثين، فهذا مبارك الميلي، وفي خضّم نقده لمناهج المتقدمين، والمتأخرين الذين أصلّوا لتاريخ البربر، لم يجد بدًا في إرجاع نسبهم إلى المشرق، غير أنهم ذات وحدة

---

[1]–ينظر: بشير بلاح، التدافعات الثقافية في الاستوغرافيا الجزائرية 1962/1998–جذورها والعوامل المؤثرة فيها–، الدار الخلدونية للنشر والطباعة، الجزائر، دط، 2017، ص 248.

[2]–عبد اللطيف هسوف، الأمازيغ قصة شعب، دار الساقي، بيروت، ط1، 2016، ص18.

جنسية كغيرهم من الأمم، بحيث يرجع نسبهم إلى مازيغ بن كنعان بن حام[1]، إلا أن أرض الجزائر –حسبه– قد عرفت وفود هجرات كثيرة ومتنوعة، في أوقات مختلفة ومتعددة، وأن ما تتميز به أرض المغرب من تنوع لغوي ما هو إلاّ انعكاس لتلك الهجرات.

وخلاصة القول "أن البربر أمة مستقلة؛ أصلها من الشام، ثم انتقلت إلى ليبية (إفريقيا) واستقرت فيها، كما نزح إلى هذا الوطن طوائف من أمم أخرى، وحصل الاختلاط، والامتزاج بين جميع سكان هذا الوطن تحت اسم البربرية"[2]، وأن ما تحدث عنه الباحثين من تشابه فيزيولوجي، ولغوي بين البربر، وغيرهم من شعوب العالم، هو من قبيل قرابة الأمم من بعضها، لا من قبيل أصالة أمة من الأمم على حساب أخرى.

ولو أن تبني مبارك الميلي الرؤية المشرقية يعد مفهوما، باعتباره نفس التوجه الذي تتبناه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي بحثت عن سند تحتمى به نظرا لما كانت تمر به الجزائر من ظروف استعمارية، إضافة إلى تنامي خطابات القومية العربية منذ مطلع القرن الماضي.

وعلى النقيض من ذلك نجد أن عبد الرحمن الجيلالي قد نحى منحىً آخر، دأب فيه إلى اعتماد النتائج العلمية المتوصل إليها من طرف علماء الآثار، بعيدا عن أقوال المؤرخين المتقدمين، حيث نصت الأبحاث الحديثة على أن "سكان الشمال الافريقي القدماء هم من سلالة الجنس الأبيض واضع المدنيات القديمة"[3]، وأن هذا الانسان قد عاش في حوض المتوسط الجنوبي، ثم هاجر إلى أوروبا (هجرة عكسية)، ولا أدل على ذلك من الهيكل العظمي الذي وجده العلماء في غرب الجزائر (معسكر)، والذي يرجع تاريخه إلى 450 ألف سنة، وبناء على ما توصل إليه العلماء فالجزائر حسبه هي "مهد العنصر البشري المتحضر"[4].

---

[1]– مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دط، دت، ج1، ص90.

[2]– المرجع نفسه، ص91.

[3]– عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1965، ج1، ص46.

[4]– المرجع نفسه، ص47.

غير أن الأبحاث دلّت على أن وجود الإنسان المتحضر قد وافق الألف الثلاثين قبل الميلاد، فهل يقصد عبد الرحمن الجيلالي أن أصل الإنسان الأمازيغي يعود إلى ذلك الزمن الذي استقر فيه الإنسان في شمال إفريقيا، لتوافق رؤيته رؤية من سبقوه؟

فالمعلوم أن أقدم المدنيات التي قامت في شمال إفريقيا، كانت في القرن الحجري الأعلى (Paléolithique supérieur)، وذلك نتيجة توفر الظروف الملائمة لذلك، ومن بين المدنيات القديمة التي قامت على القطر الجزائري:

1/الحضارة العاترية: انتشرت على طول السواحل الشمالية الغربية لإفريقيا (40000 سنة قبل الميلاد)، تميزت باختراع نماذج من المقابض، والتي كانت مجهولة قبل ذلك، وتم استخدامها في صناعة بعض المعدات والأسلحة. وقد اعتقد الباحثون أن الإنسان العاتيري يشكل علامة فارقة في تطور العقل البشري، فهو حسبهم إنسان عاقل من النوع الحديث.

2/الحضارة القفصية: ظهرت حوالي الألف الثامنة قبل الميلاد، وانتشرت ببعض المرتفعات الشرقية الجزائرية(الأوراس)، ثم انتقلت إلى أوروبا عبر مضيق جبل طارق، ولعل هذا ما كان يقصده عبد الرحمن الجيلالي بقوله، الإنسان الأبيض الذي هاجر إلى أوروبا.

3/الحضارة الوهرانية: ظهرت وسط، وغرب الجزائر، ووصل امتدادها إلى واد ميزاب، يرجح العلماء أنها امتداد للحضارة القفصية، ذلك أن المعطيات التاريخية تشير إلى تشابه الإنسان القفصي، والانسان الوهراني[1].

من زاوية أخرى؛ يذهب بعض الباحثين الجزائريين على –شاكلة موسى لقبال– إلى اعتبار أن البحث عن أصل البربر "بحث عقيم"[2]، لأنه يقودنا إلى التشكيك في موطن كل البشر قبل ذلك، إلا أن البحث قد يكون إيجابيا في حالة ما كان يدور حول نوع الجاليات، والشعوب التي كانت لها احتكاك بالسكان الأصليين بالمنطقة، وفي هذا إقرار ضمني بأن البربر هم مزيج من عناصر مهاجرة استقرت في شمال افريقيا نتيجة توفر الظروف الملائمة لذلك، كما أنه اعتراف بوجود إنسان أصلي سكن المنطقة.

---

[1]– لأكثر تفصيل حول المدنيات القديمة التي قامت على أرض شمال إفريقيا عد إلى: غابرييل كامب، البربر ذاكرة وهوية، ص72 وما يليها وكذا، يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2007، ج1، ص22 وما يليها.

[2]– مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، منشورات الحضارة، الجزائر، دط، 2009، ج3، ص13.

وإلى هذا الرأي ذهب أحمد توفيق المدني، الذي يرى أن البربر كلهم عناصر مهاجرة من آسيا مخترقة مصر ولوبيا، غير أنهم يحوزون أصلا منفردا عن العرب، والفينيقيين، فالبربر من أبناء مازيغ بن كنعان بن نوح[1].

ولكنه في مقابل ذلك يورد قولا فيه الكثير من الغرابة مفاده أننا إذا نظرنا إلى المسلمين الجزائريين اليوم رأيناهم ينحدرون من أصلين اثنين هما: الأصل الأمازيغي، والأصل العربي، حيث يمثل العرب الأغلبية الساحقة(10/7)، وهذا بسبب ما عرفه إقليم شمال إفريقيا من هجرات بسبب الفتوحات الإسلامية من جهة، وهجرة قبائل بني هلال، وبني سليم من جهة أخرى، وهو ما أدى إلى تعرب البربر، وذوبانهم في بوتقة الإسلام، والعروبة[2].

غير أن السؤال الذي يطرح نفسه بشدة هنا هو: هل الذوبان في بوتقة العروبة كما قال، والتكلم باللسان العربي بالنسبة لأغلبية الجزائريين يلغي نظرية الأصل العرقي؟ ثم ما معنى أن نسبة وجود العرب أكبر من نسبة وجود الأمازيغ، هل هذا يعني أن أرض الجزائر كانت بكرا، والعرب هم من عمّروها، وبالتالي حازوا النسبة الأكبر من تعداد السكان؟

في مقابل ذلك نجد فئة من الباحثين الجزائريين تقر بوجود عنصر أصلي في المنطقة، لكنها لم تشر إلى أصله، وأن أمازيغ اليوم هم مزيج من سكان أصليين، وأجناس أخرى مهاجرة، مثل الأستاذ محمد العربي عقون الذي يشير إلى نقطة مهمة لطالما حاول المؤرخون الالتفاف حولها–خصوصا مؤرخو المدرسة الكولونيالية–، وهي أن الآثار الموجودة في شمال إفريقيا دلّت على أن الشعب الإفريقي(البربري)هو أحد الشعوب السبعة القديمة الوارد ذكرها في المصادر مثله كمثل المصريين، والإغريق، والفرس، وغيرهم[3]... وفي هذا دلالة على وجود الإنسان منذ القدم، إلاّ أن الأستاذ محمد البشير شنيتي(كنوع من الاعتراف) يورد العديد من النصوص لرواد المدرسة الفرنسية على النقيض من ذلك تماما، كقول المؤرخ الفرنسي لوبلان مثلا، الذي يرى أن البربر ما هم إلا "نتيجة تحققت منذ أمد بعيد، ولا تزال تتحقق من الاحتكاك بمجموعات عرقية آتية من جهات متعددة عبر عصور مختلفة، وأن

---

[1]– أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المطبعة العربية، بيروت، دط، 1350هـ، ص5.

[2]– أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، مصر، دط، 2001، ص29/28.

[3]– محمد العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الأفريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2003، ص 157.

العناصر الأولية قد تكون من بقايا هجرات ما قبل التاريخ من ذوي الرؤوس المستطيلة والمفلطحة"[1]. وفي هذا إشارة واضحة إلى أن الجنس الأمازيغي تابع لغيره لا أصيلا في ذاته، بل إنّ هذا الجنس الأمازيغي حسبه لا يكوّن إطلاقا "مجموعة إثنية متجانسة، وأن هناك دماء أجنبية كثيرة تجري في عروقهم"[2]، وفي هذا تحامل كبير على الجنس الأمازيغي.

وإلى هذا الرأي ذهب بوزياني الدراجي في كتابه القبائل الأمازيغية، والذي نحى فيه على نفس المنحى الأيديولوجي للمدرسة الفرنسية، معتبرا أن سكان البلاد المغاربية الحاليين هم "نتاج مزيج بشري من سلالات مختلفة، وأجناس متباينة، انتقل أسلافهم إلى هذه الديار ضمن موجات بشرية عديدة، وهجرات إنسانية كثيرة.... فأضحى جميعهم يمثلون مجتمعا واحدا، انصهر في بوتقة التاريخ الواحدة، فعرف هذا المجتمع لدى بعضهم باسم البربر، وعند الآخرين باسم الأمازيغ"[3].

غير أن ما يهمنا هنا هو رأي مؤلفنا مولود قاسم، الذي يرى أن المراهنة على العرق، والأصول تبقى كلها نسبية، ولا يعول عليها لكشف الماضي، كما نجده يدعو في كل مرة إلى عدم التشدد في البحث عن الأصول لأنه يضر العالم الإسلامي أكثر مما ينفعه، وهو ما كاد يحدث في الملتقى السادس من ملتقيات الفكر الإسلامي، إذ كاد أن "يصبح الملتقى منصبا على أصل العرب والبربر والفرس...والطويفات العديدة...لتفرقع المتبقي من الإسلام"[4]، لذا نجده في أكثر من مرة يدعو إلى التمسك برابطة الإسلام التي تجمع كل المسلمين، ضاربا مثلا بنفسه إذ يقول "أنا لا أدري إن كان أصلي من هذه البلاد منذ الأول، منذ فجر الإنسانية، مثلا آدم بالنسبة للجميع طبعا، فأقول المسألة كلها نسبية، لا أدري إذا كان أجدادي منذ عشرين قرنا أو خمسة وعشرين قرنا [هو تاريخ الوجود البشري على هذه الأرض] أو أكثر، من هذه البلاد، أو جاؤوا من الأندلس، أو جاؤوا من المشرق، أو من

---

[1]– محمد البشير شنيتي، أضواء على تاريخ الجزائر القديم، مرجع سابق، ص137.

[2]– المرجع نفسه، ص137/136.

[3]–بوزياني الدراجي، القبائل الأمازيغية –أدوارها، مواطنها، أعيانها–، دار الكتاب العربي، الجزائر، دط، 2007، ج1، ص51/49.

[4]– مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية، دار الأمة، الجزائر، دط، 2013، ج1، ص115.

الإسبان الذين دخلوا في الإسلام، من القوط، والوندال، ومن غيرهم، لا أدري ومن يدري؟ لا أدري الأصل الأصلي البعيد، ولا أحد يدري"[1].

غير أنه يعود مرة أخرى في خضم حديثه عن التاريخ، وأهميته، إلى العودة إلى مشكلة الأصول، وتحديدها بدقة إذ يقول أنّ "أي جزء من تاريخ أي أمة لا ينسى أبدا، وكما ندرس تاريخ الشعر الجاهلي، وندرس حضارة حمير وسد مأرب –والشيخ عبد الله المجاهد الشماحي من اليمن هنا، ونفتخر به لأنه من أصلنا القديم–، نفتخر بهذا الجزء أيضا وكذلك بالذات، تماما كما يفعل إخواننا من مصر، كما يفعل إخواننا في سوريا والعراق، كما يفعل إخواننا في اليمن، وفي جنوب اليمن بالذات"[2].

ما يستنتج من كلام مولود قاسم هنا:

– اقراره أنّ لا أحد من شعب الجزائر اليوم يستطيع أن يرجع للأصل البعيد، ويكتشف من أين أصله.

– اتفاقه مع معظم الباحثين، والمؤرخين سواء الجزائريين أو غيرهم أن الشعب الجزائري هو مزيج من عدة شعوب هاجرت إلى المنطقة منذ القديم.

– أنه يرى أن منطقة شمال إفريقيا لم تكن بكرا، وأن الهجرات هي سبب إعمارها.

– أنّ الأصل القريب للجزائريين يعود إلى اليمن.

– أنّه يرى أن شخصية الجزائر قد تقعّدت في عصر الممالك النوميدية، وأن صورتها تنعقد على زعمائها (ماسينيسا، يوغورطا، تكفاريناس...)، ووجب الافتخار بتاريخ الجزائر القديم

والخلاصة أننا "إذا وضعنا أنفسنا في إطار تاريخي نجد أن المغاربة الحاليين الذين سماهم القدامى بالليبيين أو البربر، يمكننا أن نرى فيهم ذرية إنسان المشتى_أفالو وإنسان قفصة، الذي وجد في شمال إفريقية منذ عصر الحجر المصقول، ومهما كان هذا العمق مشتوي أو قفصي، يجب أن لا ننسى أنه حتى أيامنا هذه؛ أن التركيبة الأساسية لسكان البلاد المغاربية، تنتمي إلى هذا العمق البربري القديم الذي كان موجودا في المنطقة منذ ما قبل التاريخ كتركيب لم يتوقف التاريخ عن نقلها إلينا، فالفينيقيون، والرومان، والعرب، حتى لا نذكر غير الفتوحات الكبرى، أثروا كثيرا الألوان الثقافية للبربر، لكن إثنيا لا يبدو أن

---

[1]– مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج1، ص 400/399.

[2]– المرجع نفسه، ص409.

المساهمة كانت كبيرة"[1]، وبهذا يكون الجنس البربري القديم "هو الجنس الذي ينتمي إليه سكان إفريقيا الشمالية"[2]، وأن ما أورده المؤرخون حول كون الجنس البربري متولد عن تزاوج، وتلاقح عدة أجناس، وذلك بالاستناد على الملامح العرقية التي تميز البربر هو من "باب الظنيات، والتقديرات التي تبقى في حاجة إلى السند التوثيقي العلمي شأن البربر في ذلك شأن الشعوب الأخرى قاطبة"[3]،لكن ما ينبغي الإشارة إليه أن "العصر الذي كانت فيه الملامح العرقية هي الهدف الأسمى من البحث الأنثروبولوجي قد ولّى، وينبغي أن نفهم بأن العنصر الأصلي ظل يدمج ضمنه على امتداد التاريخ عددا من الأعراق والأنواع"[4].

كما يجب أن لا ننسى أنّ الانتساب إلى العربية، الذي حاول أغلب المؤرخين إلحاقه بالبربر، هو أمر مدني اندماجي، وليس عرقيا، فالعروبة تحولت بفضل الدين إلى جنسية ثقافية، وحضارية، ولم تعد عرقا، ولا عصبية تحتكر الشأن الروحي، والزمني، وتنبذ الأمم، والأجناس الأخرى.

إن جزائر اليوم "يسكنها حاليا عنصران أساسيان، هما تسعة أعشار من المسلمين (من أصل عربي، وأمازيغي)، وعشر واحد من الجزائريين ذوو أصل أوروبي، وهؤلاء الأخيرون أقلية هامة تجعل وجودها من الجزائر الحديثة غير الجزائر التي كانت سنة 1830م"[5]، وبالتالي يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الماضي التاريخي للجزائر، ولا يجب أن ننسى أن أساس "سكان البلاد هم من الأمازيغ"[6].

---

[1]– محمد الهادي حارش، دراسات في تاريخ الجزائر الماضي والحاضر، دار هومة، الجزائر، دط، 2013، ص24.

[2]– عبد الله شريط، محمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، مطبعة البعث، الجزائر، ط1، 1965، ص12.

[3]– عشراتي سليمان، الشخصية الجزائرية–الارضية التاريخية والمحددات الحضارية–، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2002،

[4]– محمد العربي عقون، الأمازيغ عبر التاريخ –نظرة موجزة في الأصول والهوية–، التنوخي للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2010، ص28.

[5]– مولود قاسم نايت بلقاسم، ردود الفعل الأولية داخلا وخارجا على غرة نوفمبر، دار الأمة، الجزائر، دط، 2007، ص29.

[6]– المرجع نفسه، ص30.

وعليه فقد تباينت آراء، وأبحاث المؤرخين، والباحثين العرب، والأجانب، وكذا الجزائريين حول أصول البربر، بين التصور السامي، والتصور الحامي، والتصور الهندو أوروبي، والتصور الافريقي المحلي، وذلك نتيجة "لاختلاط الذاتي بالموضوعي وتداخل الديني مع الأيديولوجي"[1]، غير أن ما هو ثابت لنا بناء على مراجعتنا للدراسات، والأبحاث السابقة هو:

1/ أنها لم تفصل صراحة في حقيقة أصل الأمازيغ.

2/ أنها استندت في غالبها على الجانب المادي، والأنثروبولوجي.

3/ طغيان الجانب العاطفي، والايديولوجي على تلك الدراسات، مع تباين الغايات، والأهداف.

4/ اعتماد الدراسات التاريخية على الفرضيات، والظنيات، وابتعاد معظمها عن المنهج العلمي.

5/ لجوء معظم المؤرخين إلى اجترار المعرفة التاريخية، والتشبث بما توصل إليه من نتائج سابقة، رغم التطور العلمي الذي توصل إليه البشر.

وخلاصة القول، يمكن القول أنّ الرأي الذي نميل إليه هو الأصل المحلي الإفريقي أو على الأقل انفراد الأصل البربري عن الأصل العربي، والأوروبي، كما لا يمكن نكران أن هذا العنصر المحلي قد تطعّم على فترات تاريخية متعاقبة بهجرات كثيرة، شكلّت فسيفساء بشرية وحدّتها الجزائر

كما يجب التنويه أن مسألة الصفاء العرقي التي يحاول البعض إدراجها ضمن أبحاثهم صعبة المنال، يصعب حلّها بشكل علمي دقيق، كما أنها لم تعد مطلبا عند الأمم، وإنما أضحى التوجه نحو إبراز المقومات المكونة للأمة كاللغة، والدين، والوطن، ووحدة الأهداف، وهو ما سيتم مناقشته في الفصل الموالي من هذه الأطروحة.

---

[1]– جميل حمداوي، الحضارة الأمازيغية أنثروبولوجيا الانسان، التاريخ، الكتابة، الديانات والثقافة، افريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2016، ص36.

المبحث الثاني: تسميات البربر وتقسيماتهم

نحاول في هذا المبحث الحفر في معظم التسميات التي أطلقت على سكان المغرب، وكذا التقسيمات التي احتفظت بها سجلات، ومظان الكتب القديمة، لنتساءل حول جدوى إطلاق كل هذه الأسماء، وإمكانية مطابقتها لما بقي اليوم من تلك الأسماء، وهل تقبل الأمازيغ تلك الأسماء والتقسيمات؟

المطلب الأول: التسميـــات

نعتت هذه الجماعة البشرية عبر تاريخها بأسماء عديدة ومتعددة، فقد انتقل لغط الأصل إلى الاسم، وانتقل الاختلاف من الأصول والنسب إلى الاسم والتقسيم، فقد تحدثت المصادر التاريخية المختلفة عن عديد الأسماء التي الصقت بهذه الفئة مثل: البربر والأمازيغ والنوماد والمور والجيتوليين وأفري.....، إلا أن هذه الأسماء لم تحظ باهتمام كبير من الباحثين باستثناء الاسمين الأولين، إذ أثارا جدلا كبيرا ونقاشا بين المختصين حول معناهما وأصلهما ثم مصدرهما، وقد وضعنا صوب أعيننا ونحن نناقش الآراء المختلفة حولهما، أن الأمازيغ هم وحدهم المخوّلين بقبول، ورفض مختلف الأسماء، لذلك فقد استعرضنا مختلف الروايات الواردة حول التسمية لنتجاوزها، ونبحث حول أصلها وكذا الظروف التاريخية التي صاحبت إطلاقها، لنصل في النهاية إلى رأي يتوافق مع المبدأ الذي انطلقنا منه.

يشير أحمد صفر إلى نقطة مهمة مفادها، أن كل الأسماء التي أطلقت على السكان، كانت من جهات خارجية، اللهم ما أثبته السكان لأنفسهم كاسم الأمازيغ مثلا، بحيث أن أول اسم ورد ذكره في المصادر التاريخية هو اسم **لوبي** الذي تحدث عنه هيرودوت (زار ليبيا في بداية النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد) حين وصف سكان شمال إفريقيا، التي تعرف قديما باسم ليبيا، حيث يقول تمتد ليبيا من حدود مصر شرقا إلى رأس صوليس على المحيط الأطلسي، حيث تنتهي غربا، ويسكنها الليبيون[1]، فاللوبيون في نظر هيرودوت هم "كل سكان افريقيا من الجنس الأبيض المتميزين عن الفينيقيين والاغريق"[2]، وفي هذا إشارة

---

[1]– أحمد صفر، مدنية المغرب العربي في التاريخ–عشرون قرنا من تاريخ افريقية من عصور ما قبل التاريخ إلى العهد البيزنطي–، دار النشر بوسلامة، تونس، ج1، 1959، ص172.

[2]– غابرييل كامب، في أصول بلاد البربر، مرجع سابق، ص34.

قوية إلى أن هذا الاسم قد استخدم منذ البداية للدلالة على إقليم جغرافي محدد، وكذا الوحدة اللغوية التي تميزت بها المنطقة، وبالتالي انفراد الوحدة الإثنية للسكان.

إلا أن هذا الاسم سرعان ما انحصر، ليحل محله إسم آخر هو **أفري**، الذي يرتبط بوصول الفينيقيين إلى إفريقيا، حيث يعتقد أن أول من أطلقه هم الفينيقيون لحظة وصولهم إلى شمال إفريقيا، غير أن هذا الاسم قد أخذ معنى أضيق عند الرومان، وصار مقرونا بالرعايا الذين يسكنون الجهات التي استولت عليها قرطاج وضمتها رسميا إليها، ليعود، وينحصر مرة أخرى مع قيام مملكة الماسيليين بقيادة ماسينيسا[1].

من جانب آخر، تشير المصادر الرومانية إلى وجود اسمين أطلقا على سكان شمال إفريقيا هما **الجاتوليين** و**البربر**، ويعتبر ساليستيوس(القرن الأول قبل الميلاد) هو من أطلق اسم الجاتوليين على السكان، وذلك لما اختلط السكان الأصليون مع قبائل الجيتول(كانت هذه القبائل منتشرة جنوب الممتلكات القرطاجية، ومملكة نوميديا، وتمتد جنوبا حتى تحاذي أطراف الصحراء) بعد تحطم جيش هرقل، أما اسم البربر فإن أغلب الدراسات تشير أن الرومان هم من أطلقوه على شعوب المنطقة، لكنه لم يكن خاصا بهم لوحدهم، بل هو اسم لكل الشعوب التي لا تنتمي لدائرة الحضارة الرومانية القديمة، أو تلك التي لا تتحدث باللسان اللاتيني القديم.

غير أن كل هذه الأسماء لم تحض بالقبول في الأوساط الشعبية للسكان، الذين بحثوا لأنفسهم عن اسم، يعبر عنهم وصفا وتوصيفا، فكان اسم الأمازيغ هو الاسم الذي تسمّى به السكان المحليون، وأخذ يشق طريقه وسط الأوساط الشعبية، حتى صار الاسم الشائع، والذي يطلق على سكان شمال إفريقيا اليوم، وقد حاول الباحثون البحث عن مصدر الاسم، ومعناه في الكتابات القديمة، ووجدوا أن كلمة أمازيغ مشتقة من الجذر (MZG, MZK)، وأنه ورد بعدة صيغ في الكتابات القديمة، حيث أن الوثائق، والنقوش الحجرية، والنصوص الجنائزية، تشير أن اسم أمازيغ هو أكثر الأسماء تداولا وسط السكان، كما أنه ورد على عدة مسميات

[1]– غابرييل كامب، البربر ذاكرة وهوية، مرجع سابق، ص126.

هي: **المازيس**(عند الرومان)، **المكسيس**(عند هيرودوت)، **مازازس، مازوك، ميزيغي، مازاسنس، تامازوسنس**[1].

وبالعودة إلى معنى الاسم نجد أن الاسم يعني الأحرار، أو الأشراف، أو النبلاء، والشائع هو أن إسم الأمازيغ يعني الحر النبيل، غير أن بعض الباحثين يرون أن اسم الأمازيغ خاص بفئة معينة، لها مكانة اجتماعية خاصة، وتعرف بالنبلاء، أما العامة فقد تسموا بالبربر "أما الأشراف، والنبلاء من بين الليبيين، فقد كانوا يعرفون باسم الأمازيغ، وهم الأحرار من العائلات الارستقراطية"[2].

من جانب آخر؛ حاول المؤرخون، والنسابة العرب الخوض في مسألة الاسم، ومدلوله، وذلك عن طريق سرد مجموعة من القصص التاريخية، وكذا الرجوع إلى المعاجم اللغوية، علهم يفككون شفرة البربر، حيث تشير معظم المصادر العربية إلى اسم واحد هو البربر، وهو المعتمد تقريبا عند جميع المؤرخين العرب، وقد أطلق أول الأمر للتمييز بين السكان الأصليين، ومن انصهر في ثقافتهم من السكان الإفريقيين، غير أن هذا الاسم أصبح له دلالات أخرى، وأصبح يحمل في طياته الوصف العنصري لهذه الأمة.

يرى ابن خلدون أن أصل التسمية من أصل اللغة، "ولغتهم الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها، وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم"[3]، أما عن أصل التسمية فإنها تعود إلى زمن إفريقش بن قيس بن صيفي حين غزا إفريقيا، ولما رأى هذا الجيل من الأعاجم، وسمع رطانتهم، ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك، وقال: ما أكثر بربرتكم، فسموا بالبربر"[4]. وإلى هذا الرأي ذهب صاحب كتاب مفاخر البربر حيث ينقل ما نقله ابن خلدون حرفيا.

---

[1]– لأكثر تفصيل حول صيغ ورود اسم الأمازيغ عد إلى كتابي غابرييل كامب، البربر ذاكرة وهوية، ص127 وما يليها، وكذا في أصول بلد البربر ص38 وما يليها، كما لا يفوتنا الإشارة هنا أن اسم الأمازيغ موجود قديما ووسيطا بجذره أو تمظهراته أو تحويراته، لكن دلالته اختلفت من عصر لآخر، فإذا كان اليوم يطلق على شعوب شمال افريقيا كلها تقريبا، فإنه يشير قديما إلى مجموعة أو مجموعات هم جزء من المكون الشمال الافريقي القديم.

[2]– أحمد صفر، مدنية المغرب العربي في التاريخ، مرجع سابق، ص34.

[3]– ابن خلدون، العبر، مرجع سابق، ص116.

[4]– المرجع نفسه، ص117.

غير أن الحسن الوزان كان له رأي مخالف، حيث يعتقد أن كلمة بربر مكرور (بر)، أي الأرض، أو الصحراء، أما عن أصل هذه التسمية فإنها تعود إلى هجرة إفريقش إلى إفريقيا هربا من الحرب "فاستشار قومه أي في أي سبيل يسلكونه للنجاة، فأجابوه البربر أي الصحراء"[1].

وهو الرأي الذي ذهب إليه مولود قايد الذي يعتقد أن كلمة بربر تعني "بلد المهاجر" أو "بلد المهاجرون"، وفي هذا إشارة كبيرة إلى الهجرات الكثيرة، والمتنوعة التي كانت تجاه شمال إفريقيا[2].

أما محمد علي دبوز، فإنه يرى أن أصل التسمية يعود إلى أحد أجداد البربر، وأنهم تسموا باسمه على غرار كل شعوب العالم، أما ما أورده المؤرخون حول الرطانة اللغوية وعدم فهم الناس لهم، فإنه يعتبرها أقوالا لا أساس لها من الصحة، بحيث يقول: "وأرى أن نسبة البربر إلى جدهم السادس هو سبب تسميتهم بهذا الاسم لا لغتهم التي لا يفهمها العرب، ولو كانت اللغة هي السبب، لسمّوا كل جنس لا يفهمون لغته بربرا، كأقباط مصر ولغتهم الحامية كلغة البربر والسودانيين"[3].

من جانب آخر يرى بوزياني الدراجي أن التسمية القديمة التي عرف بها سكان المغرب هي الليبيين أو اللوبيون، وهي أقدم تسمية عرفوا بها، وتعود إلى سنة 3000ق.م، أما ما ورد من أسماء أخرى فهي وصف لبعض القبائل اللوبية مثل المشوش والتمحو والتحينو...، ومن هذا المبدأ فإن اسم الأمازيغ الذي يعرف به سكان شمال إفريقيا اليوم، هو اسم متأخر زمنيا بعض الشيء، وكان يطلق على فئة معينة، لها مكانة خاصة في المجتمع، ثم توسع مدلوله ليشمل كل القبائل النوميدية[4].

---

[1]– الحسن الوزان، وصف افريقيا، مرجع سابق، ص 34.

[2]– بشير بلاح، التدافعات الثقافية في الاستوغرافيا الجزائرية، مرجع سابق، ص 251.

[3]– محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، مرجع سابق، ص33.

[4]–بوزياني الدراجي، ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية، مؤسسة بوزياني للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2013، ص9/8.

وفي تعليقه على تسمية البربر، يرى أنها جاءت من خارج المجتمع الأمازيغي، وهي إما نسبة لأحد أجداد الأمازيغ يسمى بربر، أو هي نعت لطريقة كلامهم، ولغطهم، وأن العرب هم من نقلوها وروجوا لها حتى صارت قرينة بشعب الأمازيغ[1].

وإلى هذا الرأي يذهب كل من يحيي بوعزيز وموسى لقبال، اللذين يريان أن اسم البربر نقلته، وروجت له المصادر العربية، رغم علمهم أن السكان يفضلون اسم الأمازيغ، وهو ما فتح الباب واسعا لتتحدث حول مدلول هذا الاسم عند العرب، فموسى لقبال يرى "أن دور العرب المسلمين في إطلاق اسم البربر على سكان المغرب الإسلامي لا يتعدى تبني مصطلح جامع لكل السكان محاكاة لمن سبقوهم في المنطقة"[2].

أما يحي بوعزيز فيشير إلى أن كلمة بربر هي "تسمية سياسية مغرضة وليست طبيعية"[3]، وأن العرب نقلوها بغية الانتقاص من قيمة هذا الشعب، لأن دلالة الكلمة تشير إلى التوحش والتأخر واللاحضارة، وهو ما ترسخ في عقيدة الفاتحين القدامى، الذين تشير أغلب كتاباتهم إلى أن العرب لهم فضل كبير في تمدين شمال إفريقيا، ، وإلى هذا الرأي يذهب مولود قاسم الذي يرى أن كلمة البربر مشتقة من كلمة باربار اليونانية، وتعني التوحش، وقد أطلقها اليونانيون على كل الشعوب التي لم تكن تنتمي إلى دائرة الحضارة اليونانية، بما في ذلك الرومان، ثم جاء الرومان بعد ذلك، وأطلقوها على غيرهم ممن استدمروهم، وأطلقوها على الجرمان، والسلت والصقالبة[4]، كما لم يخفي استغرابه كيف أن العرب مازالوا متمسكين بهذا الاسم(بربر) رغم أنه يحمل نقيصة، وشتيمة في حقنا، لذلك نجده يميل إلى إسم الأمازيغ الذي تسمى به هذا الشعب، ويعني الرجال الأحرار[5].

لكن ما تغفل عنه هذه المصادر، أن سكان شمال إفريقيا قد عرفوا المدنية قبل وصول العرب بقرون خلت.

---

[1]–بوزياني الدراجي، القبائل الامازيغية، مرجع سابق، ج1، ص33.

[2]– مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، مرجع سابق، ص12.

[3]– يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص24.

[4]– مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج1/ص113.

[5]– مولود قاسم نايت بلقاسم، إنية وأصالة، دار الأمة، الجزائر، دط، 2013، ص548.

غير أن محمد عقون كان له رأي آخر، حيث يرى أن كلمة أمازيغي تدل على كل "من ليس ذا أصول أجنبية، أي ليس بونيا، ولا لاتينيا، ولا ونداليا، ولا بيزنطيا، ولا عربيا، ولا تركيا، ولا أوروبيا"[1]، لأن هذه المنطقة عرفت ظهور العديد من الأسماء التي تختص بفئة معينة، ففي القرن 2 ق.م صار سكان المنطقة المحصورة بين حدود قرطاج شرقا وواد مولوشا (ملوية) غربا، يعرفون بالنوميد، وتزامن اطلاق هذا الاسم مع تأسيس ماسينيسا لمملكته، فأصبح سكان مملكة ماسيليا يعرفون بالنوميد[2] وهم أهل الجزائر خاصة، وقد عرف في المصادر الإغريقية أنه "اسم وصفي، يعني نمطا في الحياة ينطبق على البدو الرحل"[3]، لكنه صار بعد ذلك يطلق على كل سكان شمال إفريقيا إبان الحروب البونيقية.

كما ننوه إلى اسم آخر عرف به سكان شمال إفريقيا هو **المور**، وقد أطلقه الجغرافيون على الشعوب التي تسكن ما وراء واد ملوية حتى المحيط الأطلسي، غير أن هذا الإسم قد اتخذ عدة مدلولات تبعا لتغير السلطات الحاكمة لشمال إفريقيا، فعند الرومان اتخذ مدلول إداري، أما عند البيزنطيين فقد اتخذ مدلول اجتماعي، وأضحى يطلق على كل جماعات الشعب البربري التي حافظت على أعرافها ونظمها الاجتماعية والسياسية من خليج السرت إلى المحيط"[4].

وفي الأخير يمكننا القول أنّ ما أشير به إلى سكان شمال إفريقيا من أسماء، يندرج ضمن الوصفي، والعنصري، والجغرافي، كما أن هذه المنطقة قد عرفت ظهور العديد من الأسماء التي تنتمي لزمان، ومكان معينين، أي أنها اتخذت الطابع المهني لا العرقي، غير أن استقراءنا لما ورد في المصادر العربية، والأجنبية من أسماء يجعلنا نقف على العديد من الأسئلة التي تحتاج إلى إجابة عليها، فإذا كان المؤرخون الرومان، واليونانيون قديما، والأوروبيون حديثا، قد نعتوا البربر بشتى الأوصاف، وتجنبوا استعمال الاسم اللاتيني، أو

---

[1]– محمد العربي عقون، الأمازيغ عبير التاريخ، مرجع سابق، ص17.

[2]– محمد العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم، ص158. وجميل حمداوي، الحضارة الأمازيغية، ص51/50.

[3]– فتحية فرحاتي، نوميديا من حكم الملك جايا إلى بداية الاحتلال الروماني 213–46 ق.م، منشورات أبيك، الجزائر، دط، 2007، ص21.

[4]– المرجع السابق، ص160/159.

القومي أو الوطني للدلالة على سكان إفريقيا مفهوما، ومبررا، بما أنهم يمثلون الخط السياسي للقوى الاستعمارية، وحتى لا تترسخ فكرة أن الشعب الإفريقي يمثل وحدة حضارية أو عرقية أو سياسية، فإنه من غير المبرر أن يحذوا المؤرخون العرب حذو سلفهم من المؤرخين اليونان، والرومان، فالمعروف عن العرب أن أول ما اهتموا به من العلوم علم الأنساب، ومن العرف أن ينسب الإنسان لأصله أو لقبيلته، فلماذا لم ينسب العرب سكان إفريقيا لأصلهم المشرقي، وهم الذين سعوا جاهدين لإثبات هذا النسب؟ ولماذا سعى العرب جاهدين للترويج لاسم البربر رغم علمهم أن السكان المحليين لا يحبذونه، كما أنه يحمل في طياته أوصافا عنصرية من قبيل الجهل، والتوحش؟

ثم، إذا كان اسم البربر مشتق من البربرة، والتي تعني في المعاجم العربية الكلام غير المفهوم، أو زئير الأسد[1]، وأن أول من أطلقه على السكان افريقش الحميري، فهل من المعقول أن الأمازيغ جاؤوا من اليمن، ولغتهم لا تحتوي كلمة واحدة من لغة الحميريين، مما أثار استغراب إفريقش؟

وصفوة القول، وبناء على المعطيات السابقة، فإن الذي نميل إليه هو أن اسم الأمازيغ هو الإسم اللائق بسكان هذه المنطقة، كما أنه التوصيف الدقيق لهذا الشعب، الذي رفض الخضوع لأي قوة أجنبية، كما أنه يحيلنا إلى قيمة حضارية كبرى هي الحرية، التي لطالما بحث عنها هذا الشعب، عبر نضال طويل، وعسير، وأن معظم الدراسات السابقة قد عجزت عن الإحاطة بتاريخ هذه الأمة، لذلك لجأت إلى التجزيء، والاقتطاع، والإلحاق، وكأن الأمازيغ لا يزيدون عن مادة سالبة، كانت تتشكل، ويعاد تشكيلها بما يقع عليها من غزو الغزاة.

[1]– ابن خلدون، العبر، مرجع سابق، ص116.

المطلب الثاني: تقسيمات البربر

يرى أغلب النسابة العرب أن الأمازيغ ينقسمون إلى جذمين عظيمين هما البرانس، والبتر، حيث يعيش البرانس في الشمال ويمتهنون الزراعة، بينما يعيش البتر حياة البدو، والترحال، غير أن هذا التقسيم الذي أحدثه النسابة العرب لقي اعتراضات شتى، خاصة وأنه يحمل في طياته محاولة إبعاد الوحدة العرقية عن سكان شمال إفريقيا، حيث يشير أحد الباحثين[1]، أن سبب هذا التقسيم كان أيديولوجيا، فالعرب حين وصولهم إلى المغرب، حملوا معهم التقسيم العربي المعروف عندهم (عرب الشمال–مضر–/عرب الجنوب–اليمن–)، وأسقطوه على أهل المنطقة، ولتوظيف هذا التقسيم ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين جعلوا البتر من أصل عربي، بينما البرانس غير ذلك (محاولة الحصول على ولاء البتر أثناء الفتح)، وهو ما يفسر ادعاء بعض القبائل الأمازيغية النسب العربي بعد ذلك، وهو ما نفاه ابن خلدون حين قال: "وأما نسابة البربر فيزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب مثل لواتة، وهوارة، وزناتة، وهذه كلها مزاعم، والحق الذي شهدت به المواطن، والعجمة أنهم بمعزل عن العرب"[2].

وقد بقي هذا التقسيم معتمدا عند العرب، والأجانب إلى يومنا هذا، سواء من طرف المؤرخين العرب أو الأجانب، غير أن المؤرخين الأجانب حاولوا أن يعطوه بعدا آخر، وفقا لما تمليه عليهم ايديولوجياتهم، فالمؤرخون الفرنسيون وعلى رأسهم غوتيه بنوا على ما أقره العرب، وقسموا الأمازيغ إلى قسمين البرانس، والبتر، غير أنهم اعتبروا البرانس أصلاّء في المنطقة (عكس العرب الذي اعتبروا البتر عربا)، وهم ساكنو السواحل ممن تشعبوا بالحضارة الرومانية، والمسيحية، وبالتالي محاولة ربط البرانس بفرنسا خدمة للأهداف الاستعمارية، بينما ذهب المؤرخ الفرنسي الآخر كامب إلى تبني تقسيم آخر نتيجة لما توصل إليه من أبحاث مادية، فقد لاحظ كامب أن مناطق شمال إفريقيا تمتاز بوجود ثلاثة أنواع من الشواهد القبورية التي خلفها الأمازيغ، فشرق البلاد يتميز بالمقابر المعروفة بالحوانيت، وغرب البلاد يتميز بالمقابر ذات الجثوات الكبيرة، أما جنوب البلاد فإنها تتميز بالمصليات ذات

---

[1]– محمد حقي، البربر في الأندلس، مرجع سابق، ص23/22.

[2]– ابن خلدون، العبر، مرجع سابق، ج6، ص97.

الجثوات[1]، وهذا حسبه سبب لاعتبار أن بلاد المغرب قديما، تنقسم إلى ثلاثة أقاليم، وكل إقليم يضم عرقا مختلفا، فبلاد المغرب لم تشكل يوما وحدة عرقية، تكون لها صفة التجانس، والانسجام، كما أنها لم تشهد على مر تاريخها وحدة سياسية، أو ثقافية، وإن عرفت شيئا من الوحدة الجغرافية، وشيئا من الوحدة العرقية، كما تجلت في اللهجات البربرية[2].

وعلى هذا النهج الثلاثي سار ويليام ميرسي، الذي قسم الأمازيغ إلى ثلاث طوائف هي البرانس، والبتر، والملثمون، وأن هذا التقسيم يرجع إلى نوع اللباس الذي تتميز به كل طائفة، فالبرانس يلبسون البرنس؛ ويشتمل على غطاء الرأس، أما البتر فيتركون رؤوسهم عارية أي أن لباسهم أبتر، والملثمون هم قبائل الصحراء، ويجعلون لثاما على وجوههم[3]. غير أن المتأمل لتقسيم المستشرق ويليام مارسي يدرك أن تقسيمه هذا بعيد عن الصواب، فهو يعتمد على ما رآه من اختلاف في اللباس بين سكان المغرب نتيجة اختلاف التضاريس، والفصول، وهو تقسيم يتماشى مع عصر ويليام ميرسي.

غير أن شارل أندري جوليان كان له رأي آخر حول هذا التقسيم، إذ اعتبر أن تقسيم الأمازيغ إلى قسمين، برانس، وبتر، وكل جذم يرجع نسبه إلى شخص معين (البرانس إلى برنس بن بر، والبتر إلى مادغيس الأبتر)، تقسيم أتى من خارج المنطقة، كما أن الحياة القبلية التي تتميز بها قبائل المغرب لا تنم عن نمط محدد لكل قسم "ذلك أن جانبا عظيما من الزيانيين الممثلين التمثيل الحق لفرع البتر، كانوا من دون شك جمّالة... ومن جهة أخرى نجد من بني البرانس صنهاجة سكان الصحراء، وهم أكبر الرحل عظمة"[4].

في مقابل ذلك حاول بعض الباحثين استحداث تقسيم جديد، يعتمد على المجال الجغرافي والامتداد الحيوي للقبائل الأمازيغية، خاصة بعد وصول الفينيقيين، إذ أن شمال إفريقيا قد عرف تغيرا كبيرا في جميع المجالات بعد وصولهم، كما سجل لنا التاريخ استحداث أسماء جديدة للدلالة على شعوب المنطقة، وكان التقسيم كما يلي:

1/ البونيقيون: هم الذين سكنوا قرطاج إضافة إلى الرعايا التابعين لها.

---

[1]– غابرييل كامب، البربر ذاكرة وهوية، مرجع سابق، ص17.

[2]– المرجع نفسه، ص18.

[3]– أحمد صفر، مدنية المغرب العربي في التاريخ، مرجع سابق، ص360.

[4]– شارل أندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، مرجع سابق، ج2، ص28/27.

2/ النوميديون: أطلق على الرعايا غير التابعين للجمهورية البونيقية، وتمتد من حدود الجمهورية البونيقية إلى حدود موريطانيا غربا، وتنقسم إلى قسمين هما: نوميديا الشرقية(ماسيليا)، ونوميديا الغربية (ماسيسيليا).

3/ موريطانيا: تمتد من واد ملوية إلى المحيط الأطلسي.

4/ الجيتوليون: يطلق على قبائل الجيتول التي تسكن جنوب الصحراء، وتعيش حياة البداوة والترحال[1].

غير أن أول ملاحظة تتأتى لنا من هذا التقسيم أنه سياسي بالدرجة الأولى، ولا اعتبار له للحكم على تقسيمات الأمازيغ، خاصة وأنّ أرض المغرب قد عرفت عديد الحملات الاستعمارية، التي أحدثت تغيرات إدارية، وحكومية كثيرة، ومتنوعة، تتماشى مع تنوع الإدارات الاستعمارية المختلفة.

غير أنه في ظل كل تلك المؤشرات السابقة؛ نستطيع القول أنّ الأمازيغ ينقسمون إلى طبقتين اجتماعيتين لا عرقيتين هما: **الموريطانيون** الذين سكنوا السواحل وامتزجوا مع كل الوافدين إلى شمال إفريقيا، وأخذوا عنهم عاداتهم، وتقاليدهم، وحتى دياناتهم، و**النوميديون** الذين سكنوا البوادي، والأرياف، وبقوا محافظين على عاداتهم، وتقاليدهم الخاصة[2].

وفي الأخير نخلص إلى أن هذه التقسيمات –رغم أهميتها–، إلا أنها تتطلب منا إعادة النظر فيها، فهي صادرة من خارج دائرة شعب الأمازيغ، كما أنها جاءت استجابة لتوجهات أيديولوجية لكل طرف، وعليه يمكن إجمال تلك التقسيمات أنها كانت كالآتي:

1/ تقسيم عرقي: وهو الذي انتهجه العرب.

2/ تقسيم موضعي: الذي يقوم على معياري اللغة، والموطن، وقد اعتمده ابن خلدون في تصنيفه للأمازيغ.

3/ تقسيم مادي: يقوم على ما خلفه الأمازيغ من تراث مادي (اللباس والشواهد القبورية).

4/ تقسيم سياسي: يرجع لتعاقب الإدارات المختلفة على شمال إفريقيا.

---

[1]– أحمد صفر، مدنية المغرب العربي في التاريخ، مرجع سابق، ص174.

[2]– جورجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، دار مكتبة الحياة، بيروت، دط، دت، ج2، ص531/530.

المبحث الثالث: ميلاد المجتمع الجزائري* وظروف تشكله

قلنا فيما سبق أن أرض المغرب لم تكن يوما خارج دائرة الحضارة القديمة، بل إن توسطها العالم القديم جعلها تعايش نهوض وأفول العديد من الحضارات، إذ يشير عبد الكريم غلاب نقلا عن ماتيو طرادبل أن حوض المتوسط الجنوبي قد عرف الحضارة منذ فجر التاريخ[1]، "فما هو أكيد هو أن أرض الجزائر قد عرفت حضارة قديمة، وذلك قبل الفينيقيين، إذ لم يعش البربر في عالم معزول، فقد كانوا على اتصال ببلدان عديدة: إسبانيا، وإيطاليا، والنوبة، والحبشة، والبرهنة على ذلك ممكنة ببعض الدلائل: اللغات التي تنتمي إلى نفس عائلة اللغة البربرية، والأنواع البشرية المتماثلة التي توجد، خاصة على طول البحر المتوسط، وتشابه بعض الأدوات الحجرية، وبعض الفخاريات"[2]، ولأن قانون قيام وسقوط الحضارات مرتبط بحركة الإنسان في الزمن الذي عايشه، فإن حركة الانسان القديم وبحثه الدائم عن أماكن ملائمة لاستقراره، جعلت من أرض المغرب موطئ العديد من الهجرات البشرية التي عجلّت بظهور المدنيات في شمال إفريقيا، "إن تاريخ الجزائر يعود إلى أكثر من خمسة وعشرين قرنا"[3]وهو تاريخ ظهور المدنية داخل هذا القطر الجغرافي، والتي كانت مقرونة غالبا بظهور نظام اجتماعي ظاهر للعيان، وعليه فإن أرض المغرب قد عرفت نظاما اجتماعيا مواكبا لما مرت به المنطقة، إذ تشير بعض الأبحاث أن الأمازيغ قد عرفوا نظاما اجتماعيا لا يختلف كثيرا عن النظم الاجتماعية للشعوب الأخرى، "فمنذ العصر الحجري الجديد، كانت توجد قرى حقيقية، لابد، وأن سكانها كانوا يكوّنون مجتمعات متميزة"[4].

---

*: المجتمع الذي نقصده هنا هو مجموعة أفراد تربط بينهم عدة روابط اجتماعية (الدم، المصاهرة، البيئة...) من خلال العادات والتقاليد، نتيجة الاحتكاك اليومي بالبيئة الطبيعية والاجتماعية، وتهدف إلى تحقيق الانسجام والوفاق بين هذه المجموعة.

[1]– عبد الكريم غلاب، مرجع سابق، ج1، ص99.

[2]– محفوظ قداش، الجزائر في العصور القديمة، ترجمة: صالح عباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1993، ص33.

[3]– مولود قاسم نايت بلقاسم، ردود الفعل الدولية، مرجع سابق، ص159.

[4]– استفان قزال، تاريخ شمال افريقيا القديم، ترجمة، محمد التارزي مسعود، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، دط، 2007، ج1، ص203.

المطلب الأول: المجتمع الأمازيغي القديم

يعتبر النظام القبلي هو الحجر الأساس لأي مجتمع، وقد عرف هذا النظام في إفريقيا الشمالية منذ القدم، ففي علاقة الانسان مع بيئته الاجتماعية أخذت تتشكل ملامح المجتمع المنظم، الذي تتحدد فيه الواجبات التي يقوم بها كل فرد، ووفق هذه التراكمات تتشكل ملامح المجتمع الذي تسوده القوانين.

يسجل لنا التاريخ أن أول أنماط الاجتماع الأمازيغي كانت العائلة، وأن الأمازيغ قد عرفوا نظاما أسريا صارما تكون فيه السلطة المنزلية بيد الرجل، لذلك كانت أنسابهم تابعة لآبائهم لا لأمهاتهم، "أما نظام الأسرة الداخلي فيرجع للأم، فهي ربة البيت، وصاحبة النفوذ به محترمة الجانب مسموعة الكلمة، وكثيرا ما تنتسب القبيلة إلى امرأة، وهذه زناتة تشهد بذلك"[1]،لذلك أشار هيرودوت إلى أن نظام الأمومة كان له وجود داخل المجتمع الأمازيغي، بحيث ينسب الأبناء لأمهم دون الاعتراف بوجود الأب، "ويصبح الأولاد بذلك تابعين لخالهم في الميراث"[2]، ولعل بعض الممارسات التي نراها اليوم عند الطوارق هي ترجمة لتلك الانتماءات اليوم، حيث تنتشر داخل الأوساط الشعبية مجموعة من الأغاني تتغنى بالأم دون الأب كقولهم: "أنا التارقي ابن التارقية"، وفي هذا إشارة واضحة إلى سريان هذا النوع من النظام الاجتماعي لدى البربر.

وفي ضوء ذلك يخبرنا التاريخ أن المرأة الأمازيغية كانت تحظى باحترام شديد داخل النظام القبلي الأمازيغي، إذ مارست المرأة وظائف كانت حكرا على الرجل مثل القيادة، والمشاركة العسكرية، والسياسية، كما أن المصادر التاريخية احتفظت لنا بأسماء العديد من النساء اللواتي خلّد التاريخ ذكرهن كـ سيرنا أخت المقاوم فيرموس من القرن الرابع الميلادي، التي شاركت أخاها في أعماله الحربية ضد الاحتلال الروماني، ووالدة يغمراسن التي ذهبت بنفسها إلى ميدان المعركة لحضور الإمضاء على اتفاقية بين القبائل الأمازيعية، والأميرة التارقية تين هينان، "التي يستند إليها الطوارق في تنظيمهم الاجتماعي، الذي يستمد السلطة حتى الآن من حكم المرأة"[3]، أما أشهرهن على الإطلاق فهي الكاهنة، الملكة التي قادت

---

[1]– عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج1، ص57.

[2]– مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مرجع سابق، ج1، ص117/116.

[3]–أكناته ولد النقرة، الطوارق من الهوية إلى القضية، طوب بريس، الرباط، دط، 2014، ص53.

الحرب دفاعا عن مملكتها غداة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب[1]، وقد استمر هذا التقليد حتى العصر الحديث، فنجد أن لالة فاطمة نسومر قد قادت معركة الدفاع عن الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي بجبال جرجرة.

ثم تطور النظام الاجتماعي الأمازيغي –تحت ضغط متطلبات التنقل بالنسبة للرحل، ومتطلبات الزراعة بالنسبة لأهل المدن والقرى– إلى تكوين تجمعات أوسع من العائلة، "إذ أن مقتضيات، وضرورات الحياة البدوية، والفلاحية، والشعور بالحاجة إلى السلامة، والطمأنينة، هو الذي دعا إلى تكوين كتل بشرية أكبر، وأوسع، وأقوى من العائلة"[2]، وبهذا تشكلت القرى الصغيرة(هدفها حماية الأرض ومواقع الرعي)، وصار نظامها السياسي يخضع "لسلطة مجلس شيوخ يسيرها وفق قوانين عرفية"[3]، إذ تشير المصادر التاريخية أن الحياة القروية هي أول شكل من أشكال التجمع السكاني، ويرجعها بعض الأثريون إلى أواخر النيوليتي، وفجر التاريخ" والغالب على الظن أن الممالك البربرية تكونت على هذا النحو قبل الدول التي يربط تاريخه بتاريخ قرطاج وروما"[4].

ثم تطورت هذه القرى إلى أن شكلت جمهوريات صغيرة تخضع لسلطة جماعية[5]، تعرف بالمدن، ويعود تأسيسها إلى ما قبل وصول البحارة الفينيقيين، لكن يحدث أن تتطور هذه المدن، لتنتقل إلى مرحلة المملكة (فيدرالية)، حين يستطيع أحد القادة أن يجمع مجموعة من القبائل تحت سلطانه، عن طريق الأحلاف، والمعاهدات، ويقوم هذا القائد (الاقليد) برعاية شؤون القبيلة السياسية، والمالية (موريطانيا، ماسيليا، ماسيسيليا...)، وقد كانت حركة القبائل بمثابة أداة للدمج الاجتماعي، وهو الوضع الذي كان قائما منذ البدايات الأولى لتكون مجتمع الشمال الأفريقي.

وخلاصة القول أنّ الحاجة للأمن، والطمأنينة، هي التي جعلت القبائل تتحد، وتشكل فيدراليات تحت سلطة ملك ذو حظوة، وشأن، إذ تدرج المجتمع المغربي القديم في تنظيم حياة

---

[1]– محمد العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم، مرجع سابق، ص174.

[2]– أحمد صفر، مدنية المغرب العربي، مرجع سابق، ص65.

[3]– شارل أندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، ج1، ص67.

[4]– المرجع نفسه، ص 69.

[5]– عبد الله شريط، الجزائر في مرآة التاريخ، مرجع سابق، ص15.

أبنائه، وتطويرها، بالانتقال من شكل الأسرة إلى صورة أوسع، حتى اكتمل التنظيم الاجتماعي، وصار "المواطنون المغاربة على جانب من الحضارة المادية والفكرية"[1]، كما أصبحت له عادات خاصة به، وله لغته البربرية المتميزة بذاتها، وديانته التي احتفظ بها إلى غاية الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، لقد كان دخول الشمال الافريقي الفترة التاريخية "مواكبا لتطور اجتماعي (نظام اجتماعي يقوم على الأسرة والقبيلة)، وعقائدي (مقابر الدولمانوالبازينا)، واقتصادي (الزراعة منذ نهاية النيولثي)، وفني (الرسوم الصخرية في جبال الطاسيلي والأطلس)"[2]، أما اذا تساءلنا عن فاعلية المؤسسات التي كانت تسوس المدنية* البربرية في تلك العهود "أمكننا القول أن المجتمع البربري كان فعلا يتوفر على هياكل تأطيرية، كانت حاجة الانسان البربري تقتضيها"[3].

[1]– عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المعرب العربي، مرجع سابق، ج1، ص152.

[2]– محمد العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي، مرجع سابق، ص167.

*: نقصد بالمدنية هنا جملة التقاليد والعادات والطبائع والنظم، وتكون ثابتة في جميع أوقات التاريخ، سواء صافية نقية خالصة، أو مزيفة مشوهة، وذلك بقطع النظر عن صروف الدهر وتقلبات الأحوال، وهي المظاهر المستمرة لعقلية ثابتة تجاه المشاكل الدينية أو السياسية.

[3]– عشراتي سليمان، الشخصية الجزائرية، مرجع سابق، ص24.

المطلب الثاني: المراحل التاريخية لتطور النظام الاجتماعي الأمازيغي

من المؤكد أنه قبل وصول الفينيقيين إلى شمال إفريقيا، كان سكان المغرب الكبير يتكونون تقريبا من ريفيين، ورحل، وقد ظلوا على تلك الحال عبر قرون من التاريخ، لكنه، ومنذ مطلع القرن الثامن قبل الميلاد؛ وتزامنا مع وصول الفينيقيين، بدأت أرض المغرب تعرف تغيرات اجتماعية كبيرة، خاصة على مستوى سياسة التمدن، لذلك يعتبر النظام الاجتماعي الأمازيغي القديم صورة لما مر على المنطقة من اجتياحات، وحضارات، رغم أنه احتفظ في كثير من الأحيان بخصوصياته خاصة بالمناطق التي لم تصلها أذرع هذه الحضارات.

الفرع الأول: النظام الاجتماعي في العصر القديم

يقول محمد الهادي حارش أنه عند تأسيس قرطاجة سنة 814 ق.م، ظلت تدفع ضريبة سنوية للمغاربة طوال ثلاثة قرون[1]، وهذا إن دل على شيء؛ إنما يدل على وجود نظام حكم قديم، يتولى جمع الضرائب، ثم يقوم بإنفاقها، وهو ما يفند ما أورده المؤرخون بأن بلاد البربر لم تعرف النظام الملكي إلا في وقت متأخر، أي بعد وصول الفينيقيين، ثم إن بوزياني الدراجي أشار إلى نقطة مهمة حين استعرض تاريخ المغرب القديم، بين القرنين 14-12 ق.م بحيث تورد المصادر التاريخية نصوصا عن اشتباك البربر بقيادة **معاريو** مع الجيش المصري بقيادة **ميونبتاخ** سنة 1220 ق.م، "ففي هذا العصر المصيري لم تكن البلاد المغربية غائبة، أو مهملة، بل كانت تشارك في الأحداث التاريخية إلى جانب أبرز الشعوب آنئذ، مثل الشعب المصري، والشعب اليوناني، والشعب اللاتيني، وشعوب أخرى في بلاد الرافدين وسوريا... ويبدو أن هذه الحركة الكبرى لشعوب البحر، قد سمحت لسكان بلاد المغرب بالانغماس في ذلك التيار الدولي المتنامي، والاختلاط مع شعوبه، والتأثر بهم أو التأثير فيهم"[2].

إذًا؛ ووفق تلك الرؤية السابقة نستطيع القول أنّ الأمازيغ قد عرفوا نظام حكم قديم، سواء أكان قبليا أو ملكيا أو كونفدراليا، وما عرف من تطور لتلك الأنظمة، هو من قبيل المحاكاتية التي كانت للبربر مع شعوب أخرى قدمت واستوطنت المنطقة، إذ يشير محمد

---

[1]- محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم، مرجع سابق، ص97.

[2]- بودراجي الزياني، القبائل الأمازيغية، مرجع سابق، ص19.

علي دبوز إلى أن سبب تطور الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للبربر، ناتج بالدرجة الأولى بسبب التواجد الفينيقي في المنطقة.

يشير عبد الكريم غلاب أن مدنية المغرب القديم مرت بثلاث مراحل كغيرها من المدنيات الأخرى، بدءً بالأطوار البدائية في العيش، التي تعتمد القنص، والصيد، مرورا بطور الزراعة والغرس وتربية الحيوانات، وما ترتب عنها من استقرار الإنسان في حيز جغرافي وارتباطه به، والدفاع عنه ضد كل غازي، لتصل أخيرا إلى المرحلة الثالثة، والتي تزامنت مع وصول الفينيقيين، الذين عرف معهم البربر تأسيس المدن، وبناء المنازل، لتمثل بعد ذلك صورة الحضارة المغربية على طول الساحل[1].

لقد كانت العلاقات بين البربر والفينيقيين تعاونية بامتياز، فالتوجه التجاري للفينيقيين يستلزم التعاون والابتعاد عن التصادم والحروب، وقد استفاد البربر كثيرا من هذا التوجه السلمي للفينيقيين، خاصة في مجال العمران، والتجارة، وقد امتد تعاون البربر، والفينيقيين حتى وصل حد الزواج، والمصاهرة، وكان من انعكاس هذا التعاون أن البربر تأثروا بالنظام الاجتماعي الفينيقي، مما أحدث تغيرات كبيرة على السكان، سواء من حيث اللغة، والدين أو من ناحية نمط المعيشة، فمن ناحية اللغة انتشرت البونيقية بين السكان، وأصبحت لغة التجارة، والتعلم عند البربر، بل أصبحت في بعض الأحيان لغة الخطاب بين أفراد العائلة في كثير من المناطق، خاصة المتاخمة لفينيقيا، أما من ناحية المعتقدات، فقد انتشرت عبادة آلهة الفينيقيين بين البربر، فقد أشارت المصادر التاريخية أن عبادة الاله **بعل وتانيت**(وهي آلهة الفينيقيين القديمة) قد انتشرت بشكل كبير بين سكان شمال إفريقيا، بعد أن كان البربر يتخذون كغيرهم من الأمم الظواهر الطبيعية، والحيوانات آلهة، كما انتشرت ثقافة بناء المعابد، واتخاذها دورا للعبادة، بعد أن كانت تقتصر على عبادة الحيوانات، والمظاهر الطبيعية الحسية.

وعلى النقيض من ذلك؛ يرى بعض الباحثين[2] أن كيان الدولة الجزائرية قد ظهر منذ القرن الثالث قبل الميلاد؛ أي بعد تبلور الحس المدني عند البربر، وذلك على إثر محاولات

---

[1]– عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب، مرجع سابق، ص101/100.

[2]– عبد الله شريط، الجزائر في مرآة التاريخ، ص20. وأحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ص47، أحمد صفر، مدنية المغرب، ص178، غابرييل كامب، ماسينيسا، ص19.

توحيد نوميديا[1]، حيث التف البربر حول زعيم بربري واحد هو **سيفاكس**، والذي عمل على تحقيق هذا الهدف، مستغلا انشغال قرطاجة بالحروب البونيقية، ودعم الرومان له، ويدل ظهور العملة مسكوكة باسمه في أواخر القرن الثالث[2] على أولى بوادر هذا العمل، إذ أن العملة هي واحدة من مقومات قيام الدول، وهو ما يؤكد صحة هذا التوجه، غير أن قرطاجة عرفت كيف تحتوي رغبته هذه، وتحصل على حلفه عن طريق المصاهرة، وأن تسمح له بضم مملكة مصيليا، غير أن هذا الحلف لم يدم طويلا بسبب رغبة ماسينيسا ملك ماصيليا، الذي عمل على توحيد نوميديا اعتمادا على:

1/ تحويل السخط الشعبي ضد قرطاجنة على حركة مسلحة يتولى هو قيادتها.

2/ الاعتماد على الرومان كحليف له في حربه ضد قرطاجنة (استغلال العداء التاريخي بين الرومان وقرطاج).

3/ استغلال الحس المدني لدى النوميديين، ورغبتهم في الوحدة، وبناء مملكة بربرية قوية[3].

وقد تحقق لماسينيسا ما أراد منذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، على إثر سقوط قرطاجة سنة 146 ق.م، إذ أصبح بمقدوره توحيد المملكتين، وصار ملكه يمتد من "أقصي خليج السرت الكبير إلى حدود موريطانية، وبذلك تأسست أول مملكة أمازيعية مستقلة، لها حاكمها الخاص، وحدودها الخاصة"[4].

لقد قام ماسينيسا بعمل جبار لتوطين البربر، فهو الذي رفع "شعار إفريقيا للإفريقيين"، فمعه أصبح "النوميد اجتماعيين، أي مدّنهم، وجعل منهم فلاحين"[5]، حيث عرفت الزراعة في

---

[1]–وهي المنطقة الواقعة بين نهر ملوية غربا، وبين المناطق التي كان يحتلها الفينيقيون شرقا، تتكون من مملكتين كبيرتين هما: **ماصيصيليا** غربا (تمتد من وادي ملوية غربا إلى واد الرمال شرقا بقسنطينة)، ويحكما سيفاكس، ومملكة **ماصيليا** شرقا وهي المحاذية لمناطق نفوذ القرطاجيين وكانت تحت حكم غولة ومن بعده ماسينيسا. ينظر: فتيحة فرحاتي، نوميديا، منشورات أبيك، مطبعة متيجة، الجزائر، دط، 2007.

[2]– عبد الله شريط، الجزائر في مرآة التاريخ، مرجع سابق، ص20.

[3]– المرجع نفسه، ص 29/20.

[4]– أحمد صفر، مدنية المغرب العربي في التاريخ، مرجع سابق، ص178. ومولود قاسم، شخصية الجزائر، ج1/ص 44.

[5]– غابرييل كامب، ماسينيسا أو بدايات التاريخ، مرجع سابق، ص19.

عهده تطورا كبيرا، كما حمل البربر على الزراعة، والاستقرار فوق أراضيهم، حتى "أصبحوا يجودون على العالم الروماني بالغذاء"[1]، كما قام أيضا بصك العملة، وجمع الضرائب، وإنشاء الجيش لحماية المملكة النوميدية من بقايا البونيقيين، والرومان، والبدو الرحل القادمين من الجنوب[2].

ولعل أكبر إنجاز حققه ماسينيسا هو اختراعه لـ "ألفباء ليبية"[3]، أو هو ما اصطلح عليه اللغة البونيقية، كي يتخذها البربر وسيلة للتواصل، والتعليم، "فإلى هذا الملك البربري يعود الفضل في اختراع لغة ليبية على نمط الحروف الهجائية الفينيقية، حيث عمل على تركيب الجهاز الأبجدي البونيقي على الرموز الصوتية القديمة التي كانت مستعملة عند الفينيقيين"[4]، وهو العمل الذي بقي خالدا، ومسجلا، حيث تشير الأبحاث أن الألفباء الليبية ظلت "حية في تيفيناغ الطوارق"[5]

أما على المستوى الإداري فقد أراد ماسينيسا أن يعزز شعور الاحترام، والهيبة نحو السلطة المركزية المتمثلة في شخص الملك، حيث تشير المصادر التاريخية أنه قد ساد في تلك الفترة نظام ملك وراثي، تعود فيه الملكية للعائلة، وتنتقل من الأب إلى الأبناء[6]. وحتى تكتمل سلطته على المنطقة، فقد عمل ماسينيسا على تعيين وزراء، ومستشارين على المناطق التابعة لمملكته، عن طريق ربط علاقات شخصية بينه، وبين رؤساء القبائل، وتوزيع الأراضي على رجال هذه القبائل، وبهذا استطاع ماسينيسا القضاء على الاعتبارات القبلية الضيقة لدى رؤساء القبائل، وكذا خلق الشعور بالوعي، ومصلحة الدولة فوق كل اعتبار.

ولأن طول عمر الدولة واستمراريتها مرهون بقوة جيشها، فقد عمل ماسينيسا على تكوين جيش قوي لحماية مملكته، واستطاع أن يمده بالعتاد اللازم، كما استطاع تكوين

---

[1]– أحمد صفر، مدنية المغرب العربي في التاريخ، مرجع سابق، ص333.

[2]– نفسه، ص181/179.

[3]–عابرييل كامب، ماسينيسا أو بدايات التاريخ، مرجع سابق، ص20.

[4]– عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج1، ص84.

[5]– المرجع السابق، ص20.

[6]– محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم، مرجع سابق، 105/104.

أسطول بحري متكامل، قياسا على ما كان يتمتع به الرومان، والفينيقيين من القوة البرية، والبحرية، حيث كانت وحدات الجيش تتكون من:

1/ الجيش الدائم: يتكون من الحرس الملكي، وحاميات في مختلف المواقع، مهمته الدفاع عن المملكة أو الهجوم والحصار في حالة الحرب.

2/ وحدات الاحتياط: تجند عند اندلاع الحرب، وتسرح بمجرد انتهائها.

3/ المرتزقة: استخدموا في حالة الحرب.

4/ البحرية: كان دورها تجاريا أكثر منه حربيا[1].

إن الملاحظ حول جيش ماسينيسا أنه كان جيشا عصريا بامتياز، ولا يختلف عن جيش روما كثيرا، وبذلك يعتبر عصره هو التأسيس الفعلي لمدنية المجتمع الجزائري، أما عن سبب دخول البربر في النظام المدني، فإن محمد علي دبوز يرجعه إلى:

1/ التأثير القرطاجي على السكان، واقتباس الأنظمة منهم.

2/ الخطر الذي صار يحدق بالبربر، مع تنامي الأطماع التوسعية لقرطاجة، وكذا روما.

3/ تطور الحياة الاجتماعية للبربر[2].

أما على الصعيد الديني فإن تشبع ماسينيسا بالقيم الفينيقية جعله يقبل على عبادة آلهة الفينيقيين رغم عدائه لهم، فإليه يرجع الفضل في عبادة هذه الآلهة، بل اتجه البربر لتقديس الملوك، والبشر، وهو الأمر الذي جعلهم يقبلون على بناء دور العبادة، فبعد موت ماسينيسا "بعشر سنين أقيم له معبد بدوقة"،[3] وصار معبدا للسكان، وبذلك يمكننا القول أنّ وحدة الجزائر "قد تحققت من العاصمة حتى حوالي تمنغست منذ ما قبل ميلاد المسيح بأكثر من قرن وربما بقرون"[4].

وقد استمر البربر على هذا النظام الاجتماعي حتى وصول الرومان (146 ق.م/431 ق.م)، وهنا عرفت المدنية البربرية تغيرا كبيرا خصوصا على مستوى الزراعة، والعمران، وطبيعة التمدن، "إذ أن البلاد الإفريقية في هذا العصر (الروماني) كانت على

---

[1]– ينظر: محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم، مرجع سابق، ص114/113.

[2]– ينظر: محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، مرجع سابق، ج1، ص74.

[3]– أحمد صفر، مدنية المغرب العربي في التاريخ، مرجع سابق، ص181.

[4]– مولود قاسم نايت بلقاسم، ردود الفعل الدولية، مرجع سابق، ص176.

وضع يعد متطورا من حيث التمدن، والحضارة بالقياس على لما سبقه من الأطوار، اعتبارا لما تأتى للبلاد الإفريقية من فرص التفتح على الآخرين، والتعامل المتنوع في شتى ميادين الحياة العسكرية، والسياسية، والاقتصادية، وهو ما أعطى للمنسوب التعميري، والاجتماعي لهذه البلاد مستوى من التقدم، والمدنية، الأمر الذي جعل إفريقيا تغدو أحد عناصر تنشيط التاريخ العالمي القديم"[1]، إذ أدخل الرومان تعديلات كبيرة على الزراعة، وقاموا بتحديثها، فانتعشت زراعة الحبوب، والكروم، واتسع نطاق التجارة، ولدفع حركة الاقتصاد الإفريقي، سعى الرومان لتوسيع العمارة حتى بلغت نحو "الستين مستعمرة ما بين قرى وحصون"[2]، وقد صاحب هذا التطور الاقتصادي تطورا على مستوى السكان، إذ ارتفع عدد السكان نتيجة هجرة الإيطاليين إلى شمال إفريقيا، إذ أصبح يبلغ "عدد سكان البلدة الواحدة ما بين عشرة آلاف نفس إلى نيّف وثلاثين ألفا"[3]، كما عكف الرومان على نشر الثقافة الرومانية داخل المستعمرات الإفريقية، عن طريق فرض التعليم باللغة اللاتينية وإنشاء المدارس لهذا الغرض "لقد كانت العلوم تدرس بمدينة مادور[4]وحدرموت[5]، وسيرتا، وحتى داخل نوميديا، وكانت الدراسة فيها باللاتينية مركبة على البونيقية التي مكثت حية إلى هذه الآونة... وكلها استعملها الرومان في نشر لغتهم، كما فعلوا كذلك بالمحاكم، والمسارح... وبذلك تيسر لأبناء البلاد إتقان لغة الدولة الحاكمة مع المحافظة التامة على لغتهم"[6]، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن وصول الرومان إلى شمال إفريقيا قد أحدث نقلة نوعية على الحياة الاقتصادية، والاجتماعية للسكان، غير أن أكبر تغيّر عرفه المجتمع الأمازيغي القديم هو نشوء الطبقية التي ميزت النظام الاجتماعي الروماني القديم، إذ نقل الرومان حياتهم الاجتماعية إلى مستعمراتهم، وعملوا على توظيف نظام الطبقية بين السكان، وبذلك أصبح النظام الاجتماعي الجزائري ينقسم إلى:

---

[1]– عشراتي سليمان، الشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص24.

[2]– عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج1، ص105.

[3]– المرجع نفسه، ص105.

[4]–مادور: أو مداوروش وهي إحدى بلديات سوق أهراس الجزائرية حاليا.

[5]–حدرموت: أو حضرموت تقع موقع سوسة التونسية اليوم.

[6]– المرجع نفسه، ص104.

1/ الرومان: تشير أغلب المصادر التاريخية أن عدد الجنود الرومان الذين سكنوا إفريقيا قد بلغ ثمانين ألف جنديا، يقومون على حماية مصالح روما في المغرب الكبير، وكان هؤلاء الجنود يأتون على رأس الهرم الاجتماعي في إفريقيا ويحضون بامتيازات كبرى، نظير خدمتهم للإمبراطورية.

2/ الجالية الرومانية: قدمت إلى إفريقيا وحازت الأراضي والإقطاعات بعد افتكاكها من أهلها، تميزت هذه الفئة بالثراء، وعملت على تأمين امتيازاتها عن طريق دعم حكومة روما، يسكنون المدن، ويخضعون لسلطة حاكم روماني، وقوانين رومانية، أي تمتع بحقوق المواطنة الكاملة.

3/ الأجانب: وهم عامة الشعب من البربر، ولا اعتبار لهم أمام القانون، يخضعون لسلطة حاكم بربري معين وتحت الوصاية الرومانية، وهم على نوعين:

أ/ البربر الذين خضعوا لسيطرة الرومان؛ وقد كانوا في أغلب الأحيان عبيدا يخدمون القادة الرومان مقابل لقمة العيش، واجبروا على العمل في أراضي المعمرين، ويدفعون الضرائب لصالح الحكومة الرومانية.

ب/ البربر الذين لم يخضعوا لسيطرة الرومان؛ فقد بقوا محافظين على حريتهم، وسكنوا الجبال، يعيشون حالة الكر، والفر مع السلطة الرومانية في الجزائر[1].

لقد حاول الجزائريون أن يتعايشوا مع الإدارات الرومانية المتعاقبة على شمال إفريقيا، سواء عن طريق الذوبان داخل مظاهر الحضارة حينا أو الحرب عليها حينا آخر، غير أن الذي يؤسف له هو عدم انتفاع الأهالي واستثمارهم كما يجب لكامل هذه الحضارة الرومانية، بل كثيرا ما عمدوا إلى إتلاف منتجاتها، خصوصا العمرانية منها، ولعل الطابع الاستعماري للرومان، وترفعهم، واحتقارهم للشعب الأمازيغي كان له الأثر السيء في نفوس الشعب، الأمر الذي جعلهم يتوقون للثورة والتحرر، الأمر الذي حصل عليه البربر سنة 431م، تزامنا مع وصول الوندال، أو الفاندال إلى شمال إفريقيا، ليشهد معها البربر فصولا أخرى من المعاناة، وذلك "نظرا لما كان عليه الفاندال من البعد عن مسايرة المدنية والحضارة"[2]، إذ تشير المصادر التاريخية أن الأمازيغ لم يستفيدوا من الوندال حضاريا قد، إلا ما كان من

---

[1]– ينظر: مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مرجع سابق، ج1، ص280/255.

[2]– عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ص123.

الحرية القبلية التي نالوها، جراء اكتفاء الوندال بما حصّلوه من مخلفات الإمبراطورية الرومانية، وما كاد يمر القرن الأول على وجود الوندال حتى داهم الروم البيزنطيون المنطقة سنة 534م، وصارت تابعة لهم، وتعيث فيها فسادا، إذ وجد الأمازيغ أنفسهم أمام استعمار جديد، لم تختلف سياسته عن سياسات سابقيه، فقد عومل البربر على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية، وكأنهم عبيد مرغمون على الطاعة، ودفع الضرائب، ليندلع الصراع، ويدب النزاع، فما تكاد تخمد ثورة حتى تقوم أخرى إلى أن سقطت الدولة على يد المسلمين سنة 675م.

لقد استمرت التركيبة البشرية للسكان خلال فترات تواجد الوندال، والبيزنطيين على ما كانت عليه خلال تواجد الرومان، إذ بقي الروم البيزنطيون يحتلون أعلى الهرم الاجتماعي، ويحوزون الأرض، ولا يخضعون للضرائب، كما يتمتعون بكامل حقوق الملكية، ثم يليهم الأفارقة؛ وهم مزيج بين المستعمرين السابقين، والجنود المجندين في صفوف الرومان، يحافظون على مكانتهم، وامتيازاتهم داخل الدولة نتيجة الخدمات التي أسدوها لبقاء سلطة الرومان في الجزائر، أما في أسفل الهرم الاجتماعي فنجد الأمازيغ، أو السكان الأصليون، ومنهم يتكون عامة الشعب، يعيشون في الجبال، والمناطق البعيدة عن نفوذ الدولة، وينقسمون إلى حضر وبدو رحل، بحيث ربط سكان الحضر علاقات مع حكومات الدول التي مرت على المنطقة، حتى أصبحوا على درجة من التحضر، أما البدو الرحل فمهمتهم الرعي، والارتحال بحثا عن الكلأ[1].

الفرع الثاني: النظام الاجتماعي في العصر الوسيط

لقد كانت أوضاع البربر غداة الفتح الإسلامي توحي أنهم تابعون لغيرهم، وأن صيرورة الفتح ستنتهي كما كان الحال مع الغزوات السابقة، غير أن "البربرية لم تكن في عهد الفتح خاضعة لدولة واحدة، بل كان هناك إلى جانب إمارة الكاهنة إمارات بربرية أخرى مستقلة بشؤونها وفق الحماية، أو الوصاية الرومانية المضروب على الأوطان في ضفاف المتوسطي"[2]، وهذا ما يفسر طول مدة الفتح العربي للمنطقة الذي استمر لـ 70 سنة، وكذا

---

[1]– ينظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ص144/122. ومبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مرجع سابق، ص378/330.

[2]– عشراتي سليمان، الشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص52.

سرعة استقلال المغرب عن عاصمة الخلافة الإسلامية، غير أن ما يهمنا في بحثنا ليس سيرورة الفتح، ومآلاته، بل التغير الاجتماعي الكبير الذي حدث داخل التركيبة البشرية الأمازيغية منذ الفتح إلى يومنا هذا، فمنذ الالتحام العربي البربري الأول سنة 27هـ، ظهرت ملامح مجتمع جديد يسود المنطقة، بسبب العقلية الاستيطانية للعرب من جهة، والهجرة البشرية الكبيرة التي صاحبت عملية الفتح من جهة أخرى، إذ تعرض المغرب لهجرة مشرقية كبرى، محكومة بصعوبة الفتح تارة، وعدم استقرار الأوضاع في المغرب تارة أخرى، وهو ما أحدث أول تغير على مستوى الساكنة نتيجة استقرار العنصر العربي في المنطقة، وانتشار التعريب الذي لازم انتشار الدين الجديد.

إن التاريخ العميق للمغرب الأوسط يتعلق بوجه خاص بتأثير الإسلام الحاسم في المنظومة الاجتماعية للسكان، فهو الذي طبع بلاد البربر باستمرار بطابع الإسلام، وعرّبها تدريجيا حتى صار ذا شخصية مشرقية لا جدال فيها[1]، وهو ما جعل البعض[2] يعتبره العامل الرئيسي لتجلي مقومات الأمة الجزائرية، فمنذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، عرفت الجزائر الوحدة الثقافية، واللغوية، والقيم الروحية، بالتالي استطاعت ضبط شؤونها الاقتصادية، والاجتماعية التي تعبر عن استقلالها وتفردها!!!

غير أن الحدثين البارزين اللذين كان لهما الأثر الكبير على المنظومة البشرية الأمازيغية كانا في مطلع القرن الخامس، وفي أواسط القرن السادس الهجريين، "حين عرفت الجزائر قيام كيان سياسي، وحضاري، عدّ أول تجسيد محلي للدولة الجزائرية بخصوصياتها الإسلامية البربرية"[3]، إذ أن قيام هذا الكيان له دلالته من الناحية الروحية والمعنوية.

فالروح البربرية التي كانت تحتكم إليها أعراف الأمازيغ ردحا من الزمن، ضبطت عن طريق الإسلام، وأن ما قام من دول في بلاد المغرب استمر محكوما بالعامل الروحي عهودا طويلة، وهذا التأثير الكبير الذي نلمسه من الإسلام الذي جعل التشكيلات السياسية

---

[1]– ينظر: شارل أجبرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة، عيسى عصفور، منشورات عويدات، بيروت–باريس، ط1ن 1982، ص10.

[2]– مولود قاسم، شخصية الجزائر، مرجع سابق، ص45.

[3]– عشراتي سليمان، الشخصية الجزائرية–بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدولة الحمادية–، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2002، ج2، ص45.

الإسلامية التي راوحت على بلاد المغرب من زمن الفتح تقوم على أحادية الدين، والمذهبية لا العصبية الإثنية[1].

أما العامل الثاني فيتمثل في الهجرة الهلالية، والسليمية، حيث "يكتسب هذا الحدث قيمته من التحولات الديمغرافية، واللغوية، والحضارية الجوهرية الواسعة التي أطلقها، وأدت إلى تغيير وجه الجزائر، وإعادة بناء شخصيتها من الأساس"[2]، إذ أصبح لزاما علينا منذ ذلك الوقت أن نتعامل مع مجتمع ذو ثنائية عرقية، ولغوية، فبعد أن حافظ الأمازيغ على صفاء العرق لمدة طويلة (ماعدا في المدن الكبرى التي اختلط في الأمازيغ مع الفينيقيين والرومان) صاروا مجبرين على أن يمتزجوا مع العرب بسبب العقلية الدينية التي تفرض الاتصال، والتواصل بين العرقين.

إن القوامة المعنوية التي اكتسبها البربر، وشملت أوساطهم، واستوطنت ضمائرهم، بعد دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا، سرعان ما ذابت مع موجة الهجرات الكثيرة التي تعرض لها المغرب، ولم يعد في وسعنا الحديث عن دولة أمازيغية خالصة، إلا من ناحية القيادة السياسية، وذلك أن الإسلام يكفل لمعتنقيه تعاطي السياسة، وإدارة مقاليد السلطان، وحكم ذاتهم بذاتهم، أما من الناحية الاجتماعية؛ فالجدير بالذكر أننا لا نكاد نلمس وجود نظام طبقي يعتمد على الفوارق الاجتماعية مثلما كان عليه الحال أيام الرومان، والبيزنطيين، وإنما نلمس وجود وحدة اجتماعية تخضع لسلطة سياسية، وتحتكم لقوانين إسلامية وعرفية، "فالمجتمع الجزائري لم يكن مجتمعا طبقيا... وغاية ما هنالك أن بعض القبائل تحظى بأنواع من الامتيازات الإدارية والاجتماعية"[3].

---

[1]– ينظر: عشراتي سليمان، الشخصية الجزائرية–الأرضية التاريخية–، مرجع سابق، ص19.

[2]– بشير بلاح، التدافعات الثقافية، مرجع سابق، ص362.

[3]– محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1972، ص46.

الفرع الثالث: النظام الاجتماعي الامازيغي في العصر الحديث

لقد استمرت التركيبة الاجتماعية لسكان المغرب الأوسط متوازنة لحد ما حتى وصول الأتراك العثمانيين، واستيلائهم على الحكم في الجزائر، وهنا نلاحظ حدوث تغير اجتماعي كبير على مستوى طبقات السكان، وهو ما أشار إليه أبو القاسم سعد الله[1]حين اعتبر أن التغيرات الاجتماعية، والثقافية التي حدثت للمجتمع الجزائري كانت من ثلاثة روافد هي:

1/ هجرة الأندلسيين التي بدأت من خلال القرن التاسع، وتقَوَّت خلال القرن العاشر بعد اشتداد حروب الاسترداد، والاضطهاد التي صاحبتها.

2/ الوجود العثماني نفسه.

3/ الوجود المسيحي اليهودي: لعبوا دورا مهما من الناحية الاقتصادية، والاجتماعية، رغم أنهم كانوا يعيشون كأهل ذمة.

"إن أول ما يلفت الانتباه من الناحية الاجتماعية في الجزائر من خلال العهد العثماني هو تنوع، واختلاف التركيبة السكانية... بالإضافة إلى الطابع الريفي الرعوي في الأرياف، وأطراف المدن حيث تعيش الأغلبية... كما أن التنظيم الاجتماعي في الجزائر قام على ترتيب تفاضلي من حيث الامتيازات والمكانة الاجتماعية، أساسه امتلاك القوة العسكرية، واكتساب الثروة، والنفوذ"[2].

وعلى هذا الأساس يرى أغلب الباحثين أن المجتمع الجزائري في زمن العثمانيين كان تراتبيا، ويقسم "على أربع درجات اجتماعية كبرى هي: الأتراك، والمغاربة، والمرتدون المسيحيون، واليهود"[3]، في حين يرى آخرون أنه ينقسم إلى ستة فئات اجتماعية هي: "الفئة

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500–1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ج1، ص148/149.

[2]– عبد القادر بكاري، منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني (1519–1830)، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر، 2016/2015، ص88.

[3]– وليم سبينسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، دط، 2007، ص97.

الحاكمة، الأندلسيون، الكراغلة، الحضر، البرانية، الدخلاء"[1]، أما معيار التقسيم هو المكانة الاجتماعية التي تحظى بها كل طبقة، ووظيفتها داخل المجتمع، غير أن مبارك الميلي كان له رأي آخر، ورأى أن سكان الجزائر ينقسمون إلى ثلاث فئات هي: أهل المخزن، والشعب، وقبائل الصحراء التي تتمتع باستقلال ذاتي مقابل دفعها لضرائب للداي[2].

وبناء على ما سبق نستطيع القول أنّ طبقات المجتمع الجزائري في العهد العثماني كانت على الشكل التالي:

1/ الفئة الحاكمة: تتكون من الأتراك العثمانيين الذين يحتكرون السلطة، ومنهم يعين الباشوات، والوزراء، والبايات، ورؤساء البحر، كما يعين منهم أعضاء الديوان، والبرلمان، يعيشون في عزلة عن المجتمع بغية الحفاظ على امتيازاتهم، يتميزون بطابعهم الاستعلائي الناجم عن عامل التفرد، والتفوق.

2/ فئة الكراغلة: هي الفئة الهجينة في المجتمع الجزائري (أب تركي وأم جزائري)، يرتكز وجودهم في المدن، ويشتغلون في الوظائف الإدارية للإيالة، كانت تربطهم علاقات قوية بالأتراك قبل أن تتوتر العلاقة نتيجة الطموح السياسي لهذه الفئة، مما أدى إلى استبعادهم نهائيا عن تسلم الوظائف (يعتبر الأتراك هذه الفئة أبناء عبيد)

3/ فئة الحضر: تتألف هذه الفئة من السكان المحليين القاطنين بالمدن، وفيهم العلماء، والتجار، وأصحاب الحرف، والصنائع، والكتاب، والإداريين يضاف إليهم المهاجرين الأندلسيين (تشير بعض المصادر أن عددهم قارب المليون)، وقد كان لهذه الأخيرة تأثير كبير على الحياة الاجتماعية، حيث يعود لهم الفضل في تطور العديد من النشاطات الحرفية في الجزائر خاصة في مجال العمران، والتعليم، وإدخال بعض الصناعات كصناعات القرميد، والزخرفة.

يضاف للأصناف السابقة فئة الريف، وتتكون من مجموعات سكانية هاجرت إلى المدن بحثا عن ظروف أحسن للعيش، وقد كانت تنظم، وتصنف حسب أصولها، ومناطق انتمائها،

---

[1]– درقاوي منصور، الموروث الثقافي العثماني بالجزائر ما بين القرنين 10–13هـ/16–19م بين التأثير والتأثر، رسالة ماجيستير، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر، 2015/2014، ص11.

[2]– مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مرجع سابق، ج3، ص293.

اختصت كل فرقة بمهام معينة، وأعمال محدودة تخضع لتصرف أمين يختاره البايلك، ويوكل له حق المراقبة (عرفت هذه الفئة في بعص المصادر بـ البرانية).

4/ أهل الذمة: تتكون من اليهود، والمسيحيين سواء المقيمين داخل الجزائر، أو الأسرى الذين أسروا عن طريق الحرب، أما اليهود فقد شكلوا طبقة لا بأس بها في الجزائر، واشتغل أغلبهم في التجارة، وأما المسيحيون فقد اشتغلوا في ورشات بناء السفن، وصنع الأسلحة، تميزوا بكفاءة عالية مما جعلهم مؤهلين لتولي المناصب العليا[1].

أما في المناطق الجنوبية فيصور لنا بعض الرحالة واقع المجتمع الصحراوي، فقد كانت حياة الكر، والفر هي ما يميز حياة القبائل المتاخمة لبعضها، فطابع البداوة، والترحال الذي يميز قبائل الصحراء، يحتم عليها التنقل والبحث على مواطن العشب والماء، ما يحتم عليها البقاء في صراع مستمر مع بعضها، أما عن الحياة السياسية في الصحراء، فإنه يتبين لنا "أن أجزاء كبيرة من البلاد كانت مستقلة، ولا تخضع للوجود العثماني، بل هي تحت تصرف أمراء محليين"[2](غير أن هذا لا ينفي أن الامتداد التركي العسكري قد وصل إلى الصحراء، وبالضبط إلى بسكرة التي بنى الأتراك بها حصنا كان بمثابة الحدود البرية للإمبراطورية العثمانية)، لقد كانت الأسرة هي من تقوم بالدور الأساسي في التنظيم الاجتماعي، والاقتصادي في كثير من مناطق الوطن، وكان الشيخ على رأس أعلى هيئة تنفيذية في المنطقة، بينما كانت القرية في مناطق أخرى هي من تقوم بهذا الدور، وعلى رأسها أمين يعيّن من طرف الجماعة "وكانت هذه الجماعة أعلى هيئة قضائية، وتنفيذية، تعمل في استقلال تام عن النظام العثماني"[3]، وهو ما يثبت أن السلطة العثمانية لم تمتلك الأرض كلها بل سيطرت على نطاق محدود من أرض الجزائر، في حين بقت المناطق الأخرى تحت سلطة قبائل الحضرة.

---

[1]– لأكثر تفصيل حول فئات المجتمع في العهد العثماني ينظر: أبو القاسم سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص157/153. ودرقاوي منصور، الموروث الثقافي العثماني بالجزائر، ص21/11.

[2]– مولاي بلخميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دط، 1981، ص28.

[3]–عميراوي أحميدة وآخران، آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري 1830–1954، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954، الجزائر، دط، 2007، ص5.

لقد ركزت الكتابات التاريخية الجزائرية في طرحها على وجود الأمة الجزائرية بوجود دولتها على الأقل منذ دخول العثمانيين إلى الجزائر سنة 1519م، وهذه الدولة تقوم على الوحدة الجغرافية، والاقتصادية، والسياسية، "فالجزائريون آنذاك مهما قيل في درجة وعيهم... كنوا يشعرون شعورا واضحا... أنهم يؤلفون كيانا قوميا، وأنه لابد من اليقظة الدائمة من أجل الدفاع عن وطنهم... كيف لا يشعرون بذلك وهم في حالة استنفار لمواجهة الخطر الداهم من أوروبا، أو لاقتباس ما يجدّ فيها من أفكار"[1]، لقد عمد العثمانيون لتوجيه هذا الشعور واستغلاله لتنشيط حركة الجهاد، مستغلين الدافع الديني الكبير عند الجزائريين، "إذ لعب الدين دورا كبيرا في توجيه سلوك وتفكير الجزائريين، وسعيهم نحو الوحدة القومية"[2]، وهكذا نجد أن الجزائر كانت في 1830م قد ملكت كل مقومات الكيان المستقل قبل الاحتلال الفرنسي، إذ أن الجزائر في ذلك الوقت شكلت مجموعة ترابية واحدة، لها شخصيتها "وعلمها ودولتها، وبرلمانها، وحدودها كما كانت تتبناه المفاهيم الدولية المعمول بها في ذلك الحين"[3].

لقد حاول الاستعمار الفرنسي تغيير الخارطة الاجتماعية في الجزائر عن طريق الدمج، مثلما صرح الوزير الفرنسي آنذاك 1858م حين قال "نحن أمام قومية مسلحة صلبة يجب إخمادها بالدمج"[4]، إذ أن إضعاف القبيلة، وتفكيكها هو السبيل الوحيد للقضاء على القومية الجزائرية، لأنها تشكل "وحدة أساسية في المجتمع، والتي تشكل حاجزا في طريق التغلغل الاستعماري، ولا سبيل لتفتيت هذه المنظومة بتفتيت الملكية الجماعية للأرض"[5]، هذه الخطوة الأخيرة كان لها التأثير الكبير في استقرار الحكم الفرنسي في الجزائر، إذ عوضت القبيلة كوحدة سوسيولوجية بالأعراش، والدواوير، وهو ما أدى إلى اختلال النظام

---

[1]– مصطفى الأشرف، الجزائر –الأمة والمجتمع–، ترجمة: حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، دط، 2007، ص8/7.

[2]– إبراهيم مهديد، القطاع الوهراني ما بين 1850و1919م –دراسة حول المجتمع الجزائري، الثقافة والهوية الوطنية–، منشورات دار الأديب، وهران/الجزائر، دط، دت، ص110.

[3]– المرجع السابق، ص112/111.

[4]– شارل أجبرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، مرجع سابق، ص56.

[5]– الطاهر سعود، الحركات السلامية في الجزائر–الجذور التاريخية والفكرية–، مركز الدراسات والبحوث، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2012، ص215.

الاقتصادي، والاجتماعي الجزائري لأنه "ألغى نظام الخمّاس، كما ألغى الأعراف الاجتماعية المعروفة لدى القبائل، وبالتالي تقويض سلطة الشيخ"[1].

تشير الإحصاءات أن عدد الجزائريين غداة الاحتلال الفرنسي قد قارب ثلاثة ملايين سنة، أغلبيتهم (90%) يعيشون في الأرياف[2]، لذا عمد الاستعمار الفرنسي لتنشيط حركة الاستيطان في الريف الجزائري بغية تغير التركيبة الاجتماعية للسكان، إذ أن هذه الخطوة نتج عنها "هجرة خارجية وأخرى داخلية، قام بها الفلاحون بحثا عن أسباب العيش، بعد أن فقد معظمهم ملكيته الزراعية"[3].

لقد ترك الجزائريون حياة الريف التي تعتبر الناظم الرئيسي لمنظومة القبيلة الجزائرية، وعوضوها بحياة المدن، وبالتالي استدعى هذا الأمر ظهور بوادر نظام اجتماعي جديد، تتكون طبقاته من:

1/ الأوروبيون: تواصل وفودهم إلى الجزائر نظير الامتيازات التي حصلوا عليها من طرف السلطات الفرنسية، حتى قارب عددهم المليون مستوطن، تربعوا على رأس الهرم الاجتماعي الجزائري، وسكنوا المدن وحازوا الأراضي، يخضعون للقانون المدني الفرنسي.

2/ الشعب الجزائري: يشكل قاعدة الهرم الاجتماعي، يتوزعون على المدن، والأرياف، همهم الوحيد تحصيل لقمة العيش.

أما بعد الاستقلال، ومع تبني الجزائر التوجه الاشتراكي فإن نظام الطبقية كاد يختفي وصار الجزائريون أمام حتمية التعامل مع قوانين مدنية تتماشى، وتوجه الدولة الجزائرية المستقلة، من أجل الوصول إلى بناء المجتمع المنشود، غير أن نظام العرش، والقبيلة احتفظ لنفسه ببعض الخصوصية، إذ لازالت بعض المناطق في الوطن (خاصة في الصحراء) تخضع لسلطة شيخ القبيلة، وهو ما أشار إليه أبو القاسم سعد الله الذي اعتبر أن المجتمع الجزائري المنشود تشكل في العصر الحديث، وحتى بعد مجيء العثمانيين، لا يمكن اعتبار

---

[1]– شارل أجبرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، مرجع سابق، ص57.

[2]– صالح عباد، الجزائر خلال العهد التركي 1514–1830، دار هومة، الجزائر، دط، 2012، ص354.

[3]– محمد السويدي، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري –تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغيير في المجتمع الجزائري المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، دت، ص65.

ما تشكل من نظم اجتماعية آنذاك تعبر عن المجتمع الوطني، "حقا إن هذا المجتمع لم يكن قد وصل بعد إلى مرحلة المجتمع الوطني الذي نتحدث عنه اليوم، ولكنه كان بالروابط الموحدة دينيا، وسياسيا، وخلقيا، ولغويا، قد وصل إلى مرحلة المجتمع الواعي، والمتماسك، والمتجاوب"[1]،وبالتالي صار يمكننا الحديث عن مجتمع جزائري حديث أضحى محكوما باعتقادين رئيسيين هما: الانتماء القومي للحضارة الإسلامية، والانتماء الوطني للجزائر، أي الاشتراك في ضمير وطني واحد يجمع كل الجزائري.

وبناء على ما سبق نستطيع القول أن:

1) مدنية المغرب الكبير جاءت نتيجة لتطور عنصر محلي، وآخر أجنبي وفد على المغرب، واستقر بالمنطقة.
2) تأثر المدنية المغربية بالنظم الاجتماعية للحضارات الوافدة.
3) النظام الاجتماعي الجزائري احتفظ بخصوصيته؛ رغم ما تعاقب من هجرات على المنطقة.
4) الأسرة الجزائرية هي اللبنة الأولى للنظام الاجتماعي في الجزائر.
5) الدين لعب دورا كبيرا في تثبيت القيم، وانتماءات الهوية للشعب الجزائري.

[1]– سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص153.

الفصل الثالث:

المقومات الأساسية في التكوين التاريخي للمجتمع الجزائري

المبحث الأول: التطور الديني واللغوي في شمال إفريقيا–الجزائر–

المبحث الثاني: مقومات المجتمع الجزائري عند مولود قاسم

الفصل الثالث: المقومات الأساسية في التكوين التاريخي للمجتمع الجزائري

عرفت منطقة شمال إفريقيا ظهور العديد من الأنماط الثقافية[1] على امتداد العصور القديمة، وهو ما أدى في النهاية إلى خلق واقع التعدد الثقافي، والبشري الكبير الذي عرفته المنطقة، حيث تشير بعض الدراسات أن التعدد اللغوي في منطقة شمال إفريقيا كان قائما منذ ما قبل التاريخ، وما يزال مستمرا إلى اليوم، حيث أن واقع التعدد اللغوي هو نتيجة لواقع التعدد الإثنولوجي في المنطقة[2].

وعليه فقد كانت هذه الفسيفساء اللغوية والعرقية هي الدافع الأساسي لشد أقلام الكثير من الباحثين نحوها، والأكيد أن مولود قاسم واحد من بين الذين حاولوا خوض غمار البحث في هذا الميدان، من أجل خلق نظرة شاملة لواقع المجتمع الجزائري، تقيه شر التشرذم والضياع، خاصة مع تنامي سؤال الهوية وارتفاع نداءات القومية منذ مطلع القرن 19م.

إن الفترة التي عاشها مولود قاسم في أوروبا هي التي وجهت اهتمامه نحو رصد ملامح المجتمع الجزائري وذلك من خلال ربطه بدائرة الجغرافيا والتاريخ، فمن جهة التاريخ فإن المجتمع الجزائري بالنسبة له ليس وليد العصور الوسطى أو ما بعدها، بل له من الأمجاد ما يجعله يفتخر بها، أما من جهة الجغرافيا فإن شمال افريقيا هو موطن الأمازيغ منذ القدم، وقد دافعوا عن أرضهم ضد كل الاجتياحات وحكموا أنفسهم ردحا من الزمن، ولذا سنحاول في هذا الفصل تتبع كل تلك المقومات التي كانت فاعلة في صنع المجتمع الجزائري، وعلى أي مقوم يستند المجتمع الجزائري.

---

[1]– ننوه هنا على أن أغلب الباحثين يجمعون هذه الأنماط في: الأولدونينية، الأشولية، الموستيرية، العاترية، الإيبيروموريطانية، القفصية، وثقافة العصر الحجري الحديث، ينظر محمد الكوخي، سؤال الهوية في شمال افريقيا وغابرييل كامب، البربر ذاكرة وهوية.

[2]– ينظر محمد الكوخي، سؤال الهوية في شمال افريقيا –التعدد والانصهار في واقع الانسان واللغة والثقافة والتاريخ–، افريقيا الشرق، المغرب، دط، 2014.

المبحث الأول: التطور الديني واللغوي في شمال إفريقيا–الجزائر–

إن أي محاولة لتتبع المسار اللغوي، والديني في الجزائر منذ ما قبل الفتح، هي بمثابة مناقشة لمسألة الهوية على هذه الأرض، وهي مسألة بالغة التعقيد، ومحفوفة بالمخاطر المعرفية، والمنهجية، فأمام ندرة المصادر، وقلة توفرها خاصة فيما يتعلق بالفترة القديمة، نجد أنفسنا أمام معضلة إهمال هذه الأخيرة لمسألة الهوية، واكتفائها بالتأريخ السياسي للدولة، ما يحتم علينا استنطاقها، وتدبير معارفها كسبيل لاستخراج مكنوناتها، من أجل بناء تصور واضح، ومقبول لخارطة الهوية في الجزائر.

المطلب الأول: الديانة

تخبرنا المصادر التاريخية المختلفة أن أرض الجزائر كانت تعج بالملل، والنحل كغيرها من أقاليم شمال إفريقيا، ما يجعل الطابع الديني يظهر في فسيفساء يتداخل فيه السماوي مع الطبيعي كالآتي:

1/ المعتقدات الوثنية: عبَد الأمازيغ القدامى كغيرهم من الأقوام السالفة مظاهر الطبيعة، والحيوانات، والأرواح (الشمس، القمر، القرد، الجن، الأفعى، الكبش ...) وهو ما تجسده الرسومات، والنقوش التي خلفوها بأماكن العبادة القديمة، كما أنهم تأثروا بآلهة بعض الأقوام التي وفدت عليهم كالفينيقيين، والمصريين (خاصة إله المصريين آمون وتانيت الفينيقية)، غير أنهم صبغوها بصبغة محلية تتماشى، والعقلية الدينية لشعب الأمازيغ القدامى، وقد كانت عبادة تلك الأرواح، ومظاهر الطبيعة ديانة أكثر سكان شمال إفريقيا، واستمر حضورها إلى وقت متأخر حتى الفتح الإسلامي للمنطقة، غير أنها عرفت انحسارا كبيرا منذ الوصول الفينيقي لشمال افريقيا، ليقتصر حضورها في المناطق الداخلية البعيدة عن الحواضر الكبرى، ولا تزال بعض تجليات تلك المعبودات سارية إلى يومنا هذا.

2/ اليهودية: تعتبر الديانة السماوية الأولى التي كان لها حضور في الجزائر، ويرجع الفضل في دخولها إلى اليهود الذين دخلوا المغرب بعد فرارهم أيام السبي البابلي، وتشير بعض المصادر التاريخية أن لليهودية مكان في الأوساط الشعبية الأمازيغية، ولا أدل على ذلك أن الملكة الأمازيغية الكاهنة (دحيا) كانت يهودية، وهو ما يدل على أنها جمعت كثيرا من البربر.

3/ النصرانية: دخلت مع الوجود الروماني في الجزائر منذ بداية القرن 2م، انتشرت في الحواضر الكبرى، وخاصة الساحلية، واستطاعت حتى التوغل في أوساط الأمازيغ الداخلية، خاصة مع ثورة الدوناتيين، حتى أضحت شريحة مهمة من الأمازيغ تدين بالنصرانية، واستمرت على نصرانيتها حتى الفتح الإسلامي.

4/ الإسلام: يرجع تاريخ دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا إلى المائة السابعة، منذ توجهت طلائع الفتوحات على عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان إلى شمال إفريقيا، وقد عرف انتشارا كبيرا وسط الأوساط الشعبية الأمازيغية، رغم طول زمن الفتوحات، بحيث أضحى الإسلام اليوم هو ديانة الأغلبية الساحقة لسكان شمال إفريقيا.

المطلب الثاني: اللغة

تكلم الأمازيغ لغات عدة بسبب التنوع الحضاري الذي ميز المنطقة، نتيجة تعاقب العديد من الشعوب على هذا الإقليم، ومن بين الألسن التي عبّر بها الأمازيغ نجد:

1/ الأمازيغية: تمثل اللغة الأم ولسان الأغلبية الساحقة من السكان، وإليها يرجع لفظ الأمازيغ (تشير الأبحاث أنها مشتقة من الليبية القديمة، إلا أنها تبقى مجرد فرضيات فقط)، وفي حال تتبع الخريطة اللغوية لمواقع انتشار الأمازيغية، نجد أنها مع مرور الوقت، ومع استمرار وفود الشعوب، وتعاقب الحضارات على المنطقة، قد عرفت انحسارا كبيرا بعيدا عن الحواضر الكبرى خاصة الساحلية، والقريبة منها (سيرتا، بونا، مداوروش، قيصرية، ...) لتنحصر في المناطق الداخلية والجنوبية، غير أنها حافظت على وجودها كلغة تواصل اجتماعي (لم تشاركها لغة أخرى هذه الوظيفة الاجتماعية) خاصة في الأرياف، حتى مع الوجود العربي الإسلامي في المنطقة.

2/ الإغريقية: تشير الدراسات، والمخلفات المادية على وجود بعض المسلات، والنصب التذكارية مكتوبة باللغة الإغريقية، والتي تعود إلى التجار الذين كانوا متواجدين بسيرتا، التي كانت عاصمة للتجارة في شمال إفريقيا، (وهو ما يفسر توجه ماسينيسا أثناء حكمه لتبني الثقافة الاغريقية)، غير أنها لم تعرف انتشارا كبيرا داخل الأوساط الشعبية مما يدل على أنها لم تكن سوى لغة التجارة لا غير[1].

3/ البونيقية: هي لغة استحدثها الأمازيغ، ونظراؤهم من الفينيقيين كلغة تفاهم بينهم، وكانت بمثابة أول ازدواج لغوي يحصل في شمال إفريقيا، أما عن أسباب انتشارها، فيعود إلى استحواذ الفينيقيين على سيرتا من جهة (العاصمة التجارية الأبرز في شمال إفريقيا)، وتهميش اللسان المحلي في المعاملات من جهة أخرى، نظرا للتفوق الحضاري، والتجاري للفينيقيين من جهة أخرى، كما لعب الطابع السلمي الذي ميّز الوجود الفينيقي في المنطقة إلى إقبال الأمازيغ على تعلمها، واستعمالها دون تحسس، وحرج، وبهذا أضحت البونيقية لسان حال التجار وبها تكتب المراسلات، بل إنها أصبحت لغة التعليم ولغة النبلاء من الأسر الأمازيغية نفسها، ولا أدل على ذلك من تلك النقوش التذكارية التي وجدت في معبد

[1]–حجوي غوتي، تاريخ الأمازيغ، دورية كان التاريخية، العدد 10، ديسمبر 2010، ص70/66.

ثوقا، والتي كتبت بالبونيقية بدل الأمازيغية، ليقتصر وجود الأمازيغية داخل أوساط المجتمع خاصة داخل العائلة، وهي عوامل ساهمت في انحسار الأمازيغية[1].

4/ اللاتينية: ارتبط انتشارها بوصول الرومان إلى الجزائر، عرفت استقرارا كبيرا داخل الحواضر الكبرى، إذ أضحت لغة التواصل، والإدارة، وما عزز موقعها سعي المستعمر لنشرها بين أوساط الأمازيغ ترغيبا تارة، وترهيبا تارة أخرى، وقد نجح هذ المسعى إلى حد ما، في ظل الإنتاج المعرفي المكتوب باللاتينية الذي أنتجه الأمازيغ (أوغسطين البوني، أبوليوس، يوبا، أفولاي ...)، غير أن معاملة الرومان المستبدة للسكان دفعت الأغلبية منهم للهروب نحو الصحاري، والجبال، الأمر الذي حافظ ولو بطريقة غير مباشرة على اللسان الأمازيغي، وعليه تكون اللاتينية هي لغة النخبة أو الطبقة المثقفة، والأمازيغية هي لسان العامة، ولغة التواصل بينهم.

5/ العربية: يرجع تاريخ ظهورها إلى الفتح الإسلامي للمنطقة، وهي أكثر اللغات استقرارا واستوطانا في المنطقة، عرفت انتشارا رهيبا داخل الأوساط الشعبية الأمازيغية موازاة مع الانتشار السريع للإسلام في شمال إفريقيا، إذ أضحت اليوم لسان الأغلبية الساحقة من سكان الجزائر، وهو أمر مثير للدهشة، والحيرة معا، فإذا كان الأمازيغ قد حافظوا على هويتهم ولسانهم منذ آلاف السنين، رغم معاصرتهم لحضارات كانت أكبر من الحضارة الإسلامية آنذاك، إلا أنهم سرعان ما تخلوا عن ذلك التفرد، والتقوقع الانحسار اللغوي، ليذوبوا داخل الحضارة الإسلامية ذات اللسان العربي، أما عن أسباب هذا التحول، والتبدل فقد أرجعها محمد صدقي أزايكو إلى مجهودات الأمازيغ أنفسهم[2]، لأنه وحتى القرون الخمسة الأولى كانت الأمازيغية بمختلف لهجاتها هي لغة الأغلبية، وقد لعب العامل الديني دورا كبيرا في هذا المسعى، إذ أن الإسلام يقر العدالة الاجتماعية لمعتنقيه (لا فرق بين عربي ولا أعجمي، ولا أبيض ولا أسود) والتي لطالما بحث عنها البربر، كما أن العربية رافقت هذا الدين وهي لسان حاله فلا إسلام من دون قرآن، ولا قرآن من دون عربية، غير أن ليلى

---

[1]– حجوي غوتي، تاريخ الأمازيغ، مرجع سابق، ص70/66.

[2]– علي صدقي أزايكو، الاسلام والامازيغية أو البدايات الأولى لدخول بلاد الأمازيغ في المجال الإسلامي، ضمن كتاب الهوية من أجل ثقافة مغربية ديمقراطية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، دط، 2002، ص19.

صديق كان لها رأي آخر في هذا الموضوع، إذ ترى أن اللغة العربية هيمنت على كل اللغات التي عاصرتها (السريانية والآرمية في العراق، الفارسية في إيران، السريانية واليونانية في الشام، القبطية واليونانية في مصر، الأمازيغية، واللاتينية في شمال إفريقيا، الإسبانية في الأندلس) فلم تنازل أي لغة إلا وهزمتها، "ومرد هذه الهيمنة هو قدرة العربية على استيعاب كل ما هو جديد في جميع المجالات، بالإضافة إلى غناها الصرفي، والنحوي، وكثرة المترادفات، وانسجامها، فالمعجم اللغوي العربي من أقوى المعاجم اللغوية"[1].

انطلاقا من الحقائق التاريخية المذكورة أعلاه، نجد أن الجزائر لم تتميز بهوية منفردة خاصة بها، وإنما اتسعت لتوليفة هوياتية، اقتسمت المجال الجغرافي بين هوية أمازيغية–وثنية، شملت أغلب القطر الجزائري، وهوية مسيحية–لاتينية شملت مناطق نفوذ المستعمر الروماني، ثم هوية إسلامية–عربية–أمازيغية هيمنت على كل القطر الجزائري لاحقا، ولا زالت تهيمن عليه إلى اليوم.

[1]– ليلى صديق، تأثير اللغة العربية في غيرها من اللغات، مجلة حوليات التراث، العدد 6، 2006.

المطلب الثالث: سؤال الهوية في الجزائر: الأسباب والمحددات

إن كل ما تعاقب على هذه الأرض من شعوب، وثقافات لم يثر الكثير من الجدل، باستثناء الوجود العربي في الجزائر، إذ أضحى اليوم سؤال الهوية في الجزائر ينحصر بين ما هو عروبي، وما هو أمازيغي، ولعل الإجابة على هذه الإشكالية تحتم علينا التساؤل لماذا ظهر سؤال الهوية في الجزائر؟ وهل هناك دور للاستعمار الحديث في تبلور هذا السؤال؟

يقول محمد حربي: "الوعي القومي واللغة والدين لم تتبلور كمكونات للشخصية الوطنية، إلا داخل الصراع ضد فرنسا المحتلة"[1]، وهو ما يؤكده محمد الكوخي الذي يرى أن سؤال الهوية في الجزائر كان منذ البداية سؤالا حديثا ارتبط بفترة الاستعمار، الذي عمل على تفكيك البنية القبلية للمجتمع (كانت البنية القبلية تحتضن الفرد، وتقدم له الشعور بالانتماء، والأمان الاجتماعي والسياسي والثقافي)، وتعويضها بأخرى (نظام المدينة الحديثة) تقوم على الفردانية، والانتماء إلى الفضاء العام المشترك[2].

ومع مطلع القرن العشرين صدر ما يعرف بالظهير البربري لأول مرة سنة 1930م، والذي كان ينص على إنشاء محاكم خاصة تشتغل بالأعراف القبلية المعمول بها، وفصلها عن المحاكم الشرعية لتطرح بذلك لأول مرة ثنائية أمازيغي/عربي، وثنائية الأعراف القبلية في مقابل الشريعة الإسلامية، وأصبحت الجزائر بذلك تعيش أول ازدواجية على المستوى السياسي[3] والاقتصادي[4] والاجتماعي[5] وحتى الثقافي[6]، عملت السياسة الاستعمارية على تغذية هذا الشرخ في إطار سياسة فرق تسد، ولا تزال آثار تلك السياسة ظاهرة إلى اليوم.

إن المتأمل لجذور الصراع الهوياتي في شمال إفريقيا، يجده ليس وليد اليوم، أو وليد الفترة الاستعمارية الحديثة، وإنما هو عميق عمق تاريخ هذه المنطقة، فلطالما أخبرتنا كتب التاريخ عن صراع هوياتي مبطن بين الأمازيغ وغيرهم من الشعوب الوافدة عليهم، خصوصا

---

[1]– الزواوي بغورة، الدولة والأمة الجزائرية في فكر النخبة الجزائرية المعاصرة –مولود قاسم نايت بلقاسم نموذجا–، مجلة الفلسفة المصرية، السنة 13، العدد 13، مركز الكتاب للنشر، 2004.

[2]– محمد الكوخي، سؤال الهوية في شمال افريقيا، مرجع سابق، ص330/332.

[3]– نظام القبيلة والعرش مقابل نظام الإدارة الاستعمارية المدني.

[4]–نظام زراعي معاشي محلي في مقابل نظام صناعي تجاري.

[5]– مجتمع الأهالي في مقابل مجتمع المعمرين.

[6]– ثنائية عربي/أمازيغي، مسلم/مسيحي.

العربية منها (زمن الفتح وما تبعه)، إذ أن اللغة الأمازيغية القديمة سعت لتناجز كل اللغات الوافدة الأخرى، فيما يعرف بصراع اللغات، لأن الأمازيغ الذين لطالما خسروا صراع الأرض، كانوا دوما يفوزون بصراع اللغة، إذ كانت الأمازيغية بمثابة الحصن المنيع الذي يحافظ على تفرد الأمازيغ، وطوق نجاتهم إذا احتدم الصراع. غير أن هذا الصراع عرف منحى آخر أمام العربية (وهو ما فهمه المستعر الفرنسي جيد وسعى لاستغلاله بكامل الطرق)، التي وجدت نفسها بعد ثلاثة قرون تتبوأ الصدارة سواء من حيث عدد متكلميها أو من حيث الإنتاج المعرفي المكتوب بها، حيث تشير الأبحاث والدراسات التاريخية أنه رغم أن دخول العربية إلى الأوساط الأمازيغية كان بطيئا، بسبب البعد الكبير بين اللغتين من حيث البناء، والتركيب؛ رغم أنهما ينتميان لنفس العائلة الأفروآسيوية[1]، إلا أنها استطاعت في ظرف وجيز أن تسيطر على المجال الأمازيغي بسهولة، حيث لعبت العديد من الأحداث التاريخية دورا كبيرا في ذلك[2].

لقد تعايشت اللغتان العربية، والأمازيغية مع بعضهما لفترة طويلة، ولم يكن هناك حساسية بين اللسانين، حتى أن الأمازيغ اتخذوا من الحروف العربية كعنوان لإنتاجهم المعرفي (ابن تومرت مثلا) إلا أن هذا التعايش لم يستمر في العصر الحديث مع الوصول الفرنسي إلى الجزائر، إذ حاول المستعمر إعادة إحياء النزعة البربرية، وإعادة بعثها من جديد حتى يصفو له المقام، فكانت سياسة التفرقة العرقية، واللغوية بين الجزائريين هي السبيل

---

[1]– هناك اختلاف في أصل اللغة الأمازيغية بين من يحاول ربطها باللغات الحامية، وبالتالي ربط متكلميها تاريخا وجغرافيا بالمشرق، وبين دعاة استقلالها، واعتبارها لغة قائمة بحد ذاتها كرد فعل لإثبات التفرد.

[2]– تشير الكثير من المصادر أن انتشار اللغة العربية في شمال افريقيا كان بفضل الإسلام أولا (لا إسلام دون قرآن ولا قرآن دون عربية)، كما لعبت الاستفادة المادية (نيل المناصب) والمعنوية (تصحيح الممارسات الدينية) للبربر جراء اتقانهم العربية دورا كذلك في هذا الاقبال على تعلمها، غير أن الهجرة الهلالية الكبرى كانت بمثابة الحسم في هذا الانتشار، لأنها أخرجت العربية من الحواضر الكبرى نحو البوادي، كما رسخّت المكون الثقافي العربي داخل المكون القبلي الأمازيغي في شمال افريقيا، ليكون القرن السادس عشر بمثابة التعريب الشمال للمنطقة نتيجة انفصال البنية القبلية للمجتمع عن الدولة، نتيجة الصراع بين الدولة العثمانية والقبائل الهلالية، حيث مال السكان المحليون نحو الهلاليين، وهكذا سادت البنية القبلية الهلالية في المنطقة.

لذلك، فتطورت بذلك الأبحاث المتعلقة بالإنسان لأن "دراسة الأعراق المقيمة بمنطقة ما، هي التي تحدد التنظيم السياسي الواجب منحه لها، والأدوات الواجب استعمالها لبلوغ تهدئتها"[1]، لقد كانت هذه العملية تهدف بالأساس إلى كشف الخصم، وتوجيهه، فيما يعرف بالصراع الفكري في البلاد المستعمرة كما قال مالك بن نبي، ولهذا عمدت السلطات الفرنسية إلى نشر ترجمة لكتاب تاريخ البربر لابن خلدون حتى تقابل بين عرقين هما البربر من جهة والعرب من جهة أخرى[2].

أما من ناحية اللغة فبالإضافة إلى محاولة فرض اللغة الفرنسة، وجعلها اللغة الأولى في الجزائر، سعت السلطات الفرنسية إلى محاربة اللغة العربية عن طريق اعتبارها لغة أجنبية في الجزائر، والاقتصار في تعليمها على حفظ القرآن، كما اعتبرت اللهجات البربرية البربرية/الأمازيغية لغات وطنية على قدم المساواة مع اللغة العربية، وهكذا ظهر الوعي البربري في الجزائر وسعى لإثبات ذاته المختلفة عن العربي، ليحتدم الصراع بين الطرفين بعد الاستقلال خاصة مع تبني الجزائر لسياسة التعريب (دستور 1963م–اللغة العربية هي اللغة الرسمية في البلاد–، قانون 1968م–تعريب الادارة والتعليم–، ميثاق 1986م–التأكيد على عروبة الجزائر–)، وكرد فعل لذلك تأسست لجنة التروتسكيين الجزائريين في جامعة تيزي وزو، التي عارضت قضية التعريب خاصة في مجال التعليم، وقد دعّم الجيل المتفرنس وفرنسا نفسها هذا التيار وعليه دخل التيار العروبي الاسلامي في صراع مع التيار الفرنكفوني البربري[3]، لتندلع بعدها أحداث أكتوبر 1988م التي كان ظاهرها أنها اندلعت بأسباب اقتصادية لكنها حملت في ثناياها صراع هوياتي بين الاسلاميين والاستئصاليين (الحداثيين)، لتدخل الجزائر بعدها في دوامة صراع دموي استمر لعشرية كاملة دفعت على إثرها الجزائر ثمنا باهظا، ولازالت تعاني من تبعاته إلى اليوم.

---

[1]– جميل ريسلير، السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر، ترجمة: نذير طيار، دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني، ط1، 2016.

[2]– نفسه، ص76.

[3]– محمد علي داهش، المغرب العربي المعاصر –الاستمرارية والتغيير–، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2014، ص140،117.

ومع مطلع الألفية الجديدة ازداد الإلحاح على سؤال الهوية في الجزائر، مما توّج بالاعتراف بالأمازيغية كمقوم أساسي لمقومات الهوية الجزائرية، وبذلك أصبحت الجزائر إسلامية/عربية/أمازيغية، سعت السلطات الجزائرية من خلال ذلك احتواء الوضع قبل الانفلات إلى ما لا تحمد عقباه.

المبحث الثاني: مقومات المجتمع الجزائري عند مولود قاسم

يعتبر مولود قاسم من المفكرين الأفذاذ الذين أنجبتهم الجزائر، والذين تفتخر بهم اليوم، فقد كان رحمه الله ذا نظر ثاقب، وذا نظرة استشرافية لما ستؤول إليه حال الجزائر المستقلة، لذا نجده دائما يركز في كتاباته على إنية[1] الجزائر، وما يجب عليه أن تكون حتى تحافظ على ذاتها وسط عالم العولمة الناسخ، والفاسخ، والماسح لكل ما تتفرد به الدول، وتعتز به، ولهذا لم يدّخر جهدا في دعوة الأمة الجزائرية للاحتفال بماضيها، والتمسك به، وإبراز مظاهر حضارتها حتى يكون لها مقام بين الدول المتقدمة، وهو ما يعزز الثقة لدى شبابها.

ولتحقيق هذه الإنية يجعل لها مولود قاسم مجموعة من العناصر لا تتحقق إلا بها "أما عناصر هذه الإنية، أما مكونات هذه الشخصية، أما أركان هذه الأصالة التي تمثل التضحية من أجلها ما سميناه بالأصالية[2]، فهي اللغة، والدين، والتاريخ، وحب الوطن، والثقافة المتأصلة، والتقاليد، وذكريات الأجداد التي يخلدها التاريخ الضارب بجذوره في أعماق الدهر، والباسقة فروعه إلى عنان السماء، والممتد بساطه عبر السهول والوديان والجبال، والصحاري، والوهاد، والأنجاد، التي هي كلها السجلات الخالدة للأجداد، والأمجاد"[3].

انطلاقا من القول المذكور أعلاه نجد أن مولود قاسم يضع محددات للشخصية الوطنية هي الدين، واللغة، والتاريخ، كما ينقل ذلك عن فيخته(ت1814م) في عديد من المرات، تلك المحددات التي لخصها ابن باديس في قوله الجزائر وطني، والإسلام ديني، والعربية لغتي، ونحن بدورنا سندرس هذه المحددات من خلال استنطاقنا للخطاب القاسمي، وعن طريق إبراز المرامي البعيدة، والقريبة من خلال ما جادت به خطاباته الكثيرة، والمتكررة حول مسائل الهوية، والقومية من على مختلف المنابر التي اعتلى صهوتها منافحا، ومدافعا

---

[1]– الإنية: "هي شعور سام لدى الانسان بوجوده كإنسان وبتميزه عن الغير" أو "هي ذلك الوعي الحاد بالذاتية والشخصية"... ينظر أصالية أم انفصالية، ج1، 91. وإنية وأصالة، ص104.

[2]– الأصالية: هي شعور الانسان واقتناعه العميق بانتسابه إلى مجموعة بشرية هي أمته، وإلى أديم هي بلاده، وتشبعه بتصورات ومفاهيم وأفكار انحدرت إليه من الأسلاف في أعماق التاريخ... ينظر أصالية أم انفصالية، ص91.

[3]– مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج2، ص66.

عن هوية الجزائر الإسلامية، لنصل إلى السؤال التالي: هل أصالية المجتمع الجزائري تنضوي في الإطار الأفقي التاريخي للمجتمع، وبالتالي تصبح الأصالية هنا ممتدة إلى ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا؟ أم أن الأصالية تتحقق في نقطة من هذا الامتداد الأفقي كنقطة دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا مثلا؟

المطلب الأول: المقوم التاريخي.

لا يعتبر اهتمام مولود قاسم بالتاريخ وليد الصدفة، بل يعود لمرحلة صباه كما يقول، إذ كان الجزائريون محرومين من دراسة تاريخ أبطالهم، ومآثرهم، خاصة أنهم عايشوا فترة كانت الجزائر فيها غير مبحوث عنها، منسية في التاريخ، لا ماضي لها، وما يدّرس لهم يكون من منظور المستعمر الفرنسي، الذي لطالما روّج لمقولة أن تاريخ الجزائر هو تاريخ لقبائل متناحرة، ومتداحرة، سعيا منه لتحقير الجزائريين من أنفسهم، وجعلهم يخجلون من تاريخهم، وهو ما اعتبره مولود قاسم من قبيل الهراء، وأن تاريخ الجزائر أعرق من تاريخ فرنسا نفسها، ومن تاريخ كل أولئك المنبطحين، والمازوخيين[1]، ممن يخربشون بحمد فرنسا، وتقديسها[2]، لذا دعا الجزائريين أن يهتموا بتاريخهم، وأن يكتبوه جريا بما تفعله الأمم التي تحترم نفسها.

ينقل مولود قاسم نقلا على لسان فيخته "وفي هذا السياق الخاص (سياق استمرارية الأمة)، يتحتم علينا أن نكتب تاريخ أمتنا، وأن نجعله تاريخا يلهب، ويبعث فينا الحماس، تاريخا يدفع بنا إلى الأمام، تاريخا يكون لنا بمثابة الإنجيل، ويقرأ بنفس الحب، والتقديس، والاجلال، وذلك تشريفا لأرواح أجدادنا، وحضا لأنفسنا على التأسي بهم، لنكون جديرين بالانتساب إليهم، ولكي نترك شيئا للأجيال المقبلة، ونخلد شخصيتنا وإنيتنا"[3].

---

[1]–المازوخية نسبة إلى العالم النمساوي مازوخ، وتطلق على تعذيب النفس وسبها، أي الانسان الذي يسب نفسه ويحتقرها.

[2]– مولود قاسم نايت بلقاسم، الجزائر عظيمة، مجيدة، فكفاكم قزمية ومركوبية يا مخربشون، مجلة الثقافة، السنة 17، العدد 39، 1986، ص18. ضمن كتاب مولود نايت بلقاسم –المفكر الجزائري الموسوعي–، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، المركز الثقافي الإسلامي، الجزائر، 2013م.

[3]– مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج2، ص275.

ووفق تلك الرؤية يمكننا القول أن مولود قاسم يرى في التاريخ طوق نجاة لكل أمة أرادت أن تستمر، وتترك إرثا للأجيال المقبلة، فإذا كان فيخته الذي ينتمي لألمانيا العظيمة كما يقول مولود قاسم، ويدعو لهذا التمسك بالتاريخ، والاهتمام به، فكيف الحال بالنسبة إلينا، ونحن من تعرضنا لكل محاولات المسخ، والنسخ، والفسخ، ولهذا وجب التعامل مع التاريخ بنظرة إيديولوجية، ولا يجب أن يخرج من هذا الإطار، "فالتاريخ هو الأيديولوجية، مرتبط بالأخلاق بالدين، بالمعتقدات، بكل هذه الكوامن النفسية، وبحياة الأمة، فهو الأيديولوجية الأولى، ويؤثر فيها إلى أبعد الحدود"[1]، أما أولئك الذين ينادون بعلمية التاريخ، ويجب دراسته بعيدا عن الشعور العام للدولة، فإن مولود قاسم يرى أن دعواهم ما هي إلا جعجعة، وحق أريد به باطل، لأن التاريخ ليس كالبيولوجيا أو الفيزياء (علم تجريبي) يقوم على الفرضية، والتجريب، بل هو الإسمنت الروحي للأمم، لأنه مرتبط بذاكرة الشعوب، فهو الذي يدغدغ عواطفها، ويشحنها، فهو للأمم بمثابة العقل للأفراد، وعلى الأمم التي تعرضت للغزو أن تعتني به أيما عناية، لأنه السبيل الوحيد لإثبات وجودها، ولهذا فالأمة التي تهمل تاريخها أمة مجنونة، وهي تخاطر بالأساس الذي يجب أن تقوم عليه "ولهذا وجب أن تأخذ التاريخ، حتى لا تتجوهل ذاتيتها وإنيتها بين الأمم"[2].

يصر مولود قاسم على العودة إلى الماضي البعيد للأمة الجزائرية، لأننا لسنا يتامى التاريخ كما عنون به أحد مقالاته الكثيرة التي تمجد البعد التاريخي للدولة الجزائرية، التي "كانت موجودة منذ عهد ماسينيسا، بل منذ أجداده منذ العصر القديم قبل الميلاد، وكانت متوالية في العصور الإسلامية المتعاقبة، من الدولة النوميدية التي أسسها أجداد ماسينيسا إلى توقفها بعد قتل يوغورطا سنة 104 قبل الميلاد، ثم جاءت الدولة الإسلامية، حيث كنا جزءًا من الدولة الإسلامية في عهد الخليفة الراشد الرابع، ثم العهدين الأموي والعباسي، حيث تأسست الدولتان الرستمية ثم الزيرية، ثم جاءت الحمادية، ثم الدولة الزيانية، ثم الدولة

---

[1]– بوعلام جوهري، البعد الدعوي في أعمال مولود قاسم نايت بلقاسم –دراسة في الأصول الفلسفية لمدرسته الإصلاحية والدعوية–، دار الخلدونية، الجزائر، دط، 2012م، ص173.

[2]– محاضرات وتعقيبات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي، الجزائر، المجلد الأول، 13 جمادى الثانية إلى 1 رجب 1392هـ الموافق لـ 24 يوليو إلى 10 أغسطس 1972م، ص5–7.

الجزائرية العثمانية، ثم دولة الأمير عبد القادر، وهي كلها دول جزائرية متعاقبة"[1]، إن هذه الاستمرارية التاريخية هي التي تجعل للجزائر العراقة والمكانة وسط الأمم، إن تاريخ الجزائر القديم (يوليه مولود قاسم الكثير من الأهمية) هو الذي يجعل الأمة الجزائرية متميزة عن غيرها، مهما حاولوا إلحاقها بغيرها سواء المستدمرين أو المشارقة، لقد كان كيان الجزائر موجودا حتى قبل فرنسا نفسها الذي يعود تاريخها إلى ما بعد وفاة يوغرطا، وأن أي محاولة لاقتطاع ما من تاريخ الجزائر تحت أي دعوة (أمازيغية أو إسلامية) كانت هو تقزيم لهذه الأمة[2].

"إن الأمة الجزائرية لها من المكانة ما لم تنله أمم من قبلها منذ أوغسطين إلى مالك بن نبي... لقد حازت الجزائر منذ القدم مقومات الأمة كالتاريخ، والدين، واللغة، وعلى مثقفينا أن يتوقفوا على وصف الجزائر بالفتية، لأنها تحيل إلى الشتيمة والحقارة"[3].

في ضوء الرؤية التاريخية لمولود قاسم يمكننا أن نرى بوضوح أن الهدف منها ما يلي:

1/ تحقيق وحدة التاريخ الجزائرية بجميع مراحله القديمة، الوسيطة، والحديثة.

2/ رد الاعتبار للدولة الجزائرية التي صارت هدفا لشتائم أبنائها وأعدائها على حد سواء.

3/ تاريخ الجزائر كلّ غير مجزء وكل محاولة لأقصاء مرحلة على حساب أخرى هي من قبيل القضاء على العقل الجماعي للأمة.

4/ تاريخ الجزائر عريق أثيل ولا يعود إلى الفتح الإسلامي فقط.

ولتوظيف هذه الأهداف كان لزاما على مولود قاسم أن يغوص إلى ماضي الجزائر البعيد، وأن يبيّن كل فترة على حدى، وخاصة التاريخ المسكوت عنه، فرغم أنه من المتحمسين للفترة الإسلامية، وما صاحبها من عز للأمازيغ أنفسهم، الذين أتيحت لهم فرصة

---

[1]– حوار مولود قاسم نايت بلقاسم مع جريدة الجمهورية بتاريخ 1985/07/13 بعنوان حياة كاتب وحياة كتاب، ضمن كتاب أحمد بن نعمان، مولود قاسم نايت بلقاسم حياة وآثار، شهادات ومواقف، دار النعمان، الجزائر، دط، 2016م، ص82.

[2]–ينظر مقال مولود قاسم، الجزائر عظيمة، مرجع سابق، ص18.

[3]– مولود قاسم نايت بلقاسم، مفاهيم وصيغ خاطئة عن تاريخنا، مجلة الثقافة، العدد 94، السنة 16، 1986، ص15.

حكم أنفسهم، وتكوين دويلات أمازيغية خالصة بفضل الإسلام، إلا أنه اهتم "بحكم عرقه وبحكم جزائريته قبل ذلك بهذا البعد الهام (تاريخ السكان الأصليين لهاته الأرض)، من أبعاد الشخصية الجزائرية، ألا وهو البعد الأمازيغي تاريخا، ولغة، وقومية، وعرقية، الضامن الكبير لاستقلالية وأممية الشخصية الجزائرية وشعبها، وخاصة إذا تعلق الأمر بالتميز عن باقي الشعوب العربية، والشعوب الإسلامية"[1]، وقد كان لهذا الاهتمام ضريبته، إذ أصبح هدفا لسهام المنتقدين الإسلاميين، والتقدميين معا، فالإسلاميون يرون أن تاريخ الجزائر القديم ليس من تاريخ الجزائر المسلمة، وأن دعوى الرجوع إليه هي دعوة جاهلية، ولعل هذا السبب هو سبب الخلاف بينه، وبين شيخ المؤرخين الجزائريين أبي القاسم سعد الله، أما التقدميين فهم يرون أن التاريخ لا يكتسي أي أهمية في القرن العشرين، وأن علينا أن نبني دولة مدنية بعيدا عن القيود التاريخية، والإسلامية، وقد سماهم مولود قاسم اللقطيين والمنبطحين والمكحديين والمازوخيين، ولأجل ذلك يقول: "إن أمة لا تحافظ على الأساس والأصل، لن يكون لها في التاريخ فصل، تدخل المعارك بلا نصل، ولا تربطها بالجذر همزة وصل"[2]، وهي دعوة صريحة من مولود قاسم للجيل الجديد ليهتم بمقومات شخصيته، ويعيها، ويتمسك بها، وعليه أن يكون فخورا بها، وينتسب إليها، لأنها طريق خلاص ونجاة بالنسبة إليه، فهوية الأمة عند مولود قاسم هي "هوية تاريخية والتاريخ هو الذي يشكلها"[3]، ولذلك قيل "التاريخ ذاكرة الأمم"[4].

---

[1]– بوعلام جوهري، البعد الدعوي الأمازيغي في فكر مولود قاسم، ضمن كتاب أحمد بن نعمان، مولود قاسم نايت بلقاسم، حياة وآثار، مرجع سابق، ص451.

[2]– مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج1، ص31.

[3]– محمد الكوخي، سؤال الهوية في شمال افريقيا، مرجع سابق، ص18.

[4]– محاضرات وتعقيبات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي، الجزائر، المجلد الأول، 13 جمادى الثانية إلى 1 رجب 1392هـ، الموافق لـ 24 يوليو إلى 10 أغسطس 1972، ص7/5.

المطلب الثاني: المقوم الديني

اهتم مولود قاسم بالدين (الإسلام) اهتماما بالغا، بسبب تكوينه الديني من جهة، وأهميته الروحية والاجتماعية من جهة أخرى، لذلك دأب منذ تسلمه وزارة الشؤون الدينية – التي غير اسمها إلى وزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي ليربط بين الدين والعلم–على تنظيم ملتقيات الفكر الإسلامي في كل سنة، والإشراف على ذلك شخصيا، وبناء المساجد والمعاهد الإسلامية، بل إنه كان وراء فكرة بناء الجامعة الإسلامية الأولى في الجزائر (جامعة الأمير عبد القادر) تأسيا بالدول العربية الأخرى، وهذا دليل على اهتمامه الكبير بهذا الشق الروحي للأمة الجزائرية، ولهذا سنحاول استنطاق نظرة مولود قاسم للدين، وهل يعتبره مقوما ثابتا في الذات الجزائرية(العربية الأمازيغية)؟ أم يمكننا تجاوز هذه النقطة، وتحقيق النهضة دون العودة للدين (النظرة العلمانية للدولة).

تتبلور نظرة مولود قاسم للدين من جانبين هما: الجانب التشريعي؛ الذي يحتوي على أحكام الإسلام في تنظيم المجتمع، والجانب الفكري والإنوي؛ الذي يعكس هوية المنتسبين إليه[1]، غير أنه سرعان ما يتجاوز هذه الثنائية ليبين أن الإسلام ليس مجرد شرائع وعبادات، ذات الطابع الأخلاقي اللاهوتي الديني فقط، "بل حضارة من أعظم الحضارات ...بل هو الدولة هو ثقافة، وحضارة تربطها ببلاد أخرى"[2]. لقد أراد مولود قاسم بهذا القول أن يعيد فاعلية الإسلام، وعدم حصره في شرائع وعبادات قياسا بما فعلت الأمم الأخرى بأديانها لذلك يقول: "الإسلام دين ودولة... فهو فياض بالروحيات والأخلاقيات والمعنويات عامة، كما أنه دين العمل والجهد ودين القوة والجهد، وليس دين الاستكانة والمهانة، وقبول الجور، والاذلال، بل هو دين العدالة، والانصاف، ودين العزة، والأنفة، والشرف، ودين التساوي في الفرص، والامكانيات بالنسبة للجميع"[3].

---

[1]– محاضرات وتعقيبات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص 216.

[2]– حوار أجراه مولود قاسم مع جريدة الجزائر الأحداث بتاريخ 3–9 جانفي 1985، ضمن كتاب أحمد بن نعمان، مولود قاسم... حياة وآثار، مرجع سابق، ص62.

[3]– محاضرة ألقاها مولود قاسم تحت عنوان الإنية والأصالة، في افتتاح الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الإسلامي بقسنطينة 8–17 جمادى الثانية 1390هـ، الموافق لـ 10–19 أغسطس 1970م، ونشرت بمجلة الأصالة، العدد الأول، السنة الأولى، محرم 1391هـ الموافق لـ مارس 1971م، ص6.

وفي ضوء ذلك نجد أن مولود قاسم يريد أن يوجه الأمة الإسلامية لجعل الإسلام مصدرا للثقافة، مخرجا لكل أزمة، وذلك عن طريق إعادة تشكيل العقل الجمعي العام للمسلمين، على المستويين الفكري والثقافي، بحيث يصير الاسلام "العنصر الدائم لحياتنا الروحية العليا"[1]، وبذلك تتحقق اللحمة الإسلامية (الإسلام الإنوي)، كم يدعو المسلمين لتغيير مفهومهم للإسلام، وأن يخرجوه (أي الإسلام) من الدائرة الضيقة التي حصروا وجوده داخلها (دائرة العبادات).

"إن مفهومنا للإسلام على أنه فرائض الوضوء، وسننه، ومستحباته خطأ، فليس هذا هو الإسلام كله، الإسلام دين ودولة، الإسلام نظام اجتماعي متكامل، الإسلام يشمل جميع وجوه الحياة، الإسلام حضارة وفكر، الإسلام دنيا وآخرة، والقرآن ذكر الدنيا قبل الآخرة في كل مرة ذكر الاثنين معا"[2]، ولهذا يكرر مولود قاسم في كل مرة أن الإسلام جاء لينظم حياة الإنسان على المستويين الاجتماعي، والحضاري، وما على المسلمين اليوم سوى تفعيل هذه الأهداف للخروج من أزمتهم، لأن الإسلام يمثل "ثورة شاملة لمختلف نواحي النشاط الإنساني، بما تشتمل عليه من قيم ومعاني... جاء ليعلن ثورة على الجهل... الإسلام ثورة على الجمود، والركود، والتقليد، والتبعية العمياء"[3]، وهذه بحد ذاتها قيمة حضارية، واجتماعية للعوام قبل الخواص.

أما في الجزائر فيرى مولود قاسم أن الإسلام لعب دورا كبيرا في حفاظ الجزائر على إنيتها، ولطالما كان يستحضر كمكون لهوية الجزائر "أما الجزائريون فكانوا يقولون الإسلام الذي كان إنيتهم أو هويتهم... كانت الإنية في نظر الجزائريين هي الإسلام"[4]، وهو ما ساهم في بقاء الجزائر ضمن دائرة الدول الإسلامية، رغم ما مرت به من محاولات المسخ، والنسخ، والمسح، "فبالإسلام حمينا أنفسنا من المسخ والاندماج ، وبالإسلام قاومنا بالأمس... وبالإسلام قام الكفاح السياسي والثوري والإصلاح الديني في الجزائر"[5]، وفي هذا إقرار بالدور

---

[1]– مولود قاسم نايت بلقاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، ص62.

[2]–مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج1، ص199.

[3]–مولود قاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، ص212/211.

[4]–مولود قاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج2، ص83.

[5]–المرجع السابق، ص350.

الكبير للإسلام في صنع الملحمة التاريخية للجزائر المستقلة، جاء ذلك في خضم استعراضه لتاريخ المقاومة الجزائرية، منذ أن بدأت الجزائر تتعرض للحملات الصليبية أيام حروب الاسترداد، وصولا إلى المقاومة الجزائرية للاستدمار (كما يحلو له التعبير عنه) الفرنسي على مدى قرن وربع القرن من الاستدمار، ففي حوار لمندوب مجلة الثقافة المصرية عبد العالي الحمامصي بمناسبة انعقاد الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي بورقلة سنة 1977م، بيّن مولد قاسم أن "كل ثورات الجزائر قامت باسم الإسلام ومن أجله... وكان لابد أن يكون هذا الكفاح الطويل باسم الإسلام، هو صاحب التأثير الأوحد في كل الذين رفعوا السلاح ليعيدوا للجزائر استقلالها، وليعيدوها للعروبة والإسلام"[1]، وهو ما يوضح الدور الكبير للإسلام، في تدعيم الثورات الجزائرية وزيادة اللحمة بين الجزائريين، منذ أيام الأمير عبد القادر إلى الثورة التحريرية المباركة.

لقد حاول مولود قاسم منذ استلامه حقيبته الوزارية أن يربط بين تاريخ الجزائر، وتاريخ الأمة الإسلامية، لأن المشترك بينها هو الإسلام، ففي رده على نخبة من الأساتذة الذين احتجوا على إدراج تاريخ الجزائر، كمحور من محاور الملتقى في كل مرة، بحجة أن تاريخ الجزائر يعني الجزائريين وحدهم، رد مولود قاسم بأن تاريخ الجزائر "من صميم الإسلام، صميم التاريخ، تاريخ الكفاح في هذه البلاد، البلاد التي تعرضت للإدماج، والمسخ، والاذابة، والتمسيح، وكذلك البدائية، لأن هذه البلاد كانت متحضرة قبل الإسلام"[2]. وكأني بمولود قاسم هنا يبحث عن الجامع بين الجزائر والدول الإسلامية الأخرى، ولم يجد غير الإسلام كناظم تنتظم حوله جميع الدول الإسلامية، لأنه "لولا الإسلام لما تحرر بلد من هذه البلدان، وبدونه لن يتحرر أي بلد من بلاد الإسلام"[3]، وقد قال هذا الكلام بمناسبة الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي سنة 1972م، وبحضور شخصيات وعلماء من كل بقاع العالم الإسلامي، كما انتقد كل من يحاول أدلجة الإسلام وربطه بالعرب والعروبة، سواء داخل الجزائر أو خارجها، فلطالما كان يستحضر الإسلام كمفهوم هوياتي، وممارسة سياسية، تكون

---

[1]– مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج2، ص257.

[2]– مولود قاسم نايت بلقاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، ص 232.

[3]– المرجع نفسه، ص 355.

مرادفا للعروبة، ومكملا لها[1]، ليبين أن العرب دون الإسلام لم يكونوا شيئا، وأن الإسلام هو من صنعهم، "فإذا كان لكل بلاد أن تعتز بأصلها القديم فلا بأس بهذا، مادام لا يمس بما أتى بعده، وبما أسميه أنا نسخا لما قبله، وهو الإسلام الذي أتى بالحضارة التي تجمع، الذي أتى بالدين، والأخلاق، الذي أتى بالثقافة التي تجمع هذه الأمم كلها"[2]، فبفضل الإسلام استطاعت الجزائر أن تجمع كل هذا الجمع من العلماء، ومن شتى بقاع العالم، "هذا هو الإسلام كردي، وأمازيغي، وتركي، وعربي"[3]، وهي دعوة صريحة لإطلاق الحريات القومية الأخرى غير العربية كما يرى ذلك بوعلام جوهري[4].

لقد سعى مولود قاسم ليثبت أن الإسلام ليس دينا فقط بل هو دين، ودولة، ونظام اجتماعي قائم بحد ذاته، لذا لا يمكننا ربطه بالعرب وحدهم دون غيرهم، ولهذا فهو يمثل ذلك البناء الروحي والمادي للمسلم، الذي عليه اليوم أن يعيد له فاعليته، سواء الاجتماعية أو الحضارية، لأنه عرف مثل غيره عصور الركود والجمود والانحطاط، "إن الإسلام دين، ودولة، وأنه بصفته دينا سماويا كاملا، فهو فياض بالروحيات، والأخلاقيات، والمعنويات عامة، كما أنه دين العمل، والجهد، ودين القوة، والجهاد، وليس دين الاستكانة، والمهانة، وقبول الجور، والإذلال"[5]، وما على الانسان إلا أن يشغل فكره لاستخراج مكنونات القرآن، واستلهام القوانين لتحقيق العدالة الاجتماعية داخل الدول الإسلامية.

وفي ذات السياق نلحظ أن مولود قاسم يركز دائما على الجانب الأخلاقي، والاجتماعي للإسلام، ويحاول في كل مرة إبراز هذا الجانب، لتأثره بالنظام الاشتراكي الذي تبنته الدولة الجزائرية كخيار اقتصادي، لذلك نجده يسعى لإيجاد توليفة توافق بين الإسلام، والاشتراكية، خاصة من الناحية الاقتصادية، فنجده يذكر أن الإسلام ينبذ الطبقية، واكتناز الأموال، وعدم توزيعها على فئات المجتمع (اشتراكية الإسلام)، كما يسعى دائما للحديث عن

---

[1]–ينظر: محمد بودهان، في الهوية الأمازيغية للمغرب، منشورات تلويزا، المغرب، ط2، 2013، ص8.

[2]– مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج2، ص409.

[3]– المرجع نفسه، ج1، ص191.

[4]– بوعلام جوهري، البعد الدعوي في أعمال مولود قاسم، مرجع سابق، ص462.

[5]– مولود قاسم نايت بلقاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، ص112.

الزكاة باعتبارها "الركن الاجتماعي البارز في الإسلام"[1]، لقد كان الإسلام بالنسبة إليه دين الكرامة، والعدالة الاجتماعية، والقيم الأخلاقية، صالح لكل زمان ومكان، فهو (الإسلام) لم يتغير قط، بل المسلمون هم الذين تغيروا، فإذا أراد المسلمون العزة من جديد ما عليهم إلا الرجوع إلى "الإسلام الصحيح الذي هو ضد كل تخلف، وضد كل استغلال وكل تمييز، ففيه حلول لجميع المشاكل على تغير الزمان والمكان"[2]، لذا نجده في كل مرة يهاجم كل تلك الأصوات المنسلخة التي ترى أن الإسلام قاصر على مسايرة العصر، وعلينا أن نضعه وراء ظهورنا، ونبحث لنا عن أنظمة حديثة تتوافق والتدافع الحضاري الكبير في عالم اليوم، ليبيّن أن العيب ليس في الإسلام، وإنما في المسلمين أنفسهم الذين استكانوا للراحة واستسلموا للمركوبية، ولم يستطيعوا بناء نسق اجتماعي لا تزعزعه رياح التغريب، والعولمة، مذكرا إياهم بماضي الدولة الإسلامية التي سادت العالم فيما مضى، وكان الإسلام عماد الدولة آنذاك، فالإسلام ليس دمية جامدة راكدة نعلق عليها تمائمنا كما يقول، بل هو "نصوص ومقاصد، يدركها ذوو البصيرة كما تنفذ إلى الأجرام السماوية"[3].

لقد حاول مولود قاسم أن يربط بين الإسلام، وقيام الدول (خاصة الدولة الجزائرية)، لذا دعا كل الأطراف لتوظيف الدين في عملية الأصالية، والحفاظ على الإنية، كما بيّن حاجة الإنسان للطمأنينة، والاستقرار الروحي الذي لا يتهيأ له إلا من خلال الإسلام، لأنه دين الفطرة، كما يجب أن يكون الإسلام بطاقة الانية للشعب الجزائري، ووسيلة لتلحيم أطرافه بعيدا عن كل تلك النزاعات العرقية والفكرية، لأنه نظام حياة متكامل، كما دعا لمحاربة التبشير المسيحي الذي يحاول ذبذبة المسلمين الجزائريين ويحيدهم عن دينهم، ولا يكون ذلك إلا عن طريق التربية الدينية الإسلامية الصحيحة على الفهم الحقيقي للأشياء، كما يجب علينا أن نعمل كل ما نستطيع ضد استغلال الدين وامتهانه حتى لا يكون تعزية للعبيد، ومصدر استغلال لفئة معينة على حساب أخرى، لأنه من عمل الطغاة الذين يمتهنون الدين، ويستعملونه كمخدر للشعوب حتى لا يعيشوا الحياة الأرضية ويفكرون في الآخرة فقط.

---

[1]– مولود قاسم نايت بلقاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، ص345.

[2]– المرجع نفسه، ص592.

[3]– مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج1، ص228.

ينقل مولود قاسم عن فيخته أهمية التربية الدينية الصحيحة قوله: "إن تربية الشعب على التمسك بالدين والأخلاق هي أساس كل حكومة، وعلى الحكومة أن تؤسس معهدا دائما لهذه التربية الدينية، وهذا المعهد جزء لا يتجزأ من مؤسسات كل دولة حكيمة طيلة دوامها"[1]، ولهذا عمد مولود قاسم على تأسيس التربية الدينية داخل الجزائر عن طريق إصدار المجلات التي تعنى بالدين (مجلة الاصالة)، وبناء المعاهد، والمساجد، والجامعات، ووضع خطة لعمل الأئمة، وتكوينهم، كم عمل على تنظيم الملتقيات، إلقاء المحاضرات، وحضور الندوات، لأنه أدرك أن الدين هو السبيل لتخليص المجتمع من التخبط والشتات، فهو الدعامة الروحية التي بفضلها يستطيع أفراد المجتمع الالتفاف حولها وقت الأزمات، "لقد كان هدف مولود قاسم جعل الدين ثقافة وأيديولوجية ومرجعية فكرية لصنع أعراف المجتمع ولو حتى بعيدا عن تغير السلطان"[2].

لقد تبين لمولود قاسم بفضل اطلاعه التاريخي أن الإسلام لعب دورا كبيرا في انتظام المجتمع الجزائري، فهو الذي يوحّد صفوفهم، ويجمعهم على كلمة واحدة، ولا أدل على ذلك أنّ جميع الانتفاضات والثورات التي وقعت في الجزائر منذ الاحتلال الفرنسين لعب الدين الدور الرئيسي في إشعال فتيلها، فالإسلام يمثل رمزية دينية مقدسة عند الجزائريين، وهو بمثابة رأس المال الحضاري الذي لا ينضب، غير أننا لا يجب أن نربطه بالعالم السماوي غير الحسي، حتى لا يستقيل المواطن الجزائري من الحياة ويكون مصيره الزوال، بل علينا أن نجعله محور الحياة حتى نستطيع التأثير في حياة الناس ونبعث حضارتنا من جديد.

"أما دور الإسلام اليوم في الجزائر فلا يقل عن دوره بالأمس، كان في الماضي يمثل حصانتنا ضد اقتلاع الذات، وهو اليوم يعزز فينا فعاليات هذه الحصانة، والمناعة في مواجهة كل الأيديولوجيات وتصفية كل رواسب الاستدمار، وكل ما يرد إلينا من أنواع فكرية تستهدف التأثير في مقوماتنا، وخصائصنا من أية جهة جاءت، وبأي لون تسربلت"[3]، ولهذا وجب على الدولة الجزائرية حماية الإسلام من خطر التبشير المسيحي (التنفير كما يحلو له التعبير عليه) الذي تمارسه مؤسسات مسيحية في الجزائر، وأن لا تستهين بهذا الخطر،

---

[1]– مولود قاسم، أصالية أم انفصاليه، مرجع سابق، ج2، ص368.

[2]– بوعلام جوهري، البعد الدعوي، مرجع سابق، ص230.

[3]– المرجع السابق، ج2، ص256.

ويجب عليها أن تتصدى له، لأن هذه العمليات تهتم بالكيف لا بالكم، فهي تركز على فئة الطالبات والشباب، وبالتالي فإن الأسرة الجزائرية في خطر مستقبلا، وهو ما ينبئ بخراب المجتمع الجزائري وتفتيته.

وبناء على ما سبق نرى أن الدين عند مولود قاسم يتقولب في هياكل ثلاثة هي:

1/ اعتماد الدين بطاقة تعريف للمجتمع الجزائري، وعنصر توحيد، وتلحيم بين جميع أطيافه.

2/ اعتماد الدين ثقافة، وأيديولوجية، ومرجعية فكرية تحصن الجزائر من كل فكر دخيل.

3/ اعتماد الدين نظاما للحياة الأرضية قبل السماوية، وربطه بالوطن، واستمرارية وجوده.

بحيث يشكل الجانب الأول تجسيدا للإنية، وإنشاءً لها ومحافظة عليها، ويشكل الثاني، والثالث تجسيدا لعملية الأصالة[1].

وقد لخص مولود قاسم كل تلك الأهمية الدينية بقوله "إني بديني الذي تربطني روحانيته وعقلانيته بالمولى وبأهلي ووطني وبأمتي وبالإنسانية كإنسان، وإني لبتراث أمتي هذه مرتبط بتقاليدها، ليس فقط كإنسان، أي حيوان مفكر، ولكن كعضو حي مثل أي عصفور مرتبط بسربه، متعلق بنوعه، وحدة مستقلة وفي الوقت نفسه جزء لا يتجزأ من كل... إن الإسلام بالنسبة لنا أنفاس وجودنا وهواء حياتنا"[2]، إنه الناظم الذي يجب أن تنتظم حوله جميع تشكيلات المجتمع الجزائري، لأنه بمثابة اللحمة التي سوف تعجن الجزائريين، وتضمن تراصهم، وهو العنصر المشترك الذي يبدأ منه التوحد، والالتحام بين مختلف باقي أبعاد الشخصية الجزائرية.

---

[1]- بوعلام جوهري، البعد الدعوي، مرجع سابق، ص 216/215.

[2]- المرجع السابق، ج1، ص69.

المطلب الثالث: المقوم اللغوي

تعتبر اللغة "القوة الطبيعية الأولى لأمة من الأمم"[1]، وهي من أقدم تجليات الهوية بالنسبة لعلماء اللسانيات، لذلك حظيت باهتمام كبير من طرف الأمم على مدى فترات التاريخ المختلفة، لما تمثله من قوة طبيعية للتعبير عن نفسها، وحفظ تراثها، ما أهّلها لتكون مثار الجدل بين الباحثين لعقود طويلة، ومع مطلع الألفية الجديدة، طفى إلى السطح سؤال الهوية، والذي لطالما ارتبط بمشكلات اللغة، ولعل الجزائريين لم يكونوا بمنأى عن هذا الجدل، خاصة مع ما عرفته الجزائر من صراع عبر تاريخها، الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن موقع مشكلة اللغة في حياة الجزائريين وكيف تعامل الجزائريون مع هذه المشكلة اللغوية؟ لكن قبل ذلك علينا أن نتطرق إلى مفهوم اللغة عند مولود قاسم؟ وما دورها؟ وهل هي أداة أم غاية بالنسبة إليه؟ وكذا موقفه من الازدواج اللغوي في الجزائر؟

تعتبر اللغة كما يقول عمر ظاهر[2] جزءًا من شمولية الخلق، وهي ذات أبعاد فيسيولوجية ووجودية، وطبيعية، تلعب دورا هاما في صياغة عقلية الفرد، والمجتمع لذا يعرفها ادوارد سابير بأنها "وسيلة للتواصل الإنساني تحديدا... وتهدف لتوصيل الأفكار والعواطف والرغبات بواسطة نسق من الرموز"[3]، أو هي "تلك الأصوات التي تخرج من فم الإنسان بصورة مرتبة لتعبر عن أفكاره وتصوراته الداخلية، وأيضا ليستطيع من خلالها توصيل ما يريد إلى الآخرين"[4]، أي أنها عبارة عن "نظام من الرموز الصوتية"[5]، التي بواسطتها يتفاعل الإنسان مع غيره، ويقيم بها علاقاته، ولهذا نجد أن مولود قاسم يسير في هذا المنحى، حين اعتبر أن اللغة " قالب تصاغ فيه أفكارنا، وأحاسيسنا، نعبر بها عن كنهنا

---

[1]–مولود قاسم نايت بلقاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، ص185.

[2]–عمر ظاهر، تأملات في فلسفة اللغة –خصوصية اللغة العربية وإمكاناتها–، الرافدين للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2008، ص86.

[3]– بشير خليفي، الفلسفة وقضايا اللغة قراءة في التصور التحليلي، الدار العربية للعلوم ناشرون–منشورات الاختلاف، لبنان–الجزائر، ط1، 2010، ص31.

[4]– مها محمد فوزي معاذ، الأنثروبولوجيا اللغوية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية/مصر، دط، 2011، ص11.

[5]– أليس كوراني، اللغة والمجتمع عند العرب–الجاحظ نموذجا–، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2013.

وحقيقتنا، تصطبغ بها هذه الأفكار، والأحاسيس، بالضبط كما تتأثر هي؛ أي اللغة بهذه الأفكار، والأحاسيس التي تعبر عنها، والتي تحملها شحنة معنوية قوية تعطيها طابعها المميز والخاص بها"[1]، ولذلك لطالما اعتبرت اللغة خاصية إنسانية بحتة، ارتبطت بوجوده ولعبت دورا حاسما في تطوره، فهي كيان في حد ذاتها، "إن اللغة هي التي تكون الإنسان، وهي التي تؤثر فيه، فهي صدى روح الأمة، وتؤثر في التصورات، وتصبغ عليها معاني وألوانا، هي التي تجعل الإنسان من هو، وليست مجرد أداة يعبر بها عن نفسه، بل هي الإنسانية التي تبرز منه على شكل أصوات خاصة معينة... وبها يتفاهم مع من يشاركونه نفس التصورات"[2].

انطلاقا من التعاريف الثلاثة الأولى نجد أن للغة خصائص تنفرد بها هي:

1/ أنها نظام عام يشترك فيه جميع الأفراد.

2/ أنها من صنيع طبيعة الاجتماع البشري، وتنبعث عن الحياة الجمعية لهم.

3/ هي تعبير عمّا تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر وتبادل الأفكار.

4/ هي أداة للتعبير عن ثقافة المجتمع.

5/ هي التي تؤطر الفرد، بحيث يتلقاها بطريق التعلم، والتقليد، ويصير مضطرا للخضوع لها.

6/ هي أحد مكونات الوجود الثقافي لأي مجتمع.

7/ ارتباطها مع الحضارة بعلاقة اطرادية، إذ تتغير اللغة من حيث البنية، والمصطلحات بتغير حضارة المجتمع حتى تسايرها، وتفي بحاجات من يتكلمون بها.

8/ هي السلوك الاجتماعي الكامل.

وفي ذات السياق يرى الكثير من الباحثين أن اللغة ترتبط ارتباطا وثيقا بشخصية الأمة، فالأمة لا تستطيع أن تعتبر نفسها أمة إلا إذا حازت لنفسها لغة، وحافظت عليها، يقول مولود قاسم على لسان فيخته أن اللغة هي "العنصر الأساسي لشخصية كل أمة تسمي نفسها أمة، وتستحق أن تتسمى كذلك، وتريد لنفسها الكرامة والخلود"[3].

---

[1]– مولود قاسم نايت بلقاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، ص184.

[2]–المرجع نفسه، ص57.

[3]– المرجع نفسه، ص54.

فاللغة الأم؛ هي القانون الأول الذي يفرض نفسه على كل فرد، وتقوده للانتقال من الطبيعة إلى الثقافة، وبالتالي يصبح الشخص قادرا على تمثل العالم الذي يعيش فيه، فالحديث عنها إذًا يتضمن بالضرورة الحديث عن الدين، والعلم، والعقل، والثقافة، فهي "المفتاح الوحيد، والمدخل الفريد لهذا كله"[1]، ولهذا فهي تكتسي أهمية كبيرة من خلال ما تؤديه من أدوار في حياة الانسان، والمجتمعات، فهي وسيلة الصلة بين الإنسان، وبيئته، كما أنها خير دليل يهتدي به الباحث إلى معالم المجتمعات الحديثة، وتشغل حيزا مهما بين أعضاء المجتمع الواحد لما تمثله من وظائف اتصالية بين أفراده[2]، كما تعبّر عن أفكار الإنسان وتنظم تجربته الاجتماعية، وبالتالي تتجلى من خلالها رؤيته الكونية[3]، ولهذا فهي تمثل البعدين[4] التاليين:

1/ وسيلة تواصلية بين الإنسان وغيره: إذ يستحيل على بني البشر العيش في عزلة.

2/ وسيلة معرفية: بفضلها يتمكن الإنسان من تجاوز وجوده البدني، والمادي إلى وجوده الفكري.

"إن اللغة حاملة لهوية، قيم، تاريخ، ومعنى، إنها تحقق التلاحم الاجتماعي، وتدعم تنامي الإحساس بروح الانتماء إلى المجموعة"[5]، ولهذا لعبت دورا تاريخيا مهما، نتيجة تداخلها مع مجالات أخرى كالثقافة، والعلوم، والهوية، فقد لعبت دورا كبيرا في انبعاث دولا، وانمحائها، "ففي التاريخ الحديث لعبت اللغة دورا رئيسيا في تكوين وانبعاث دول أو دويلات، فمعروف تعصب الفلاميين في بلجيكا للغتهم، وحرصهم على خلق فروق بينها والهولندية

---

[1]– خليل حلمي خليل، التخطيط اللغوي وتلوث اللغة، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 2، 2000، ص11. [دار النهضة العربية، بيروت]

[2]– ينظر: إبراهيم السامرائي، دراسات في اللغة، مطبعة العاني، بغداد، دط، 1961، ص140.

[3]– ينظر: أنور محمود زناتي، اللغة العربية ودورها في التواصل الحضاري بين الشعوب، دورية كان التاريخية، العدد 13، سبتمبر 2011، ص74/77.

[4]– جون جوزيف، اللغة والهوية قومية–إثنية–دينية، ترجمة: عبد النور خرافي، عالم المعرفة –سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب–، الكويت، أغسطس 2007، ص35.

[5]– شمامة خير الدين، إشكالية اللغة العربية بين مخلفات الاستعمار وضغط العولمة، ضمن كتاب: اللغة والهوية في الوطن العربي –إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية–، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط1، 2013، ص120.

وذلك لنسيان عهد الاحتلال، وكلنا نعرف الدور الذي كان للغة في انبعاث الأمة التشيكوسلوفاكية فقد حاول كل من النمساويين، والألمان احتقار التشيكية واعتبارها لهجة أفظاظ"[1]، ولهذا كانت اللغة الأساس الصلد الذي تقوم عليه قصة الأمم، ولذلك لطالما اعتبرت وعاء حاملا لهوية المجتمعات وتاريخها، والأصل الذي تعود إليه الأمم لتثبت وجودها، فهي تنّمي الإحساس بروح الانتماء إلى المجموعة، ولذلك يعتبر مولود قاسم اللغة الأداة الفعّالة في تحريك باطن الإنية، حتى تتمكن الأمم من التعبير عن مجدها وخلودها[2].

إن اللغة بالنسبة للعقلاء ليست وسيلة تواصل فحسب، بل هي الكيان، والهوية، والبيت الجماعي الذي يختزن الذاكرة، والوجود، لها دور كبير في تكوين شخصية الأفراد، وتبلور هوية المجتمعات، والدول، ولا يضاهيها شيء في هذه الوظيفة، حتى الجغرافيا ستنهزم أمام قوة اللغة وشاعريتها، لأن هذه الأخيرة هي "الوعاء الحاوي للثقافة... وشكلت معرفتها أهم ركيزة لتحصين الهوية والذات والشخصية، وإن الدفاع عنها واجب بالضرورة يضمن للأمة استمراريتها وتحفظ لها مكانتها المنوطة بين الأمم"[3]، ومن هذا المنطلق وجب على الأمم أن تعيد ترتيب أولوياتها، وأن تسعى لتحصين لغاتها "لأنها التي تكوّن الخلية، وتطبع الانسان بطابعها، وتشكله بشكلها، وتؤثر فيه التأثير العميق الذي يجعل منه إنسانا آخر بمميزاته الخاصة به... إنها تلك القوة الطبيعية العارمة التي تتدفق تلقائيا، وتؤثر في الإنسان، والحياة تأثيرا مباشرا فعّالا بما تشحنه من طاقة كامنة، وقوة ديناميكية فياضة تدفع إلى الأمام"[4]، فهي من منظور مولود قاسم تأثر حتى في إبداع الإنسان، لأن تأثيرها يمتد إلى تفكيره، وإرادته، وعواطفه، وتصوراته، وإلى أعماقه، فيصبح الإنسان أسير هذه التصورات، ومتكيف بها.

---

[1]– مولود قاسم نايت لقاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، ص29.

[2]–عليش لعموري، المقومات الأساسية في بناء الإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم (1992/1927)، ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول سؤال الهوية والإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم الفلسفة، جامعة الحاج لخضر، باتنة/الجزائر، 2010، ص 384.

[3]– جون جوزيف، اللغة والهوية، مرجع سابق، ص7.

[4]– مولود قاسم نايت بلقاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، ص58/57.

يرى محمد بن عبد الكريم الجزائري[1] أن اللغة ليست مجموعة من الأصوات ومقاطع الكلمات بل هي مرآة تعكس عادات الإنسان وقيمه، كما أنها مفتاح عام لأبواب العلوم والآداب والفنون، وأن علاقتها بالثقافة هي علاقة الروح بالجسد، وليست علاقة أداة ووسيلة، فمن استعار لغة غيره، فقد استعار فكره، وسلوكه، لأن اللغة سلوك، وتفكير قبل كل شيء، وهو ما يبين أهمية اللغة في تميز الأمة، وتحقيق تفردها.

"إن الأمة التي لا تؤمن بنفسها لا وجود لها، فإذا لم يكن لشعبها طابع خاص به يعبر به عن نفسه، وخصائصه، ومميزاته، وطرقه الخاصة به في الحياة، فلا وجود له، واستقلاله سطحي لا يدوم، إن الطريقة الوحيدة لأي شعب من الشعوب لأن يعبر عن وجوده هي الثقافة، والوعي بالطابع الخاص الذي يميزه عن غيره... وما هو هذا الطابع الخاص، وتلك المميزات، إذا لم تكن اللغة من بينها"[2]، ولهذا سنحاول تبيّن علاقة اللغة بالأمة، والفكر، وكذا علاقتها بالهوية، والحضارة وهل هي أداة أم غاية؟

يرى مولود قاسم أن للغة قوة كبيرة في صناعة الفرد ومن ثمّ الأمة، فهي تمثل القوة الطبيعية للإنسانية، "إنها هي التي تكوّن الخلية، وتطبع الإنسان بطابعها وتشكله بشكلها وتؤثر فيه التأثير العميق الذي يجعل منه إنسانا آخر بمميزاته الخاصة به"[3]، وبالتالي فهي تؤثر في طريقة تفكيره، وتصوراته لما لها من إمكانات، وملكات "إن اللغة ليست إلا الصورة الخارجية للتفكير والإحساس، والواقع أنها أكثر من هذا، فهي تلك الصورة التي تعطي محتواها لونا، وشكلا، وقواما، فهي ذلك التيار الذي يبعث الروح في جميع أركان الكيان الوطني، وذلك الاسمنت الذي يضمن، وحدة البنيان القومي الذي بدون تلاحمه لا يمكن أن يكون أي كيان لأمة من الأمم"[4]، فتأثيرها إذا يتعدى الإنسان ليبلغ محيطه، لما تحمله من شحنات عاطفية، وتصورات ومفاهيم تصبغ الأمة بروحها.

---

[1]– ينظر: محمد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كل أمة روح ثقافتها، دار الشهاب، باتنة/الجزائر، دط، 1989، ص 10/8.

[2]–مولود قاسم نايت بلقاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، ص77.

[3]– مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج2، ص370.

[4]– مولود قاسم نايت بلقاسم، قيمة اللغة في نظر الأمم، مجلة الأصالة، العدد 24، السنة الرابعة، ص2.

إن اللغة كيان اجتماعي حي، لارتباطها بالطبيعة التي تمدها دائما بالقوة الكافية لتصمد أمام المتغيرات الكثيرة للإنسان، والمجتمع، خاصة أمام التغير الفكري الذي يحصل في عالم اليوم، يقول دونلاب: "عندما ندرس بنية اللغة في شعب ما فإننا ندرس صور وطرائق تفكيره، وعندما ندرس مفرداتها فإننا نكتشف نماذج مميزاته"[1]، وهو ما ذهب إليه الجابري، الذي يرى أن المنظومة اللغوية لشعب ما تؤثر في طريقة رؤية أهلها للعالم "وكيفية مفصلتهم له، وبالتالي في طريقة تفكيرهم"[2]، فإذا ما نحن حصّلنا لغة قوم ما فبإمكاننا بعث تلك الأمة من جديد، لأن لسان كل أمة يحمل بين ثناياه صورة العالم، فاللغة إذن "إحالة للفكر... وكل لسان يغير العالم وفق خصوصية التدفق اللغوي المنساب من جوف الفكر"[3]، وهنا يظهر جليا قيمة اللغة في تبلور الفكر الإنساني، فهي التي تعبر عنه، وتنزع عنه تلك الضبابية، وتحوله إلى واقع، فاللغة إذن "مرآة المتكلم بيها"[4].

إن اللغة عند مولود قاسم هي رمز وجود الأمة، وبقدر أصالة اللغة، والمحافظة عليها تتحقق أصالة الأمة، لأن اللغة تضّم عنصر التراب، والأرض، فإذا كانت الهوية تعني الخصوصية والتميز في آن واحد، فإن ما يميز الشعوب عن بعضها هو دائما الموطن واللغة، وهما يشكلان قاعدة عامة تسري على هويات كل شعوب الدنيا، فاللغة عنصر أساسي من عناصر شخصية أية أمة من الأمم، لها علاقة متينة ومتداخلة بالمجتمع، ويمتد ارتباطها إلى النظم السياسية، والاجتماعية، والتقاليد الثقافية، والقيم الأخلاقية، لأنها المعبر الوحيد عن كل هؤلاء، إن "اللغة ظاهرة ثقافية اجتماعية في علاقة متينة مع الوضع الذي يعيشه المجتمع، إذ من الممكن أن نُماهي بين الواجهة اللغوية لمجتمع ما، ووجوده

---

[1]– أحمد عبد الرحمان حماد، العلاقة بين اللغة والفكر –دراسة للعلاقة اللزومية بين الفكر واللغة–، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 1985، ص22.

[2]– محمد عابد الجابري، العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، ضمن كتاب: البحث اللساني والسيميائي، سلسلة ندوات ومناظرات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء/المغرب، ط1، 1984، ص44/43.

[3]– مراد ليمام، سؤال الهوية في نظام الخطاب العربي –مأزق الأصل في الأنطولوجيا الإسلامية–، افريقيا الشرق، الدر البيضاء/المغرب، دط، 2018، ص17/16.

[4]– مولود قاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، ص9.

التاريخي"[1]، وهو ما يبين أن اللغة تتغذى على النظم، والعادات، وحتى الدين، وكلها تلعب دورا مهما في تطور اللغة، "فكل تحول اجتماعي ينعكس بالضرورة على النسق اللغوي"[2]، فاللغة تساير الحضارة وتواكب حركة الحياة في تطورها، مما يحيلها على التبدل والتحول، الذي دائما ما يكون مقرونا بـ:

1/ الأسباب التاريخية: التطور الذي يطرأ على العلوم، والتقنيات، والنظم، والتقاليد.

2/ الأسباب اللسانية: ومنها العلل الصوتية كالاستثقال، والتقاء، والساكنين...

3/ الأسباب الاجتماعية: كالطبقية مثلا أو العرق أو المجاورة[3].

إن اللغة ليست مجرد وسيلة لإيصال المعلومات بل هي "وسيلة المرء للتحكم في بيئته"[4]، تضطلع بدور كبير في تشكيل هوية الناس، وتميزهم عن الآخرين، فاللغة أداة مهمة لتمييز المجتمعات، وإعطائها صفات خاصة تتفرد بها عن المجتمعات الأخرى، ولذلك إذا ما أردنا توصيف الواقع اللغوي في الجزائر، فعلينا نأخذ بعين الاعتبار التوزيع السكاني للشعب، فسكان الحضر، والمدن الكبرى، ونتيجة لاحتكاكهم بشعوب وافدة كثيرة، ومتنوعة، تراوحت لغتهم بين الأمازيغية القديمة، والبونيقية، واللاتينية، والعربية، والتركية، والفرنسية نتيجة غلبة تلك الشعوب، في حين حافظ سكان البدو (القبائل) على لغتهم الأصلية، وبالتالي نستطيع من خلال اللغة أن نمسك بمفاصل الفوارق اللغوية، والاجتماعية للسكان، فلغة مجتمع ما؛ عادة ما تحاكي واقعه الجغرافي والاجتماعي، وبالتالي فإن الاختلاف الطبقي بين السكان

---

[1]–ناجية الوريمي، النهضويون العرب من تجديد اللغة إلى تجديد الخطاب –مقاربة نقدية–، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي –إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية–، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسيات، قطر، ط1، 2013، ص149.

[2]–بيتر ترادجل، السوسيوليسانيات–مدخل إلى دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع–، ترجمة: محمد كرم الدكالي، افريقيا الشرق، الدار البيضاء/المغرب، دط، 2007، ص24

[3]– ينظر: حنفي بن عيسى، أثر المجتمع في تبدل اللغة، مجلة الثقافة، العدد 29، أكتوبر/نوفمبر 1975، ص44.

[4]– عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي –دراسة وتوثيق–، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة/قطر، ط1، 2014، ص80.

داخل المجتمع الواحد سينعكس لا محالة على لغة أفراده، "فاللغة تتباين إذا بين الأفراد بحسب موقعهم وثقافتهم، كما أنها تتباين وفق المواقف والأحداث"[1].

ترى خولة طالب الإبراهيمي أن الخارطة اللغوية في الجزائر هي عبارة عن فسيفساء لغوية، فإذا كان عامل الزمن، والحفريات يعذرنا الوصول إلى ذلك التأثير الذي مارسته البونيقية، واللاتينية في اللسان الأمازيغي القديم، فإنه يمكننا اليوم التماس ذلك التغير الكبير الذي أحدثته العربية، والتي فرضت على الأمازيغية الانحسار إلى الجبال، بحيث أن المراقب للمشهد اللغوي الجزائري يرى أن أغلبية الجزائريين يتحدثون اللسان العربي، وعليه تتشكل القاعدة الهوية الاجتماعية في الجزائر حسبها عبر ثلاثة محاور هي:

1/ الهوية القاعدية: وتمثل المنشأ اللغوي الأصلي (عربي/بربري)، وتكون موسومة بالتدين الشعبي الحي، والتقاليد التي يرتبط بها الجزائري.

2/ الفضاء الوطني: ويمثل البلد الذي يعيش فيه، دون إغفال لانتمائه العربي، والإسلامي.

3/ تأثير اللغات الأجنبية: حتى تعزز خصوصيته[2].

إن هذه الفسيفساء اللغوية كانت، ولازالت مدار الصراع الهووي في الجزائري، فبين من يرى أن الجزائر عربية الأصل، واللسان، ويجب على الدولة أن تفرض اللغة العربية، وتهتم بها لترتقي إلى مستواها المعهود، تتعالى أصوات أخرى تنادي بضرورة مسايرة ذلك التنوع الإثني، واحترام خصوصية كل مكوّن من مكونات الأمة الجزائرية، بما في ذلك اللغة الأمازيغية، التي تعتبر اللغة الأصل في الجزائر، ويجب أن تنال فرصتها ضمن المنظومة التربوية الجزائرية، يرى طرف ثالث أن اللغة الأصل سواء أكانت عربية أم أمازيغية ليست مهمة، وعلينا أن نساير العصر، وأن نتبنى إحدى اللغات العالمية، ولما لا تكون الفرنسية التي هي غنيمة حرب، وجب الاعتناء بها هي الأخرى، ولهذا وفي إطار توصيف الواقع اللغوي في الجزائر علينا أن نتتبع مسار ذلك التطور اللغوي في الجزائر، ومحاولة بيان مساحة تأثيره، حتى يتحقق التعدد في إطار الوحدة.

---

[1]– أليس كوراني، اللغة والمجتمع عند العرب، مرجع سابق، ص24.

[2]–خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغوية –عناصر من أجل مقاربة اجتماعية لغوية للمجتمع الجزائري–، ترجمة: محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، ط2، 2013، ص75.

ومن هذا المبدأ انطلق مؤلفنا مولود قاسم في معالجة تلك المشكلة من خلال بيانه لأهمية اللغة في حياة الأمم ودورها في الحفاظ على إنيتها، وفقدان اللغة يجعل الأمة تعيش في شتات، فهي التي تكون الانسان وليس العكس، لما تحمله من معان، ورموز دينية، وسيادية، وما تحتويه كذلك من كنوز ثقافية، وحضارية، غير أنه وجبت الإشارة قبل ذلك أن المتتبع للخطاب القاسمي يجد أن مولود قاسم يقر بالتنوع اللغوي في الجزائر، ما حذا به أن يطلق غالبا في خطاباته كلمة اللغة مجردة حتى يفهمها كل واحد حسب ميولاته العرقية، وانتمائه اللغوي، غير أن اللغة العربية حازت على حيز كبير من اهتمامه، وذلك لما تحمله من ثقل ديني، ومعرفي، وتاريخي، ويرجع اهتمامه باللغة العربية إلى إدراكه في سن مبكرة للرصيد التاريخي، والشعبي للعربية في الجزائر، فكانت هجرته التعليمية إلى المشرق، بمثابة ترسيخ تلك القناعة، والرؤية للغة العربية، لذلك نجده يقول في أكثر من موضع أن انتساب الجزائر إلى العروبة (العروبة بمعناها اللغوي لا القومي) هو "حقيقتنا الجوهرية بعد الإسلام، وتعميق هذا الانتساب لابد أن يصاحبه أن تكون العربية هي اللغة صاحبة السيادة"[1].

يرى مولود قاسم أن اللغة العربية ارتبطت بفترة الصراع مع المستدمر الفرنسي، الذي لطالما حاول عزل الشعب الجزائري عن لغته الطبيعية، كما حاول أن يفرّق بيننا نحن الجزائريين عندما كان يقول أننا عرب وبربر، ولهذا كانت اللغة العربية أحد مطالب عهد الكفاح الثوري السياسي[2]، وهو ما يفسر حرص السلطات الجزائرية حسبه على إرجاع اللغة العربية إلى مكانتها الأصلية اللائقة بها، فكان التعريب الشامل للتعليم أولى خطوات تحقيق هذا المسعى، فمنذ تسلمه وزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي عمد إلى وضع برامج تعليمية تساهم في تعريب المنظومة التربوية الجزائرية، بدءا بلغة التعليم، ووصولا إلى مناهج التعليم، والتي يرى فيها الخلاص من التبعية المعرفية للخارج، مخالفا بذلك كل الأصوات التي نادت بأن العربية كأداة لمسايرة الركب الحضاري والتقدم التقني غير متهيئة وصالحة، ويجب اعتماد الفرنسية أو لغة أخرى كلغة للتعليم في الجزائر، ليرد مولود قاسم على ذلك بأن التعليم بغير اللغة القومية ممكن في ظل عالمية لغة ما مثل الإنجليزية، ولكن هذا لا يعني أن اللغة العربية لغة ناقصة، ولا تؤدي المضمون، فاللغة العربية تم تكييفها حتى أصبحت لسان

---

[1]– مولود قاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج2، ص259.

[2]– مولود قاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، ص80.

الحضارة الإنسانية جمعاء، واستوعبت جميع العلوم الفلسفية والطبية والرياضية، وبها كتب علماء المسلمين الأوائل وبها سادوا العالم، فبها كتب ابن رشد وابن سينا، حتى إنها صارت "اللغة التي يتكلم بها أحيانا في القصور الغربية كصقلية وباليرمو"[1]، كما أن اللغة ليست مجرد أداة ووسيلة للمعرفة والتفاهم بين الناس، بل هي غاية في حد ذاتها، تتصل بهياكل الفكر، فهي بذلك تتحكم في أعمال الإنسان كلها، كما تعتبر "الوسيلة المثلى التي تمكن الإنسان من أن يتجاوز وجوده البدني والمادي على وجوده الفكري"[2]، قاطعا بذلك الطريق أمام كل أولئك الذين أرادوا للغة الفرنسية أن تحتفظ بمكانتها في الجزائر، كما انتقد كل تلك الأصوات التي تدعو إلى إحلال العامية مكان العربية، أو استبدال الحروف العربية باللاتينية، حيث يقول: "إن الذين يدعوننا إلى العامية يريدون أن يبعدوننا عن هذا الصرح (القرآن)، هذه القمة، عن هذا النصب الحي الدائم"[3]، فاللغة العربية بالنسبة لمولود قاسم ملازمة للقرآن، ولهذا فإن اختيار العامية للتعليم لن يزيد الأمة إلا تشتتا وتفرقعا، فتموت بذلك اللغة العربية وتفقد فاعليتها وبالتالي يتحقق ما رغب فيه المستدمر منذ وصوله إلى الجزائر.

يرى مولود قاسم أن إهمال اللغة الوطنية (العربية) وإحلال الفرنسية مكانها، يجعل الدولة في خطر الغزو الخارجي، "فالذي يفقد لغته يفقد الخيط الذي يصله بالأجداد، ويفقد معها حلقات ماضيه، ويشعر بفجوة عميقة حقيقية في تطوره، ينقطع عن أصله كجلمود صخر انفصل عن الصخرة الأم، وحطه السيل من عل، فجرفه، وقذف به بعيدا إلى أعماق الذوبان، والانمحاء، واللاوجود"[4]، وبالتالي تضمحل هذه الدولة أو الأمة إنيتها وذاتيتها وتصبح تابعة لغيرها معرفيا وتاريخيا، فاللغة بالنسبة إليه تسير جنبا إلى جنب مع الاستقلال، فإحلال اللغة الفرنسية مكان اللغة الوطنية هو بمثابة بناء جسور اجتماعية، وهوياتية مع المستعر القديم، فاللغة هي مقدمة لخلق روابط اجتماعية بين الناس، "إن الشعب المتأثر بلغة أجنبية يبتلع بدون شعور حتى الشتائم الموجهة إليه، ويتبناها ويوجهها إلي نفسه رغم أنها ضده، وعندما يفيق من ذلك فكل ما تبقى له هو محاولة التجرد من نفسه، وتقمص شخصية

---

[1]– المرجع السابق، ص252.

[2]– أحمد بن نعمان، مولود قاسم حياة وآثار، مرجع سابق، ص 490.

[3]– مولود قاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق ، ص307.

[4]– مولود قاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج2، ص371.

الأمة الغالبة ماديا، أو روحيا، أو كليهما معا حتى يتم اندماجه فيها كلية، ولا تنطبق عليه كلمات التحقير المخصصة لبني قومه"[1] لذلك نجد يلح في الكثير من المرات على ضرورة تعزيز اللغة العربية، والعناية بها، ففي مقال له نشر بمجلة الجزائرية تناول مولود قاسم قضية معركة التعريب، وبيّن فيه أن الأمم تسعى لتعزيز لغتها على حساب اللغات الأخرى مستشهدا بما فعله اليهود، وفرنسا نفسها، التي سعت بكل الطرق إلى أن تبقى الفرنسية هي لغة مستعمراتها، وكانت لا تتوانى في إدراج هذا الشرط (التعاون الاقتصادي والتعليمي ما بعد الاستقلال) في مفاوضات الاستقلال مع جميع الدول، ولأجل ذلك قامت بإنشاء المجالس اللغوية لأجل تحقيق هذا الهدف، فقد أورد مولود قاسم من خلال مقاله بأن فرنسا أنشأت مؤخرا ثلاثة مجامع لغويه هي:

1/ المجلس الأعلى للفرنكوفونية: يرأسه رئيس الجمهورية نفسه، ومهمته ضمان ازدهار اللغة الفرنسية في فرنسا والعالم.

2/ المندوبية السامية للغة الفرنسية.

3/ المجلس الاستشاري للغة الفرنسية: ومهمة هذين المجلسين؛ العمل على ترقية اللغة الفرنسية، ونشرها في العالم، وضمان حسن استعمالها[2]، فإذا كان هذا هو حال الدول المتقدمة، والتي لم تتعرض طوال تاريخها لأي محاولات للمسخ، والنسخ فكيف بنا نحن الذين عانينا من محاولات عديد للإلحاق سواء مشرقا أو مغربا.

أما بالنسبة لليهود؛ فيرى مولود قاسم أنه بعثوا لغتهم من القبر، فرغم أن العبرية كانت قد ماتت منذ 2000 سنة، إلا أن إرادة متكلميها جعلتهم يعيدون بعثها من جديد، بالرغم من أنها لم تعاصر العلوم الحديثة عكس العربية، فهي اليوم لغة العلوم الدقيقة عند اليهود لا لغة الإدارة فقط، وهذا ما ينقصنا نحن اليوم، علينا أن نعيد فاعلية اللغة العربية عن طريق ترقيتها واستحداث مجامع لغوية لتحقيق تلك الغاية.

إن دعوة مولود قاسم لإحياء اللغة العربية، وترقيتها واستشهاده في ذلك بما يفعله اليهود، وغيرهم من شعوب البلدان المتقدمة يجعلنا نتساءل عن مصير لغته الأم الأمازيغية،

---

[1]– مولود قاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، ص59/58.

[2]– مولود قاسم نايت بلقاسم، في خضم معركة التعريب، مجلة الجزائرية، عدد 130، 1985، ضمن كتاب: أحمد بن نعمان، مولود قاسم حياة وآثار، ص108.

التي هي لغة شريحة مهمة من الجزائريين على اختلاف لهجاتهم، وكذا موقفه من اللغات الأجنبية الأخرى، التي لها حضور قوي داخل الأوساط الشعبية الجزائرية.

يرى أبو القاسم سعد الله أن مولود قاسم مزدوج الشخصية، فرغم أنه كان يدافع عن اللغة العربية، وينافح لأجلها، إلا أنه كان يمقت، وينبذ كل توجه عروبي على حساب لغة أمه، وأبيه، إذ كان يرى "كل متحمس للغة العربية لذاتها –كقاعدة للفكر القومي– على أنه بعثي أو قومي وما إلى ذلك، وبذلك وجد نفسه أحيانا ولو دون إرادة منه في معسكر دعاة البربرية، وأيضا دعاة الفرنكوفونية الذين لا يمانعون وجود الإسلام إلى جانب البربرية، والفرنسية، كما وجد الإسلام إلى جانب الفارسية، والتركية"[1]، وهو حكم فيه من القساوة بما كان بالنسبة لأبو القاسم سعد الله، لأن العارف بخطابات مولود قاسم يدرك أنه لم يكن ضد أي لغة في حد ذاتها، بل كان ضد أدلجة اللغات، لأنها أصبحت تحمل نزعة إقصائية تشتت المجتمع الجزائري المعروف بالتعددية الثقافية، أما بالنسبة للعربية فقد كانت لها مكانتها الخاصة في قلب مولود قاسم، وقد أفنى عمره لتكون لغة الدولة الجزائرية الأولى لأنها "لغة القرآن ولغة النبي صلى الله عليه وسلم، واللغة الجامعة لكل المسلمين في شتى أنحاء العالم، لغة العلم ولغة الثقافة"[2]، لقد كان مولود قاسم رحمه الله يربط ما بين اللغة، والدين، ولذلك نجد أن الاعتبارات الدينية، والثقافية لم تغب يوما عن مخيلته أثناء تبنيه لخيار اللغة العربية كلغة للدولة الجزائرية الحديثة، أما بالنسبة للغات الأجنبية، فهي مهمة حسب تصريحاته، لكن يجب أن نضم إليها لغات أخرى، فبالنسبة للفرنسية، لغة المستدمر القديم، هي غنيمة حرب وجب الاعتناء بها –رغم أنها لغة الاضطهاد والضيم اللذين تعرض لهما الشعب الجزائري–، لكن لا يجب أن نجعلها اللغة الأجنبية الوحيدة، بل وجب أن نضم إليها لغات أخرى، ولذلك نجده يسارع للرد على من يسيئون فهمه في كل مرة، ففي حديث له عن التعريب وتعميم استعمال العربية، يرى مولود قاسم أنه أسيء فهمه وأن دعوته لتعميم العربية لا تعني به ترك

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، سي مولود ظاهرة فذة، ضمن كتاب: أحمد بن نعمان، مولود قاسم... حياة وآثار، مرجع سابق، ص227.

[2]– حوار أجراه مولود قاسم مع صحيفة الجزائر الأحداث الصادرة بالفرنسية بتاريخ 3–9 جانفي 1985م، ينظر: أحمد بن نعمان، مولود قاسم... حياة وآثار، مرجع سابق، ص61.

اللغات الأجنبية بصفة عامة، وإنما لابد أن تكون للعربية الأولوية فقط، ففي هذا العصر لابد من تنوع اللغات[1].

أما بالنسبة للغات المحلية يقول مولود قاسم "أما المسلمون فيتحدثون الفارسية، والأمازيغية والمالية والكردية، والأردية، والتركية، العربية أيضا يتحدثها المسيحيون في لبنان، وفلسطين، ومصر، وسوريا، والعراق وفي الأردن"[2]، فمولود قاسم هنا لم يلغى تلك اللغات المحلية، ولم ينكرها، بل إنه لا يرى مانعا في أن يحافظ الانسان على لغته ويكون مسلما، لأن الإسلام كفل الحرية اللغوية لكل معتنقيه.

هذا بالنسبة للغة العربية، واللغات الأجنبية الأخرى، أما بالنسبة للغة الأمازيغية التي لا يزال لها حضور كبير داخل الأوساط الشعبية الجزائرية، فإن مولود قاسم تناول الموضوع من زاوية مقاصدية، فأمام ضعف الأمازيغية في مقابل الفرنسية، وكذا عدم وضوح قواعد، وحروف اللغة الأمازيغية آنذاك، اضطرته الظروف التي مرت بها الجزائر إلى بحثه عن لغة مشتركة للجزائريين لها من الثقل، والتاريخ، والعراقة ما يمكّنهم من مواجهة خطر التغريب الكبير الذي يواجهونه، فكان للعربية أن توفرت على كل ذلك.

إن علاقة اللغة العربية بالدين الإسلامي، جعلها تكتسب الحصانة التي تجعل حضورها في الوسط الجزائري قويا ومستمرا، "لقد عاش الانسان الجزائري يحمل لها شحنات من التقديس والتوق والتطلع، لقد ظل الجزائري يربط ما كان يحياه من غضب، وتخضيع، وبين ما كانت عليه اللغة من غبن وإزاحة وتنكيل"[3].

لقد ارتبطت مشكلة اللغة في الجزائر بمشكلة الدين الإسلامي، إذ أن الحديث عن أحدهما يحيل بالضرورة على الآخر، فاللغة العربية تبلور ضمنها الكيان الأمازيغي منذ الأيام الأولى للفتح، وبات اليوم يعرف بها (المغرب العربي)، لأنها تساير الحضارة، وتواكب حركة الحياة في تطورها، غير أنها تحتاج إلى فيض دائم في المصطلحات حتى تواكب عجلة التقدم، وهو ما وجدته اللغة العربية في الإسلام، ولهذا حرص مولود قاسم على استعادة اللغة العربية، وإبراز ثرائها، وقدرتها على استيعاب العلوم، وإمكانية اعتمادها كلغة وطنية موحدة،

---

[1]– ينظر: بوعلام جوهري، البعد الدعوي في أعمال مولود قاسم، مرجع سابق، ص257/256.

[2]–أحمد بن نعمان، مولود قاسم... حياة وآثار، مرجع سابق، ص248.

[3]– المرجع نفسه، ص434.

لأن الأمة لا تستطيع أن تحقق وحدتها الاجتماعية ما لم تتحقق وحدتها اللغوية، لأن "وحدة اللغة تساوي وحدة الفكر والرأي والثقافة"[1]، وهنا نلمس بوضوح أن تربيته الدينية، قد لعبت دورا كبيرا في تبنيه هذا التوجه، فحتى القرآن الكريم تغنى باللسان العربي في قوله تعالى: "**إنا أنزلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون**" **(يوسف الآية 2)**، وكذلك في قوله تعالى: "**وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا**" **(الأحقاف 12)**، والتي رأى من خلالها مولود قاسم علو شأن اللغة العربية واللسان العربي، الأمر الذي جعل هذا التوجه مشروعا بالنسبة لمولود قاسم.

غير أنه وجب التنويه إلى أن مولود قاسم لم يكن يوما ضد هذا التنوع اللغوي، والإثني في الجزائر، بل إنه يعتبر هذا التنوع بمثابة غنى، وتنوع في التفكير، وقدرة على الإبداع حتى بالنسبة للذين يتكلمون اللغات الأجنبية (الفرنسية وغيرها)، غير أنه يشدّد على ضرورة أن تكون للغة الوطنية (العربية) الأولوية، وأن لا تشاركها أي لغة أخرى هذا المقام الأول، رغم أن الإسلام لم يمنع أحد من معتنقيه عبر التاريخ الحضاري العربي الإسلامي كله، من التحدث بلغته أو لهجته المحلية، ما لم تتحوّل إلى دعوى جاهلية، ولهذا رأى البعض أن تعامل مولود قاسم مع القضية الأمازيغية تاريخا ولغة، فيه الكثير من الغموض، "فهو لم يتخذ موقفا حاسما إزاءها، فرغم دعوته إلى الاعتزاز بالبعد الأمازيغي باعتباره مكونا من مكونات الشخصية الجزائرية، فإنه لم يعلن موقفه من تدريس الأمازيغية، ومن جهة أخرى فإنه رغم تحمسه للغة العربية وسعيه الحثيث لتعريب المحيط، فإنه لم يعلن معارضته للأمازيغية، وبناء على ما تقدم، فإن موقفه الغامض هذا جعله يتبوأ ما يشبه المنزلة بين المنزلتين"[2]، غير أن البعض كان له رأي آخر، إذ يرى أن تعامله هذا فيه الكثير من الإجحاف لهذه القضية التي لازالت تسيل الكثير من الحبر، غير أن الإنسان العاقل يرى أن مولود قاسم قد تعامل مع الأمر بكثير من العقل وفق رؤية استشرافية تتطلع للبعيد، فأمام استغلال المستدمر الفرنسي لهذه القضية من خلال تغذيتها بالنعرات الشعوبية التي كان لها أثر كبير على الجزائر، فلم يجد مولود قاسم بدا في مناجزة الفرنسية بالعربية التي لها صلة وثيقة بالدين الذي يحظى بالإجماع لدي الجزائريين، كما أن إحياء اللغة الأمازيغية في ذلك الوقت كان من الصعوبة بما كان بسبب:

---

[1]– محمد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كل أمة روح ثقافتها، مرجع سابق، ص11.

[2]–بوعلام جوهري، البعد الدعوي في أعمال مولود قاسم، مرجع سابق، ص353.

1/ أنها كانت لغة واحدة، ثم تجزأت إلى لهجات بعد ذلك، مما يصعب معه الاتصال بينها
2/ أن كل البحوث حولها كانت حديثة، فلم يتطرق لها المؤرخون القدامى سواء الأجانب أو العرب.
3/ أن ما كتب حولها يعتمد على دراسة أسماء الأعلام، والأشخاص وعلى المواد الصلبة (الحجارة والنقود...)
4/ أن ما تعاقب على المنطقة من دول ساهم في ضرب الوحدة اللغوية والثقافية للأمازيغ.
5/ أنها كتبت من اليمين إلى اليسار (بعد تأثرها بالفينيقية)، في حين أنها كتبت بشكل عمودي قبل ذلك، مما زاد في صعوبة فهمها واستيعاب معاني ألفاظها.
6/ أن حروفها تنقسم إلى قسمين: تيفيناغ (حروف صامتة وتمثل نظام الكتابة) وتيدباكين (حروف صائتة وتقابل الشكل –الضمة والفتحة–)
7/ أن تاريخ اللغة الأمازيغية يعود على 40 ألف سنة، واسترجاع هذا الموروث في ذلك الوقت المبكر من استقلال الجزائر صعب جدا إن لم نقل مستحيلا.
8/ أن الأمازيغية لطالما تنازلت عن مكانتها للغات الوافدة مما ساهم في انحصارها، وفقدان أهميتها، وكذا تخلفها مقارنة مع اللغات الأخرى[1].

كل هذه العوامل جعلت مشروع إحياء الأمازيغية بعد استقلال الجزائر مخاطرة كبيرة، خاصة وأن شريحة مهمة من الشعب الجزائري كانت تتحدث العربية، والفرنسية، ولهذا كان التعريب خيارا مفضلا لمولود قاسم في ذلك الوقت، رغم أنه ظل لوقت طويل مكافحا لتجسيد البعد القومي الأمازيغي للشخصية الجزائرية، إذ كان "وفيا للأصالة الأمازيغية للشعب بكامله، بنفس وفائه لكل ما يربط الجزائر بالعالم الإسلامي اللغة العربية والإسلام"[2] كما يقول سعيد آيت مسعودان، فرغم أنه كان رحمه الله من دعاة نبذ الشعوبيات والقوميات، إلا أنه كان دائم الاستحضار لتاريخ الجزائر القديم، خاصة إذا تداعت الأمم للافتخار بتاريخها مثلما كان يحدث في ملتقيات الفكر الإسلامي، وهو ما حصل في الملتقى العاشر للفكر الإسلامي سنة 1976م، حين رفض أن تتلى قصيدة تمجد العربية والعروبة، متحججا أن الملتقى إسلامي،

---

[1]– ينظر: حورية بن سالم، أثر اللغة العربية في تكوين الأدب الشفوي الأمازيغي –منطقتا القبائل وبجاية أنموذجا–، دار الأمل، تيزي وزو/الجزائر، دط، 2015، ص56/45.

[2]– بوعلام جوهري، البعد الدعوي، مرجع سابق، ص278/224.

وليس عربيا وأن القومية هي مصيدة الأعداء التي بسببها سقطت الخلافة الإسلامية، لهذا وجب علينا أن "لا نقع في هذا الفخ، وأن ندعو إلى الوحدة الإسلامية، التي شعارها الوحيد الذي يحميها هو الإسلام كدين، والعربية كلغة، لغة القرآن"[1]، ولهذا فمولود قاسم ينظر إلى أن الدولة الجزائرية ميّزها منذ القدم التنوع، والتشابك، فالمنطقة عرفت اجتياحات كبرى منذ القدم، ومع كل اجتياح كانت الأمة تكتسب لونا جديدا، وبالتالي وجب الربط بين كل أبعاد الشخصية الجزائرية من لغة، ودين، وتاريخ، دون إقصاء لأي تشكيل على الآخر.

يقول مولود قاسم "إني بلغتي التي كانت تناغيني بها أمي، وتقص لي بها القصص جدتي، ويتفاهم بها جميع سكان قريتي، أو حيي في بلدتي، أو مدينتي، وأتناغم بها مع أبناء وطني، وأتناجى بها مع آبائي وأسلافي، وأقرأ بها تاريخ وأمجاد أمتي، ومنقوشة بها جدران، وصخور بلادي، وألقنها أولاد أولادي، وأبلغ بها رسالتي إلى أندادي، وأفاخر بها أضدادي"[2].

لقد كانت هذه الكلمات من مولود قاسم بمثابة صرخة لإطلاق الحريات كما يراها البعض، وأن القضية الأمازيغية قد احتلت هامشا من فكر مولود قاسم، عكس ما يدعيه البعض، رغم ظروف العمل التي لم تكن تساعده لطرح مثل هكذا مواضيع، على حد تعبير بوعلام جوهري[3]، الذي يرى أن الدين كان السبيل الوحيد الذي وجد من خلاله مولود قاسم سبيل إظهار هذا المسعى، حيث استغل تلك الحرية، والتي يمنحها الإسلام لمعتنقيه، وطرح القضية الأمازيغية بالتلميح، والتعريض بقوله "هذا هو الإسلام كردي وأمازيغي وتركي... هذا هو غنى الإسلام، هذه هي ميزة الإسلام"[4]، لقد أراد مولود قاسم من خلال هذه الدعوى أن يطلق الحريات القومية التي كفلها الإسلام، وأن الحرية القومية هي غنى للإسلام وليست مناجزا له كما يتوهم البعض، لقد أراد مولود قاسم تحرير الإسلام من سطوة القومية العربية التي لازمها البعض بالإسلام حتى صارت رديفا له.

إن المتأمل لعلاقة الأمازيغية مع الإسلام منذ الأيام الأولى لوصول الفاتحين، يدرك أن الأمازيغية لم تتنازل بسهولة عن مكانتها للغة الدين الجديد (العربية)، لتتركها لغة للتعبير

---

[1]– مولود قاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، ص458.

[2]– مولود قاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج2، ص68.

[3]– بوعلام جوهري، البعد الدعوي في أعمال مولود قاسم، مرجع سابق، ص283/282.

[4]–مولود قاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج1، ص191.

عن الإسلام، والعلم، فالأحداث التاريخية تنبئ أن اللغة الأمازيغية سعت على مدى قرون (القرون الثلاثة الأولى منذ الفتح الإسلامي)، وما ظهور "الديانة البرغواطية وديانة حاميم الغماري"[1] إلا مظهر من تلك المظاهر المقاومة لنفوذ العربية، فالديانتان أو الحركتان سعتا لتمزيغ الإسلام عبر تبني جزئي لبعض شرائعه، فتكون بذلك "قراءة أمازيغية للإسلام"[2]، حيث تشير بعض المصادر التاريخية أن صالح البرغواطي (وإليه تنسب البرغواطية) وحاميم الغماري، لم يرفضوا العقيدة الإسلامية ولم يشككوا في نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم "ولكنهم تمثلوا الرسالة المحمدية بلغتهم الملحمية ووفق معطيات بيئتهم الثقافية"[3].

كما أنه من مظاهر محاولات تمزيغ الإسلام إقدام المهدي بن تومرت على تأليف كتاب التوحيد باللسان الأمازيغي، وترجمة بعض معانيه، وهي محاولة عدها المؤرخون بحسب تعبير أجبرون كمحاولة لتمزيغ الإسلام بما يتناسب مع الظروف البربرية مع الاحتفاظ بفارق الاختلاف بين الأولى (الحاميمية والبورغواطية) والتومرتية، فالأولى حاولت خلق إسلام أمازيغي قرآنا وتوحيدا، والثانية حاولت تمزيغ التدين حتى يفهمه الأمازيغ فهما صحيحا، ويستطيعوا ممارسة شعائره بدقة، وبالتالي فاللغة الأمازيغية لم تناجز الإسلام، وإنما سعت لاحتواء شرائعه، وتمزيغها حتى يسهل على الأمازيغ فهم الرسالة المحمدية، وممارسة شرائعها بشكل صحيح ودقيق.

إن المتأمل بدقة لخطابات مولود قاسم يدرك أنه سعى لترسيخ مجموعة من الأفكار، ترى ذلك البعد الإسلامي والعربي ضمن منظومة الثقافة الأمازيغية، فيحافظ الفارسي على فارسيته، والتركي على تركيته، والأمازيغي على أمازيغيته، فيصير الإسلام هو الجامع بينهم باختلاف أعراقهم، أي أنه يتبنى خيارا وسطا، وبهذا يلتقي مولود قاسم مع الطرح الباديسي فيما يخص العلاقة بين العربية، والأمازيغية المبنية على أساس الرابطة الدينية الإسلامية، "ومما تجدر الإشارة إليه أن مولود قاسم قد طرح البعدين الأمازيغي، والإسلامي طرحا تكامليا، أي لا يلغي أحدهما الآخر، وعليه فهو يرفض الطرح الإقصائي للمتحمسين

---

[1]– أمحمد أجبرون، اشتقاق الهوية –جدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى من منظور تاريخي–، ضمن كتاب: اللغة والهوية في الوطن العربي، مرجع سابق، ص81.

[2]– المرجع السابق، ص83.

[3]– مولود قاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج1، ص83.

للأمازيغية إلى درجة الغلو، وللمعارضين لها لدرجة التنطع، مادامت الجزائر تتسع للأمازيغية والعربية معا"[1].

ولهذا وانطلاقا مما سبق، ومن خلال تتبعنا لطبيعة الخطاب القاسمي، نلاحظ أن الجزائر حسبه تعيش قلقا لغويا ثلاثيا، يجمع بين اللغة العربية من جهة، واللغة المحلية من جهة أخرى، واللغة الفرنسية من جهة ثالثة، بحيث يسعى كل طرف لتبوء الصدارة على حساب الآخر، ولذلك وفي خضّم محاولة إعادة بناء الدولة الجزائرية إعادة إثبات وجودها، وتاريخها، نجد أن مولود قاسم قد حمل على عاتقه مهمتين رئيسيتين هما: إحياء اللغة العربية حتى لا تضيع الأمة، وإعادة الاعتبار لفاعلية الدين، وحضوره في الحياة اليومية للإنسان الجزائري، بحيث جعل الهدف الثاني مدخلا لتحقيق الهدف الأول، لقد أراد مولود قاسم إثارة العواطف الدينية للجزائريين وجعلها بمثابة قوة دافعة لاستعادة أمجاد الجزائر الضائعة، فمتى ضيعنا الإسلام ضيّعنا اللغة، وبالتالي ضيّعنا الثقافة، "فالإسلام دين ديناميكي، والعربية هي المُعبر الأساسي عن هذا الدين، أو على أقل تقدير إحدى مظاهره، وأظن أنه لو اتخذ كل منهما طريقه الإسلام، والعربية، فكلاهما سوف يضيع، والدليل على ذلك أن العرب قد ضيعوا العربية عندما أضاعوا الإسلام، وأضاعوا الثقافة، وأضاعوا الإسلام، وهو حضارة وثقافة وفكر وروح في نفس الوقت، وأضاعوا كذلك في نفس الوقت اللغة وهي التي تحمل أبعاده التي تتشابك، وترتبط ارتباطا وثيقا فيما بينها، ويكمل كل منهما الآخر، وهي لا تقبل أي تفريق فيما بينها، بل إن التفريق بينهما، والفصل بينهما، هو الذي أصابها جميعا بكل أنواع المصائب، والمتاعب التي تعرفها"[2].

ولذا نضم صوتنا لصوت بوعلام جوهري[3] الذي يرى أن مشروع مولود قاسم الفكري يتبلور وفق محاور ثلاثة هي:

1/ الانتساب القومي تاريخيا: بحيث لا يلبث أن يدعو إلى التمسك بالماضي البعيد للجزائر منذ ما قبل التاريخ (لسنا يتامى التاريخ)، لأنه هوية، وأحداث، ويجب أن نسجل حضورنا يوم تتباهى الأمم بتاريخها، ثم إن تاريخنا القديم يكسبنا الاحترام، والتقدير، والتبجيل.

---

[1]– أحمد بن نعمان، مولود قاسم... حياة وآثار، مرجع سابق، ص354.

[2]– مولود قاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج1،، ص62.

[3]– بوعلام جوهري، البعد الدعوي في أعمال مولود قاسم، مرجع سابق، ص480/449.

2/ نبذ الانتماء العروبي المقصي لغيره: لم يجد مولود قاسم بدا من الاحتماء تحت راية الإسلام لمحاربة هذا الانتماء، فنجده يشير ليس مرة، وأخرى إلى أن الإسلام كردي، وأمازيغي، وفارسي...، فهي دعوة لنبذ التعصب القومي والانتماء العروبي، لأن الإسلام يمثل كل شيء وهو الجامع المانع، وكل دعوة قومية هي من قبيل الجاهلية، والعنصرية، فالعروبة تنحصر في اللغة العربية (كل دعوة قومية عروبية هي من قبيل التشتت والتفتيت لأجزاء الأمة الإسلامية).

3/ التوسط، والاعتدال في الانتماء القومي: وذلك يقتضي عدم التحيز إلى فكرة دون أخرى، فكان رحمه الله يطرح مسألة القومية بتوسط، واعتدال ويربط بينها، وبين باقي أبعاد الشخصية الجزائرية من لغة عربية، ودين إسلامي.

الفصل الرابع:

فكرة الإنية ودورها في صناعة الهوية الجزائرية

المبحث الأول: خطاب الهوية في الجزائر... نقاط التلاقي والتلاغي

المبحث الثاني: المدرسة الجزائرية ودورها في صناعة الهوية

الفصل الرابع: فكرة الإنية ودورها في صناعة الهوية الجزائرية

إن وحدة اللغة ترسخ نوعا من وحدة الأفكار، وفي حالة الجزائر التي عرفت قبل الفتح الإسلامي كما قلنا سابقا ثلاثة أقانيم هوياتية؛ لاتينية/نصرانية في الشمال، وأمازيغية/وثنية في الوسط والصحراء، إلى جانب بعض الحضور العبري/اليهودي في مناطق متفرقة من الشرق الجزائري، لم تعرف الجزائر كغيرها من الدول تلك الوحدة السياسية قبل الإسلام، إذ خضع الشمال لسلطة الغزاة على اختلاف مللهم ونحلهم، وعرف الجنوب والوسط بعض الاستقلالية جسّدها في ممارسة النظام القبلي والكونفدرالي، غير أن دخول الإسلام إلى شمال افريقيا، كان قد غيّر الكثير من المعطيات وعلى رأسها الخريطة الدينية واللغوية والسياسية للمنطقة، إذ أضحت الجزائر تشكّل وحدة سياسية أطلق عليها المغرب الأوسط، وارتبط تاريخها بالمشرق منذ ذلك الحين، وفي مقابل تحقق الوحدة السياسية، فقد عرفت الجزائر حركة دينية جديدة، ولهذا دعت ضرورة دخول الدين الجديد إلى المنطقة حاجة أخرى لا تقل أهمية عن الأخرى، وهي ضرورة التعلم للقيام بالفرائض، إذ أضحت اللغة العربية هي لغة التعليم والثقافة الأولى، واكتسبت قدسية أكبر لارتباطها بهذا الدين، ما غيّر الكثير من عوامل معادلة الهوية في الجزائرية، وخاصة أمام التطورات العمرانية الكبيرة في المنطقة، وانتشار المدارس والكتاتيب، التي ساهمت بشكل كبير في تغيير الخارطة اللسانية في الجزائر، الأمر الذي مكّن اللغة العربية من أن تضطلع بوظائف حيوية، ومكنتها الظروف التاريخية من صبغ الثقافة الجزائرية بالطابع العربي، وصنعت مفهوم الأمة، وبذلك توحدت بلاد المغرب الأوسط دينيا وثقافيا وحضاريا، وهكذا شهد استعمال اللغة العربية في الجزائر تطورات نوعية، تجسدت من تحولها من لغة دين يقتصر استعمالها على الفرائض الشرعية والممارسات التعبدية، إلى لغة علم تشكل وعاء الفكر الجزائري في أبعاده الدينية والأدبية والعقلية.

ومع مطلع العصر الحديث عرفت الجزائر استمرار قدوم الوفود الأجنبية التي زادت من تنوع المجتمع الجزائري، وعلى رأسها الوجود الفرنسي والتركي قبله، الأمر الذي جعل بنية المجتمع الجزائري تتسم بالتنوع الذي يشبه الفسيفساء، إذ أضحى المجتمع الجزائري يتشكل من البربر والعرب بشكل عام، بالإضافة إلى عناصر أخرى صارت متداخلة مع العنصرين الآخرين بشكل يصعب معه فرز مكونات المجتمع، وعلى رأسها الأتراك والفرنسيين وكذلك الإيطاليين والإسبان وغيرهم من الشعوب.

وعليه فقد نشأ خطاب الهوية في الجزائر بناء على المعطيات السابقة، وأصبح موضوع الانتماء مادة دسمة لكثير من الأقلام، الأمر الذي مكّننا من تمييز ثلاث مستويات من الخطاب ميّزت الساحة الفكرية الجزائرية، ففي المستوى الأول نجد الخطاب الفرنكفوني الذي يدافع عن وجود اللغة الفرنسية في الجزائر، فهي بالنسبة له ليست غنيمة حرب فحسب، بل هي لغة العلم والتطور، ولا تستطيع الجزائر أن تدخل العالمية بغير اللغة الفرنسية، وعلى النقيض من ذلك نجد الخطاب العروبي الإسلامي الذي يحاول التشبث باللغة العربية كلغة جامعة لكل الجزائريين، بل هي اللغة التي تحفظ للجزائريين تمايزهم عن المستعمر القديم، وحاول أصحاب هذا التوجه أن يضفوا على اللغة العربية هالة من القدسية، باعتبارها لغة الدين ولغة الممارسات الدينية وتعليم القرآن، في حين نجد طائفة ثالثة تروج للخطاب الأمازيغي وضرورة إحياء اللغة الأمازيغية، فالأرض أمازيغية واللغة يجب أن تكون أمازيغية أيضا.

ولهذا سنحاول في هذا الفصل تتبع مستوى الخطابين العربي والأمازيغي بصفة خاصة، باعتبارهما نابعان من عمق الجزائر، وهما مطلبان هامان لشريحة واسعة من الجزائريين، وسنحاول أن نبين كذلك دور المدرسة الجزائرية في صناعة الهوية، وهل كان خيار التعريب الذي تبنته الدولة الجزائرية دور في خلق الصراع اللغوي في الدولة الجزائرية؟

المبحث الأول: خطاب الهوية في الجزائر نقاط التلاقي والتلاغي

كانت بلاد المغرب في السنوات الأولى للفتح الإسلامي أمازيغية اللسان والهوية، رغم اعتناق فئة كبيرة من السكان للإسلام، لكن مع مطلع القرن 3هـ/9م، ومع توسع حركة الفتح وتوالي السنين، حصل تحول كبير في بنية الهوية المغاربية، وأخذت شيئا فشيئا طابعها العربي، كنتيجة حتمية لطبيعة العلاقة التي تقوم بين الإسلام والعربية، ومنذ ذلك الوقت أصبحت شمال افريقيا تمثل الجزء الغربي من الحضارة الإسلامية، والتي تمتد من المحيط إلى الخليج، وقد حاول الكثير من الباحثين صبغها بصبغة مشرقية، سواء من حيث الأصل، أو من ناحية أن الإسلام يجّب ما قبله، وتصبح بذلك أرض المغرب تابعة للمشرق، وهكذا تشكل خطاب الهوية في المغرب والذي كان كلما ارتفع سرعان ما عاد يخبو، بقوة الإسلام الذي كان يتدخل في كل مرة ليجمع شتات الأمة، باعتباره الناظم الذي ينتظم حوله جميع المسلمين.

غير أنه ومع مطلع القرن الثامن عشر، والذي عرف معه العالم نشوء حركة الاستعمار الحديث، ورافقه في ذلك انتشار كبير لخطابات القومية، التي حملتها معها الجيوش الغربية أينما حلت وارتحلت، عملت الدول العربية والمغاربية هي الأخرى على إحياء النزعة القومية لديها، وليس هناك طريق أسهل لذلك من الرجوع إلى دفاتر الماضي، واستدعاء كل تلك الأسئلة الشائكة، والتي تدور حول سؤال من نحن؟ ولهذا جاء هذا المبحث كمحاولة لتتبع مسار خطاب الهوية وتصنيفه وتتبع مخرجاته، مع تحديد نقاط التلاقي والتلاغي بين كل تلك الخطابات، وبيان الأسس التي يقوم عليها كل خطاب، وهل كان لفكرة الإنية وجود بين هاته الخطابات؟

المطلب الأول: الخطاب العروبي الإسلامي

يعتبر هذا الاتجاه امتدادا لما جاءت به فكرة الإنية عند مولود قاسم، بحيث تكون العروبة عند أصحاب هذا الخط رابطة اجتماعية وإنسانية ووجدانية شعورية، تنمّي فكرة الانتماء لدى الفرد، فيكون العربي عربيا، والفارسي فارسيا، والتركي تركيا، والأمازيغي أمازيغيا، ويعزز هذا الشعور الارتباط بالإسلام، ولهذا يروم أصحاب هذا الخطاب إلى اختزال الهوية الجزائرية في البعد العروبي الإسلامي، إذ يرون أن صورة الجزائر تنعقد على الإسلام فقط، فهو الذي عرف معه الجزائريون العزة والقوة، وتأسست معه أركان الدولة بعد طول عناء، ولهذا فإن أي محاولة لبناء الدولة الجزائرية دون أن يكون للإسلام والعربية حضور فيها، هي تهديم وليست بناء، ولو أننا عند تتبعنا لحدود تماهي هذا الخطاب وجدنا أنه ينافح بالأساس لأجل اللغة العربية حتى تكون اللغة الرسمية في الجزائر، فالإسلام دين الدولة وهو أمر محسوم عند الجزائريين، عكس اللغة فهي مدار الصراع ومثار الجدل سواء بين النخب أو بين الأوساط الشعبية الجزائرية.

الفرع الأول: واقع اللغة العربية في الفترة الاستعمارية

يقول أحمد بن نعمان "إن الصراع حول الهوية في الجزائر تمثّل اللغة العربية جوهره"[1]، بحيث يعود تاريخ هذا الصراع إلى اليوم الأول للاحتلال الفرنسي للجزائر، لذلك كانت الغاية من الثورة هو الاستقلال الوطني* ، وبناء الدولة الجزائرية ذات السيادة الوطنية، هذه الأخيرة لا تتحقق حسبه، من دون أهم رموزها وهي اللغة العربية، "لأن سيادة اللغة العربية معناه خروج الفرنسية، وخروج الفرنسية معناه خروج فرنسا الحقيقي من البلاد، وهو الأمر الذي ترفضه فرنسا جملة وتفصيلا، فبدل أن يكون الصراع عربي/فرنسي، تحول إلى عربي/أمازيغي، فاسحا المجال لتغلغل الفرنسية داخل الأوساط الإدارية والتعليمية"[2].

---

[1]– أحمد بن نعمان، اطلبوا الوطنية ولو في فرنسا، دار الأمة، الجزائر، ط1، 2005، ص 15.

* يميز أحمد بن نعمان هنا بين نوعين من الاستقلال، استقلال الجنسية: بحيث يصير للدولة الجزائرية علم خاص ونشيد خاص وعملة خاصة مستقلة عن تركة المستعمر، واستقلال الهوية: وهو استقلال الثقافة التي تضم اللغة والدين... ينظر أحمد بن نعمان، اطلبوا الوطنية، ص65/59.

[2]– المرجع نفسه، ص15.

فاللغة العربية هي عنوان الاستقلال التام عند بن نعمان، ورمز السيادة الوطنية، ارتبطت بفترة الصراع مع الاستعمار الفرنسي، ولذلك وجب ترسيمها لغة وطنية، للتخلص من كل رواسب الاستعمار، كما أنّها كانت اللغة الرسمية لكل الدول التي قامت على هذه الأرض، من دولة عبد الرحمن بن رستم إلى دولة الأمير عبد القادر، وحتى يومنا هذا، فبالرغم من الأزمات التي تعرضت لها في فترة الاستعمار الفرنسي، إلا أن أبناء حزب الشعب الجزائري استطاعوا فرض اللغة العربية كلغة رسمية للدولة فيما بعد الاستقلال، فالعربية يجب أن تنال مكانتها في الجزائر المستقلة بعيدا عن كل تعصب، فهي أصيلة في بلدها منذ الفتح الإسلامي، بل هي مرادفة للاستقلال، وحاجتنا اليوم إليها صارت أكثر من أي وقت مضى لأجل التفرد والاختلاف عن المستعمر القديم[1].

إن اللغة عند بن نعمان "هي المعيار لبيان حدود أية أمة وهوية أي شعب في العالم... هي من أهم المقومات والأسس الضرورية في تكوين الأمم القوية وضمان بقائها"[2]، ولهذا فقد ارتبط صراع اللغة في الجزائر بوصول المستعمر الفرنسي، الذي حاول فرض سياسة تضمن استمراره أطول فترة ممكنة ولذلك عمد إلى:

01/ فرض اللغة الفرنسية

02/ هدم المدرسة الجزائرية العربية وإنشاء المدرسة الفرنسية

03/ تقويض تدريس العربية وتجريم استعمالها

04/ التفريق بين أهالي المناطق على أساس اللهجات والأعراق

05/ محاولة فرض الادماج على المجتمع الجزائري

05/ اعتماد التنصير وتكثيف الارساليات الدينية والمسيحية

06/ محاربة الدين الإسلامي (إلغاء مصادر الأوقاف، تحويل الكنائس إلى مساجد)

---

[1]– أحمد بن نعمان، اطلبوا الوطنية ولو في فرنسا، مرجع سابق، ص77.

[2]– أحمد بن نعمان، مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، دار الأمة، الجزائر، ط1، 2008، ص 221.

الفرع الثاني: علاقة الحركة البربرية بالمشاريع الفرنسية

غير أن أكبر خطر واجه المجتمع الجزائري، هو محاولة فرنسا تقسيم الشعب الجزائري إلى قسمين عرب وبربر، مع محاولة الاعلاء من الثاني على حساب الأول[1]، خاصة وأن حربها على الإسلام لم تحقق هدفها المنشود، فتحولت الحرب إلى محاولة التفريق بين أبناء الشعب الجزائري على أساس اللهجات والأعراق، فكان من ثمار هذه السياسة ظهور الوعي البربري في منطقة القبائل، وبحثه عن مفاصل الاختلاف بينه وبين العرب، وهي السياسة التي كادت تقوّض مسار الكفاح الجزائري فيما بعد[2]، ولهذا يرى أحمد بن نعمان أن الهوية الجزائرية قد أصبحت أضعف مما كانت عليه وقت الاستعمار الفرنسي، وهذا يرجع حسبه إلى ذلك الازدواج اللغوي الذي صارت تعيشه الجزائر بعد الاستقلال، حيث أن التنافس اللغوي الذي تعرفه جزائر ما بعد الاستقلال مآله التعدد القومي، وهو ما ينذر بتقسيم الجزائر، وبهذا يتحقق ما كانت تحاول الإدارة الفرنسية فرضه أيام تواجدها في الجزائر.

إن الحركة البربرية التي صاحبت انبثاق الوعي البربري حسبه، هي أكبر معضلة تواجه الجزائر المستقلة، فهي أداة طيّعة في يد الاستعمار الفرنسي، وهي بمثابة معول هدم للشخصية الوطنية والوحدة الوطنية، وفي ذلك يقول: "هم لم يكونوا متأثرين بالأفكار والطروحات الغربية فحسب، بل أيضا متأثرين إلى حد بعيد بالإيديولوجية الشيوعية، التي كانت في أوج عصرها الذهبي في ذلك الوقت"[3]، ويقصد أحمد بن نعمان أن منتسبو هذه الحركة هم خرّيجوا المدرسة الفرنسية الذين التحقوا بحزب الشعب عقب مظاهرات 8 ماي 1945، "وإن هؤلاء الطلبة المتشبعين بالثقافة والأفكار الفرنسية، هم أول من عارض مبادئ الحزب التي أعلنها منذ اليوم الأول لتأسيسه [اللغة العربية لغة رسمية، والانتماء لدائرة الحضارة الإسلامية]"[4].

---

[1]– أحمد بن نعمان، اطلبوا الوطنية، مرجع سابق، ص 20.

[2]– أحمد بن نعمان، مستقبل اللغة العربية، مرجع سابق، ص 30.

[3]– أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية –الخلفيات، الأهداف، الوسائل والبدائل–، دار الأمة، الجزائر، دط، 2011، ص63.

[4]– المرجع نفسه، ص65.

كما يهاجم بن نعمان كل أنصار الحركة البربرية متهما إياهم بالعمالة لفرنسا، وأنهم ينتمون لبعد جغرافي واحد (منطقة القبائل)، وهي المنطقة التي حظيت بعناية خاصة من طرف المستعمر حتى أصبحت أرضا قابلة لاستقبال الحضارة الأوروبية، بدءا بالتعليم إلى اللسان، فكانت الهجرة إلى فرنسا ثمرة هذه السياسة، ولم يكتف بن نعمان برمي أصحاب النزعة البربرية بالعمالة لفرنسا، وأنهم أصحاب نزعة طائفية، بل يذهب بعيدا من ذلك حين يرى أن وجود أصحاب الطائفة البربرية سوف يسهّل حكم الجزائر إلى الأبد، خاصة وأنهم يحملون مشروعا لا يتعارض مع توجه فرنسا الاستعمارية[1].

ولهذا فقد حاول بن نعمان في كتابه فرنسا والأطروحة البربرية، تتبع مسار الحركة البربرية وربط مشاريعها مع الحركات القومية العالمية فوصل إلى أن للحركة البربرية على علاقة مع:

01/ الفرنكوفونية: فأغلب منتسبيها تلقوا تكوينا فرنكوفونيا (الجزائر بلد ذو بعد متوسطي في مقابل البعد العروبي الإسلامي)

02/ الشيوعية: لها دعم من الحزب الشيوعي الفرنسي لأن أصحابها بعيدون عن العربية والإسلام

03/ الصليبية والحركات التنصيرية: لأن أغلب الحركات التنصيرية تركزت ببلاد القبائل منذ 1881م، وبالتالي فأغلب منتسبي هذه الحركة هم نتاج تلك الحملات التبشيرية.

04/ اللائكية: وتجلى ذلك في محاولتهم تحييد دور الدين في بناء الهوية الوطنية (الجزائر الجزائرية)، ومعادة الإسلام واعتباره حملات غزو أجنبي[2].

وفي تعليق على ما أورده بن نعمان فإننا لا ندري على ماذا استند أحمد بن نعمان في دراسته هذه حتى توصل لإطلاق مثل هذه الأحكام، وهل هو فعلا على اطلاع كامل بمشاريع الحركة البربرية، حتى اتهم رواد هذه الحركة بكل تلك الأوصاف؟

أما عثمان سعدي، فيرى أنّ أفراد الأكاديمية البربرية خلقوا أساسا لفتنة ستدمر وحدة الجزائر، لأن هؤلاء تربوا على يد الآباء البيض، الذين غرسوا في نفوسهم كره كل ما هو

---

[1]– أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية، مرجع سابق، ص 105.

[2]– المرجع السابق، ص 267/173.

عربي، وأن العربية لغة غازية، والبربر ذوو أصول جرمانية، ولذلك فقد آثروا تعليمهم بالفرنسية حتى تصبح لغة تحكيم بين العربية والأمازيغية[1].

"إن النزعة البربرية هي مسألة قبائلية"[2]؛ ينقل هذا عثمان سعدي هذه المقولة عن عضو أكاديمية العلوم الاستعمارية الفرنسية أندريه ب.ج، فهو يعتبر أن الحركة البربرية هي حركة جهوية تأسّست لاعتبارات تاريخية مست منطقة القبائل دون غيرها، كما أن هذه الحركة تسعى للحفاظ على مكاسبها بعد الاستقلال، فأغلب منتسبيها من الناطقين باللغة الفرنسية، وهم الذين يأخذون بزمام دوائر الحكم والإدارات الجزائرية، ولهذا فهم يتوجسون من كل خطوة تخطوها الدولة الجزائرية نحو التعريب.

وفي ذات السياق يرى ناصر الدين سعيدوني أن التعصب البربري في الجزائر، تيار مضاد لسير التاريخ وتطور المجتمع، يحاول وقف عجلة التاريخ، فالحركة البربرية في النهاية مجرد ظاهرة ثقافية واجتماعية انتعشت في الفترة الاستعمارية، وما هي إلا جزء من المشروع الاستعماري الذي خضعت له الجزائر طيلة 132 سنة، وما عزّز انتشارها سوى إهمال الحركة الوطنية للجانب الثقافي والهووي في مشروعها الوطني.

أما عن نشاطها بعد الاستقلال؛ فإنه يرى أنّ الحركة البربرية ما هي إلا ردة فعل لحركة التعريب التي باشرتها الدولة، لما يمثله التعريب من قطيعة مع المستعمر القديم، الأمر الذي ترفضه الطبقة الفرنكوفونية التي لم تجد بدا في تحريك النزعة البربرية، واستعمالها كحصن ضد مسار التعريب وبهذا يكون دعاة البربرية مجرد بيادق في أيدي الفرنكوفونيين، فالحركة البربرية في النهاية أداة صراع بين المفرنسيين والمعربين من أجل اقتسام سوق العمل ونوعية النشاط الثقافي والتعليمي[3].

---

[1]– عثمان سعدي، البربر الأمازيغ عرب عاربة وعروبة الشمال الافريقي عبر التاريخ، دار الأمة، الجزائر، دط، 2008، ص205/203.

[2]– المرجع نفسه، ص8.

[3]– ناصر الدين سعيدوني، المسألة البربرية في الجزائر–دراسة الحدود الإثنية للمسألة المغاربية–، مجلة عالم الفكر، العدد 4، المجلد 32، أبريل–يوليو 2004، ص 198/156.

الفرع الثالث: أهمية اللغة العربية في بناء الدولة الجزائرية

من جانب آخر يوجّه أحمد بن نعمان الأنْظار نحو أهمية اللغة العربية ودورها في بناء الأمة، ومكانتها في الحضارة الإسلامية، فاللغة العربية تستمد قدسيتها من القرآن؛ فهي جزء عضوي لا يتجزأ منه، وهذه العلاقة كانت سببا في أن تسود اللغة العربية الأقطار شرقا وغربا، "فهي من الناحية الشعورية الوجدانية تمثل روح الأمة، ومن الناحية الثقافية والحضارية تمثل الوعاء والوسيلة الناقلة للأفكار والتقاليد والخبرات عبر الأجيال المتعاقبة على تاريخ الأمم والشعوب، وكانت اللغة من الناحية السياسية، هي معالم الحدود الحقيقية للرقعة الجغرافية الوطنية والقومية، وكانت من الناحية السياسية والسيادية، هي أهم أسس الهوية ومكونات الشخصية والوحدة الوطنية، لأية مجموعة بشرية تعيش في انسجام على وجه الكرة الأرضية"[1]، ولهذا وجب على الدولة الجزائر أن تولي عناية خاصة باللغة الوطنية (اللغة العربية بالنسبة إليه)، لأن أغلب الصراعات العرقية والسياسية التي تحدث في عالم اليوم مبدؤها الأساسي اللغة، ولهذا نجده يعلن رفضه لترسيم أي لهجة وطنية، أو تحويلها إلى لغة مكتوبة ذات قواعد معينة، واعتمادها كلغة رسمية، لأن وحدة الوطن والراية يستلزم منها وحدة اللغة[2].

ومن جهة ثانية وفي استقرائه لعلاقة اللغة مع الانسان يقول بن نعمان أنه يمكن تمييز هذه العلاقة على مستويين:

01/ المستوى الثقافي: تكون اللغة وسيلة إنسانية خالصة لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات، وعلى هذا المستوى بإمكان الشخص استعمال أي لغة أو لهجة لأنها تعبر عن انفعالاته العاطفية ورغباته الغرائزية[3].

02/ المستوى الحضاري: تكون للغة العربية الصدارة، وتكون لغة العلم والتكنولوجيا مثل ما حصل في أيام عز الحضارة الاسلامية[4].

---

[1]– أحمد بن نعمان، مستقبل اللغة العربية، مرجع سابق، ص10.

[2]– أحمد بن نعمان، اطلبوا الوطنية، مرجع سابق، ص377.

[3]– أحمد بن نعمان، مستقبل اللغة العربية، مرجع سابق، ص90.

[4]– المرجع نفسه، ص107.

وخلاصة القول أنّ الإنسان في المرحلة الأولى يمكنه أن يتواصل بأي لغة، وأما في المرحلة الثانية؛ والتي تصير فيها اللغة مفتاح دخول الحضارة، فهذا لا يتأتى إلا بأن تكون العربية في الصدارة، الأمر الذي يطرح العديد من الأسئلة، فإذا كان الانسان الجزائري على المستوى الثقافي يتكلم لغة غير العربية، فهل هذا الأمر يجعله قاصرا على دخول الحضارة؟ وهل هذا القصور مردّه اللغة/اللهجة أو الانسان ذاته؟ وهل كل اللغات/اللهجات عاجزة عن التعبير وتعوزها المفردات؟

صحيح أن اللغة ضرورة إنسانية وبفضلها يعي الإنسان ذاته ويعبر عن مكنوناته، وهناك في عالم اليوم لغات رائدة ورائجة، استطاع متكلموها صنع حضارة كبرى كاليابانيين والألمان مثلا، ألم يحيي اليهود لغتهم الميتة منذ ألفي سنة، وصارت لغة العلوم الدقيقة في فلسطين؟

إن المراهنة على لغة ما حضاريا يعود بالدرجة الأولى لجهد الانسان، وما باستطاعته أن يقدم للغته حتى ترتقي وتستوي على سوقها، وما فعله اليهود ليس ببعيد عنا، وعلى هذا النهج سار عثمان سعدي الذي رأي أن اللغة العربية قد تعرضت لمؤامرة نتيجة غياب القيادة الروحية للثورة، فصحيح أن الجزائر قد حققت انتصارات عسكرية باهرة على العدو الفرنسي، إلا أنها كانت تسجل الهزيمة تلو الأخرى على المستوى الثقافي، وخصوصا اللغوي، ولهذا فإنّ الجزائر عاشت بلا هدف، ولا قيم، لإهمالها الجانب الأخلاقي، الذي تتمثل فيه القيم، ولأن اللغة الوطنية (العربية) هي أم القيم، فإن جيل الاستقلال الذي نشأ في حضن الفرنسية هو نوع هجين غير أصيل[1]، لأنه فاقد لشعور الانتماء "إن تدمير قيم أي مجتمع يسهل بتدمير القيم التي تحكمه، واللغة الوطنية تؤدي دورا حاسما في الربط بين هذه القيم ووقايتها والحفاظ على جوهرها المساير لتطور الانسان، وخاصة بالنسبة للغتنا التي تعتبر لغة الثقافة ولغة الدين في آن واحد، هي القاسم المشترك الأعظم بين أبناء شعبنا، وهي الرابط الأمين والمتين لوحدتنا الوطنية"[2]، ففي غياب اللغة الوطنية تغيب الوحدة الوطنية، "ولقد استلمنا نحن

---

[1]– عثمان سعدي، التعريب في الجزائر–كفاح شعب ضد الهيمنة الفرنكوفونية–، دار الأمة، الجزائر، دط، 1993، ص 15.

[2]– المرجع نفسه، ص16.

الجزائريين سنة 1962م من آبائنا وأجدادنا بلدا موحدا لغويا ودينيا"[1] ولهذا وجب العناية باللغة العربية وترقيتها حتى تقوم بهذا الدور الفعال في صهر كل أطياف المجتمع في بوتقة واحدة، مثل ما فعلت ذلك في أيام المستعمر الفرنسي، إذ أن اللغة العربية ارتبطت بالنضال والكفاح، ولعبت دورا حاسما في تأجيج الصراع الثوري وتحفيزه، "وإيقاظ الضمير السياسي لدى الجماهير الواسعة، وزرع إرادة النضال لديهم ضد الاضطهاد والاستغلال من أجل تحقيق الاستقلال والحرية"[2].

لقد ارتبطت مشكلة اللغة عند عثمان سعدي بمسألة القومية العربية مثل ما يتوضح لدينا، فبالرغم من أنه جزائري ذو أصل أمازيغي، إلا أنه يرافع لأجل العربية حتى تكون لغة قومية لا على المستوى السياسي فقط، بل يجب أن تمس كل الجوانب الأخرى الاقتصادية والتربوية، فهو في هذا المجال يرى أن الجزائر متخلفة عن حل مشكلة اللغة، فبالرغم من أنها اعتمدت التعليم العربي بعد الاستقلال، إلا أنها لم تفسح المجال للغة العربية لتمارس الحياة اليومية العملية، الأمر الذي أدى إلى انفصال الطبقة (السلطة) السياسية التي لازالت تستعمل الفرنسية كلغة خطاب، عن القاعدة الشعبية ، وهم بذلك ابتعدوا عن الاهتمامات اليومية للشعب.

إن الجزائر بعد الاستقلال قد أصبحت تعيش في ظل ثنائية لغوية قاتلة، مع الغلبة للفرنسية طبعا، الأمر الذي أثّر على الرؤية الاقتصادية الجزائرية، فالجزائر إلى جانب أنها أصبحت سوقا للمنتجات الفرنسية، قد أصبحت أيضا تستورد حلولا لمشكلاتها من الضفة الأخرى، دون مراعاة لاختلاف المحيط والبيئة الجزائرية، وهذا نتيجة الارتباط اللغوي مع المجتمع الفرنسي حسب عثمان سعدي[3]، ولذلك وجب على الأمم التي تحترم نفسها، أن تكون لغتها القومية مسايرة لجميع حقول حياة أمتها، فالتنمية الناجحة هي التي تأتي في ظل توطين علم وتكنولوجية العصر، والذي لا يكون إلا باللغة الوطنية، فبالرغم من أن الدولة قد

---

[1]– عثمان سعدي، البربر الأمازيغ عرب عاربة، مرجع سابق، ص31.

[2]– عثمان سعدي، التعريب في الجزائر، مرجع سابق، ص77.

[3]– المرجع السابق، ص136.

بذلت جهودا ضخمة للنهوض بالبلاد اقتصاديا، غير أنها كانت دور في حلقة مفرغة بسبب أن هذه الجهود قد تمت بلغة أجنبية هي الفرنسية[1].

إن التمسك بالفرنسية كلغة للسياسيين الجزائريين، يرجعه عثمان سعدي إلى قيادة الحكومة الجزائرية نفسها، والتي تأسست في نفس سنة وصول ديغول إلى الحكم سنة 1958م، إلا أنها تغافلت عن وضع خطة تعريبية ضد خطة ديغول المفرنسة للأمة الجزائرية (برومسيون لاكوست[2])، بل إنها عزفت على نفس وتر الخطة الفرنسية باستدعاء الطلبة الجزائريين المكونين في الجامعات والمعاهد الفرنسية، فأصبحت بذلك الجزائر العربية تدور في فلك فرنسا الفرنسية، ولا أدّل على ذلك أن اتفاقية إيفيان كتبت بالفرنسية فقط[3]

أما فيما يخص اللغة الأمازيغية؛ فإنه يرى أنه لا وجود للغة أمازيغية بربرية، لأن اللغة هي الأداة المشتركة بين لهجاتها، وهذا غير متوفر في اللغة الأمازيغية "الملتتّة المعدة في مختبرات الأكاديمية البربرية في باريز"[4]، بل إن ما هو موجود الآن لا يتعدى مستوى اللهجات (القبائلية، الشاوية، الميزابية، التارقية، الزناتية، الشلحية، الشرشالية)، ويسوق أمثلة عن الاختلاف بين المكونين الأمازيغيين في الجزائر الشاوية والقبائل، بحيث يشير إلى أن القبائلي يضطر لاستعمال ترجمان إذا تحدث مع الشاوي والعكس، وهذا بسبب تباعد اللهجتين ضاربا عرض الحائط كل نقاط التقاطع بين اللهجتين، فالاختلاف حسبه إذا مردّه غياب لغة أم تجمع وتوحد جميع اللهجات الأمازيغية مثل ما يحصل في العربية[5]!

وفي تعليق بسيط على ما أورده حول غياب اللغة الأم بالنسبة للغة/اللهجة الأمازيغية نقول أنّ اللهجات العربية أيضا غير مفهومة بالنسبة للجميع بل يحتاج العربي لترجمان حتى يفهم أخيه العربي عند الحديث، فهل هذا يعني غياب لغة أم تجمع بين العرب؟

---

[1]– عثمان سعدي، التعريب في الجزائر، مرجع سابق، ص8

[2]– هي خطة وضعها ديغول لتكوين إطارات جزائرية باللغة الفرنسية، لكي تسلم لهم إدارة الجزائر المستقلة، لضمان استمرار هيمنة اللغة الفرنسية في الجزائر.

[3]– عثمان سعدي، التعريب في الجزائر، مرجع سابق، ص7.

[4]– عثمان سعدي، البربر الأمازيغ، مرجع سابق، ص7.

[5]– المرجع السابق، ص196/195.

من جانب آخر، يرى سعيدوني أن معالجة المسألة الأمازيغية، يجب أن ينطلق من الفهم الذاتي والقناعة الحضارية لأي شخص يحاول اقتحام هذا الميدان، بعيدا عن الميل الطائفي والجهوي، فالمسألة الأمازيغية في الجزائر تتعدى البعد الجغرافي للدولة الجزائرية، بل تلقي بظلالها على كل منطقة شمال افريقيا للاعتبارات التاريخية التي تجمع المنطقة، ولهذا وجب عند التعامل مع هذه المسألة البحث في جذور هذه المشكلة بالأساس، وهل هي نتاج حركية التاريخ الجزائري، أم أنها تعبير عن تيقظ قومي أفرزه المستعمر الفرنسي[1]؟

إن المتأمل لتاريخ الوجود الاستعماري الفرنسي على أرض الجزائر، يتبين له أنّ الدراسات الفرنسية قد تركزت بشكل جلّي حول الجنس الأمازيغي، خاصة بعد إخماد مقاومة رجال الزوايا في المنطقة (1844-1857م)، وهذا من أجل بث الفرقة بين أبناء الشعب الجزائري، ويلخّص سعيدوني هذه السياسة في:

01/ فصل القبائل عن باقي الجزائريين [خلق صراع إثني في الجزائر وإلحاق البربر بأصول متوسطية]

02/ إبعاد القبائل عن الأحكام الإسلامية من حيث الأحوال الشخصية والمعاملات والقوانين واستبدالها بالعرف والعادات.

03/ العمل على إضعاف الشعور الإسلامي لدى القبائل ونشر المسيحية.

04/ دمج القبائل في بوتقة الحضارة الغربية، عن طريق نشر التعليم الفرنسي بالمنطقة.

05/ العمل على تطوير اللسان البربري ليكون منافسا للغة العربية[2].

فكان من نتاج هذه السياسة خلق تيار من الجزائريين متحالف مع الفرنسيين، وقد حمل هذا التيار مهمة الدفاع عن المصالح الفرنسية في الجزائر، وعرف هذا التيار فيما بعد بالحركة البربرية، والتي يراها سعيدوني قد ارتبطت منذ نشأتها بسكان القبائل الفرنكوفونيين لا العامة، ومع مرور الوقت تحولت هذه الحركة إلى "فكرة أيديولوجية عرفت عند الدارسين بالوهم القبائلي"[3].

---

[1]- ناصر الدين سعيدوني، المسألة البربرية في الجزائر، مرجع سابق، ص 141.

[2]- المرجع نفسه، ص144/155.

[3]- المرجع نفسه، ص 143.

وهكذا فقد ارتبط الصراع العربي الأمازيغي بالصراع العربي الفركوفوني، فالتيار العروبي الإسلامي يرفض أن تكون هناك لغة وطنية غير العربية، والتي علينا تنميتها وترقيتها حتى تتمسك بكل مقاليد الإدارات والوزارات الجزائرية، فتكون العربية هي لسان الرئيس والوزير، كما تكون لسان الشعبي البسيط، أما فيما يخص اللهجات الأمازيغية فهي لا تعارض أن تكون لغة تواصل على المستوى الاجتماعي لا غير.

من العرض السابق يتضح بشكل جلي أن الخطاب العروبي هو خطاب أيديولوجي في المقام الأول، ويرجع تاريخ ظهوره إلى فترة تحرر بلدان العالم الثالث من ربقة الاستعمار الغربي، ويقوم على فكرة الولاء التام للأيديولوجيا العربية من حيث المبدأ مطلقا، لقد حاول أصحاب هذا الخطاب اختزال جميع مكونات المجتمع فيما هو عربي، غير مراعين مكونات الواقع الذاتية والثقافية والعرقية والتاريخية التي يفرضها الواقع المعيش، وقد عرف هذا الخطاب أوج قوته عقب استقلال الجزائر، غير أنه يعرف الآن انحدار كبيرا خاصة مع مطلع الألفية الجديدة، إذ لم تعد الساحة السياسية مرتعا له وهذا بفضل المرونة التي صار يتمتع بها الانسان الجزائري مع خطابات الهوية.

لم يكتف أصحاب الخطاب العروبي بالدفاع عن التوجه العروبي للدولة الجزائرية، عن طريق تبني اللغة والثقافة العربية في الجزائر، بل سعوا إلى نفي ذلك الاختلاف الاثني والعرقي في الجزائر، فنجدهم يرجعون أصل سكان الجزائر مشرقي في كل الأحوال، وهنا نستطيع تلمس ما قاله أحمد بن نعمان حول هذا الموضوع إذ نجده يميز بين نوعين من الانتماء:

1/ الأصل الحصاني: ويقصد به الأصل السلالي نسبة إلى الآباء والأجداد.

2/ الأصل الإنساني الإيماني: الذي يرى فيه أن الدين يلغي كل تلك الانتماءات العشيرية الأرضية، لينصهر الجميع داخل بوتقة الأخوة الدينية التي لا فرق فيها بين عربي ولا أعجمي ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى، فالأول دموي والثاني سماوي[1]، وبالتالي فإن الدعوة إلى العودة إلى الأصل الأول دعوة مذمومة، وأما الثانية فهي دعوة محمودة، وهذا ما حاول إثباته عثمان سعدي من خلال كتابه؛ البربر الأمازيغ عرب عاربة، والذي حاول من خلاله إثبات عروبة شمال افريقيا عبر التاريخ كما يظهر من عنوان الكتاب، والذي ساق فيه العديد من

[1]– أحمد بن نعمان، مولود قاسم... حياة وآثار، مرجع سابق، حاشية ص54.

الدلائل والقرائن التي تؤيّد نظرته، سواء من ناحية التشابه في الحياة الاجتماعية بين العرب والبربر، أو بين التقارب اللغوي بين الأمازيغية واللهجات اليمنية القديمة، وذلك سعيا منه إلى إثبات الوحدة الإثنية للشعب الجزائري، ودحض كل ما يروج له بوجود اختلاف عرقي في الجزائر، معتبرا أنّ كل تلك الدعوات هي دعوات صهيونية يراد منها تفتيت الجزائر، والوطن العربي إلى دويلات على أساس عرقي وطائفي[1]، وذلك حتى تسهل مهمتهم في حربهم على اللغة العربية، العامل الوحيد القوي الذي لازال يربط العرب كشعوب ودول.

وكخلاصة عامة لمبادئ هذا التوجه نستطيع القول أنّهم يرون أنّ البربر عرب عاربة، وأن اللغة الأمازيغية/البربرية لهجة من اللهجات العربية القديمة التي لازلت بقاياها باليمن، كما أن أي محاولة لتغيير النسيج الاجتماعي الجزائري سواء إثنيا أو لغويا هي سياسة استعمارية، وأصحابها مجرد بقايا للتواجد الفرنسي في الجزائر، كما يرون أن مطالب الحركة البربرية تبطن العداء للإسلام في المقام الأول، فهي إن رفعت مطالب اجتماعية وثقافية إلى أنّ المطلب الأساسي لهم حسب عثمان سعدي[2] يتمثل في:

- تغيير مضمون الهوية الوطنية من هوية ثنائية العروبة/الإسلام، إلى هوية ثلاثية العروبة/الأمازيغية/الإسلام.
- اعتماد ما يسمون برأس السنة البربرية الذي خلقه لهم الآباء البيض من العدم حتى يوازوا به رأس السنة الهجرية الإسلامية.

وفي الأخير نرى أن النزعة العروبية تشكلت في فترة الصراع الجزائري الفرنسي، فهي من حيث المبدأ سعت لإثبات وجود الأمة الجزائرية، خاصة مع سعي الاستعمار الفرنسي لطمس الهوية الجزائرية، غير أن دفاعها عن هوية الشعب الجزائري قد أوقعها في مغالطات كثيرة، جعلتها تنكر وجود ذلك الاختلاف الاثني في الجزائر، كما أنها رمت كل خطاب مخالف لتوجهاته بالخيانة والعمالة دون النظر في حق الاختلاف الذي يكفله الإسلام لكافة معتنقيه، فالاختلاف آية من آيات الله في خلقه.

---

[1]- عثمان سعدي، البربر الأمازيغ عرب عاربة، مرجع سابق، ص6.

[2]- المرجع نفسه، ص 9.

المطلب الثاني: الخطاب الأمازيغي الفرنكفوني[1]

نشأ هذا الخطاب على أعقاب الخطاب العروبي الإسلامي الذي حاول اختزال الهوية الجزائرية في قالب العروبة فقط، إذ ترى شريحة مهمة من الشعب الجزائري حقها في الاختلاف، كيف لا وهم ساكنة الجزائر الأصليين، غير أن هذا الحق في الاختلاف قد تحول إلى أيديولوجيا قاتلة عند بعض المطالبين بالانتصار للهوية الأمازيغية، كما أنها تعرضت للمتاجرة بها من أجل تحقيق مكاسب شخصية على حساب القضية الأم، ولهذا فإن المتأمل لما هو موجود من خطابات حول القضية الأمازيغية يدرك أنّ بعضها يتماهى مع طروح خارجية، ويستورد مقولات غربية أو شرقية، ويسقط الدخيل على ما هو أصيل، وهذا إن دل على شيء إنما يدل عن جهل بالقضية، والبعض الآخر تتراوح آراؤه بين النظرة الواقعية للقضية والتناول العلمي لها، ولهذا سنحاول خلال هذا الفصل بيان طبيعة هذه المواقف ومنطلقاتها ومقاصدها.

قبل أن نفصّل وننظر في آراء هذا التيار وجب التساؤل لماذا أثارت القضية الأمازيغية كل هذا النقاش بين الباحثين والدارسين، ولماذا حافظ الأمازيغ على تميزهم، رغم أن الثقافة الأمازيغية قد عرفت انحسارا كبيرا مقارنة بما كانت عليه من قبل؟

الفرع الأول: أسباب انحسار اللغة الأمازيغية

للإجابة على هذا السؤال ينبغي أن نعرف تأثير التاريخ على الفرد والأمة، فالإنسان حتى قبل ولادته يكون له تاريخ يستند عليه، وهذا هو العامل الحسم الذي جعل الأمازيغ يتمسكون بعاداتهم وثقافتهم، كما لعبت الجغرافيا الطبيعية دورا مهما بخصوص هذه المسألة، بحيث جعلت بعض العادات رموزا ثابتة، عملت تأثيرها على التاريخ، "فالبيئة الطبيعية كالمناخ، وطبيعة الأرض، ونوع الغذاء، والموقع الجغرافي، هي عامل جوهري في تكوين

[1]– إن الجمع بين الخطابين الأمازيغي والفرنكوفوني معا، ليس معناه أن الأول ينبثق من رحم الثاني أو العكس، وإنما وجدنا أن هناك نقاط تلاقي كثيرة بين الخطابين، بحيث نكاد نجد أنهما يتفقان حول نظرتهما للخطاب العروبي الإسلامي، فالأول يرى أن الخطاب العروبي مهيمن، والثاني يراه مناجزا.

الأحداث التاريخية وتطورها، مما ينعكس على تكوين الطبائع الإنسانية، بمعنى اختلاف الطبائع بين الشعوب ناتج بالدرجة الأولى عن اختلاف العوامل الجغرافية بين بلدانها"[1].

ومن هنا يتضح جليا دور البيئة الطبيعية في تشكيل الأحداث التاريخية والحفاظ على تميز شعب عن آخر، إلا أنّ هذه البيئة غير حصينة على الاختراق مطلقا، فقد أثبتت الوقائع التاريخية أن اللغة الأمازيغية قد انحصرت بشكل كبير أمام لغات الغزاة المختلفة، خاصة في نقاط التماس الكبرى (الحواضر الكبرى)، وهذا يرجع في نظرنا إلى أنّ الأنا الحضاري الأمازيغي لم يتشكل بعد، أو أنّه لم يستو على سوقه بعد، وهو ما جعل الإنسان الأمازيغي يلعب دور التابع دوما، أو إنه يفضل الانسحاب إلى مناطق مغلقة حفاظا على نفسه من الذوبان في غيره، وهو ما سمح باستمرارية الثقافة الأمازيغية، كما لعب الفوات الحضاري للأمم التي عاصرها الأمازيغ دورا كبيرا في هذا الانحصار، فشمال افريقيا كما قيل دائما ما يدخل التاريخ بجهود الغزاة لا بجهود الأمازيغ أنفسهم[2]، الأمر الذي أثّر على سيرورة الثقافة واللغة الأمازيغية.

يشير صالح بلعيد[3] أن من أسباب اندثار اللغة الأمازيغية وتعدد لهجاتها يعود إلى:

01/ توزع الأمازيغ في مناطق متباعدة مما أدى إلى ظهور خلافات بين اللغة الأم، فقد انقسمت المنطقة منذ الألف الثالثة قبل الميلاد إلى إقليمين، إقليم صحراوي، وآخر ساحلي، مما حذا بالساكنة إلى اعتماد نمطين من المعيشة، مجتمع زراعي في الشمال، على غرار كل حضارات حوض المتوسط، وآخر صحراوي، رعوي، بدوري، يعتمد على الترحال للحصول على الماء والمراعي، وهو الأمر الذي أدى إلى التمايز الاجتماعي بين الساكنة.

02/ عدم تأسيس المدنية التي تعمل على ترقية اللغة، بل كانت هناك صراعات عسكرية عملت على اللاإستقرار، بل إن الاستقرار الذي عرفته شمال افريقيا كان نتيجة هبوب رياح الهجرة المشرقية، فمعها عرف الأمازيغ الانتقال التدريجي من التجمعات السكانية الصغيرة نحو القرى، ممهدة الطريق لظهور المدن الصغيرة (اتحادات وكنفدراليات قبلية).

---

[1]– كريستين نصار، الانسان والتاريخ –أثر التاريخ وتأثره بسيكولوجية الفرد–ن منشورات جروس برس، لبنان، ط1، 1991، ص31.

[2]– غابرييل كامب، في أصول بلاد البربر، مرجع سابق، ص7

[3]– صالح بلعيد، في المسألة الأمازيغية، دار هومة، الجزائر، ط2، 1999، ص32.

03/ غياب دولة مركزية للأمازيغ تفرض لغتهم فرضا قهريا، وهنا نفتح قوسا لنقول أنّه ومنذ خروج الفاطميين من المغرب واتجاههم إلى مصر، والأمازيغ يحكمون أنفسهم، غير أنهم لم يستعملوا اللغة الأمازيغية كلغة رسمية للدولة بل تم الحفاظ على اللغة العربية كلغة رسمية بها تتم المراسلات وتعقد المعاهدات.

04/ الجانب النفسي الذي تمتع به الأمازيغ، وهو الذي جعلهم يحبون لغة الغير ويقبلون عليها، خصوصا مثقفي الأمازيغ الذين لطالما استعملوا لسان الغير للتعبير عن علومهم وابتكاراتهم المعرفية.

ينضاف إلى الأسباب السابقة مجموعة من الأسباب الأخرى تعضد ما سبقها، فبالإضافة للإهمال الكبير الذي عانت منه الأمازيغية على يد الغزاة من جهة، وعلى يد أبنائها من جهة أخرى، فإنّ اللغة الأمازيغية كانت شفوية، تقترض الكثير من المفردات من لغات أخرى، كما أن غياب الدعم الإيديولوجي والقومي والديني لها ساهم كثيرا في تراجعها واندثارها، فالأمازيغ رغم احتكاكهم بإمبراطوريات كبرى واطلاعهم على خبايا تسيير الدول، وأهم مفاصل حكمها، درجوا إلى استعمال لغة الوافد، فحتى ماسينيسا الذي يعد مؤسس الدولة النوميدية العظيمة، والتي سيطرت على كل شمال افريقيا تقريبا، لم تكن الأمازيغية هي لغة الدولة الرسمية حينها، وهو الأمر الذي يبقى محيرا كثيرا، فهل كانت الأمازيغية قاصرة إلى هذا الحد حتى يتم التخلي عنها من طرف أبنائها؟ وهل صحيح أنه يعوزها التعبير، بالتالي فهي غير قادرة على مسايرة العصر الحديث؟

إن الواقع الماثل أمام أعيننا اليوم يجيب على كثير من التساؤلات السابقة، فالأمازيغية مازالت حاضرة اليوم، وفي كثير من مناطق الوطن رغم اختلاف لهجاتها، ولهذا فإن مقولة أن اللغة الأمازيغية قاصرة قول عار من الصحة، كما أننا نلحظ في الآونة الأخيرة مساعي للنهوض بهذه اللغة، خاصة وأنها تحوز كل مقومات اللغة من بنى نحوية وصرفية.

الفرع الثاني: الخطاب الأمازيغي

لقد ارتبط موضوع الأمازيغية بكثير من القضايا والإشكالات التي أسالت الكثير من الحبر بين الباحثين، ولذلك يجب الحديث عن القضية الأمازيغية بمعزل عن الطابع العام لجميع الخطابات سواء على المستوى الثقافي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، إذ أننا نلمس في كثير من الأحيان محاولات عديد للمتاجرة بهذه القضية، وعلى هذا نتلمس ثلاث مناحي للخطابات نحو هذه القضية ممثلة في:

01/ خطاب أمازيغي تغريبي: يلّح أصحاب هذا الطرح أنّ الأمازيغ هم امتداد للضّفة الشمالية لحوض البحر الأبيض المتوسط، مستغلين التمايز الفيزيولوجي للأمازيغ عن غيرهم من الأقوام الوافدة، ومن غريب الصدف أن رواد هذا الخطاب هم خريجو المعاهد الاستعمارية، لقد سعى أصحاب هذا الخطاب إلى تجريد الأمازيغ من انتمائهم التاريخي والجغرافي والثقافي بل وحتى الديني، وما تلك النظرة الفرنكوفونية التي اعتلت صهوة المنابر والمنظمات الحقوقية إلا مرآة عاكسة لهذا التوجه.

02/ خطاب أمازيغي قومي إقصائي: يسعى هذا الخطاب إلى اختزال تاريخ الجزائر مبتورا من الحقبة الإسلامية، وقد ظهر هذا على أعقاب سياسة التعريب التي باشرتها الدولة الجزائرية، كردّ فعل على تهميش المطالب الأمازيغية، من حيث اللغة والثقافة، متخذا من العمل الحزبي والجمعوي مطية لذلك.

لقد حاول هذا أصحاب هذا التيار تحقيق مكاسب ومنافع شخصية، مستغلين علاقتهم بالقضية الأم من الأساس (النسب، القرية...)، حتى أضحت القضية الأمازيغية بالنسبة لهم وسيلة ضغط على الحكومات المختلفة، فضاعت الأمازيغية على رفوف المصالح الذاتية لأصحابها، والغريب في الأمر أن أصحاب هذا الخطاب قد حاولوا استنساخ تجارب لأمم سابقة إلا أن اختلاف السياقات التاريخية، والدينية، جعل تلك الحلول توضع في خانة الطوباوية.

تجدر الإشارة أن الخطابين السابقين يلتقيان في توظيف القضية الأمازيغية كل على حسب ما ينفعه منها، فقد حاول الأول استغلال ذلك التمايز بين مكونات النسيج الاجتماعي الجزائري، مع الإعلاء من قدر نسيج على حساب الآخر، وهي نفس النظرة الاستعمارية، في حين حاول الثاني تحقيق مكاسب للقضية غير أن السبيل إلى تلك المكاسب قد اختلط مع

مكاسب شخصية أدّت إلى ضياع القضية الأم، وصار استدعائها يتم لتهييج جموع المنتسبين لها من طبقات الشعب الضعيفة.

من جانب آخر وجب الإشارة أن هناك خطاب ثالث؛ غير أنه أقل تأثيرا ممن سبقوه نشأ هذا الخطاب على أعقاب الخطابين السابقين، وسعى بكل قوة لتوطين اللغة الأمازيغية لتصير أختا للعربية لا ضرة لها، وقد تزعم هذا الخطاب نخبة من الأساتذة والباحثين الجامعيين، الذين يرون أن الاختلاف رحمة، وتعدد الألسن ثراء لهذه الأرض، ويجب على الجزائريين أن يؤمنوا بالاختلاف في إطار الوحدة، لأن إقرار توطين اللغة الأمازيغية هو بمثابة إعادة التوازن للمجتمع الجزائري، فالدولة الجزائرية بعد الاستقلال قد قامت بتأميم ودولنة كل شيء، بدءً بالدين، واللغة، ووصولا إلى التاريخ، بغية منها في تشكيل الأمة المركزية كما فعلت فرنسا قبل ذلك، ولذلك يرى محمد أركون "أن تبني الدولة اليعقوبية القسرية (نموذج الدولة ذات الثقافة الواحدة) لم يبق أيّ مجال للثقافة البربرية، كما قام بتقليص اللغة والثقافة البربرية إلى مجرد بقايا هامشية، ولم تعترف بالخصوبة الفكرية والثقافية للتعددية اللغوية... إن الاعتراف بالتعددية اللغوية والثقافية يشكل إضاءة للفضاء المغاربي في أحد أبعاده التاريخية والأنثروبولوجية، وهو البعد البربري"[1].

[1]– مصطفى كيحل، نقد أيديولوجيا خطاب الهوية والدولة عند محمد أركون –من ميتافيزيقا الخطاب إلى تاريخيته–، ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول سؤال الهوية والإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم في ظل العولمة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم الفلسفة، جامعة الحاج لخضر باتنة/الجزائر، 2010، ص110/111.

الفرع الثالث: واقع اللغة الأمازيغية في الفترة الاستعمارية

إن البحث في أسباب هذا الصراع اللغوي في الجزائر، يعود بنا إلى فترة الوجود الفرنسي في الجزائر، فلم يسبق أن عاشت الجزائر هذا القلق الهوياتي إلاّ مع وصول الفرنسيين أنفسهم، وقد لعبت السياسة الفرنسية دورا كبيرا في تعزيز هذا القلق، فمنذ إصدار الظهير البربري[1] في 16 ماي 1930م والقضية الأمازيغية مثل القنبلة الموقوتة التي تهدد كيان الأمة الجزائرية، إذ لم تغب هذه القضية على الساحة السياسية الجزائرية منذ ذلك التاريخ، لقد طفى على سطح طاولات الساسة الجزائريين، سؤال الهوية وظهرت بوادر صراع قومي حول هوية الأرض الجزائرية، بعد أن دفن هذا الصوت منذ الفتح الإسلامي لشمال افريقيا، وقد عرف تاريخيا هذا الصراع بالحركة البربرية، ففي سنة 1936م حدث أول تصادم بين فئات الشعب الواحد، ففي حين سلمت الحركة الوطنية ممثلة بقرارات المؤتمر الاسلامي بمبدأ الاندماج مع فرنسا، وأمام إلحاح سكان القبائل على اعتبار الجزائر أمازيغية لا عربية، (وهو الأمر الذي اعتبره ميصالي الحاج جهوية مقيتة[2])، رد ميصالي الحاج قائلا: "احتراما للغتنا الوطنية اللغة العربية، والتي كلنا نعتز بها ونعجب بها... وأيضا تقديرا لنبل هذا الشعب الجزائري الشجاع الكريم... فقد أردت أن أعبر أمامكم بعد نفي دام اثنتي عشرة سنة بلغتي الأم"[3].

---

[1]– قانون أصدرته السلطات الاستعمارية بعد فشل السياسة الفرنسية بكل وسائلها الدعائية والتعذيبية في النيل من وحدة الشعب الجزائري، وتتجلى الأهداف الحقيقية لهذا القانون في:

– التفريق بين العرب والبربر مع الاعلاء من مكانة الثاني والتنقيص من الأول، لاستقطابهم وفك الارتباط بالإسلام والعروبة.

– استبدال سلطة الفقيه (الإمام) بالمعلم والمدرس الفرنسي، وتشجيع التنصير.

– إحلال اللغة الفرنسية مكان اللغة العربية.

–إحلال المدارس الفرنسية مكان الكتاتيب والزوايا الإسلامية.

– تقويض تعلم العربية ببلاد القبائل.

– فتح باب الهجرة أمام الجزائريين، وخاصة سكان القبائل.

[2]– صالح بلعيد، في المسألة الأمازيغية، دار هومة، الجزائر، ط2، دت، ص53.

[3]– ناصر الدين سعيدوني، المسألة البربرية، مرجع سابق، ص22.

يرجع محمد الهادي حارش أسباب ظهور الوعي الأمازيغي في القرن الماضي، إلى ظهور القوميات عند مختلف شعوب العالم، وخاصة تلك الموسومة بالأقليات، والأمازيغ حسبه هم أقلية في العالم، وطبيعي أن يبحثوا عن خصوصياتهم اللسانية، والاجتماعية الثقافية، أملا منهم في حماية أنفسهم من الانقراض، أو بالأصح الذوبان، وبالتالي زوال القضية الأمازيغية[1]، فالقلق هو معيار تحرك ذلك الوعي الأمازيغي حسبه، غير أننا نتساءل حول ماهية الخوف المحرك لهذه الأقلية هل هو الخوف من الذوبان في القومية العربية التي تعالت الأصوات المدافعين عنها، أم هو الذبان في بوتقة نظام غربي رأسمالي ليبرالي؟

وتجدر الإشارة أن المتتبع لمسار نشاط الحركة البربرية يتضح له بشكل جلي أن هذا المسعى (إحياء اللغة والثقافة الأمازيغيتين) قد مرّ بثلاث منعرجات رئيسية، بحيث أن أول منعرج حاسم مرّت به الحركة تمثل في أزمة حركة الانتصار للهويات الديمقراطية سنة 1948-1949م، أو ما عرف تاريخيا بأزمة حزب الشعب، وتعود جذور هذه الأزمة إلى سنة 1947/1946م عندما تمّ طرح مسألة طبيعة الجزائر، هل هي أرض عربية أم أمازيغية؟ وأمام تمسك الميصاليين بأن الجزائر أرض عربية إسلامية، ارتفعت الأصوات المطالبة بأنّ الحزب لم يحدد الثوابت الحضارية للجزائر في ميثاقه التأسيسي، ولذلك وجب النظر إلى واقع النسيج الاجتماعي الجزائري، وقد رفع هذا المطلب بالخصوص الطلبة الملتحقون بالحزب بعد تخرجهم من المدارس الفرنسية (الطلبة الذين تخرجوا من مدرسة المعلمين بالجزائر العاصمة وكذا الطلبة الذين تخرجوا من الجامعات الجزائرية والفرنسية وكانت لهم تجارب سياسية بفروع الحزب بفرنسا)، وهكذا تم إخراج مصطلح الجزائر البربرية لأول مرة إلى العلن.

لقد تزعم الحركة البربرية كل من حسين آيت أحمد، وعمار ولد حمودة، وعمر أوصديق، وواعلي بنّاي، وأصبحوا يشكلون نواتها، وهي الهيئة التي كانت حسب بن يوسف بن خدة تتولى القيام بطرح المفهوم البربري للهوية الجزائرية، ولهذا نجده يعود في كتابه جذور أول نوفمبر 1954م، إلى تلك الأزمة من خلال بيان أهداف هذه الحركة التي لم تخفي نيتها في المطالبة بدولة جزائرية أمازيغية بعيدة عن الانتماء العروبي الإسلامي،

---

[1]- محمد الهادي حارش، دراسات في تاريخ الجزائر-الماضي والحاضر-، دار هومة، الجزائر، دط، 2013، ص43.

فأغلب دعاة البربرية حسب بن خدة، ينكرون أي اسهام حضاري للعرب والمسلمون في شمال افريقيا[1]، ولهذا فهم يلتقون بالشيوعيين في هذا المسعى.

غير أن أكبر خطر واجهه الحزب، كان ما حدث بمكاتب الحزب بفرنسا، إذ استطاع محند علي يحي أن يبث أفكار الحركة البربرية في 80% من مكاتب الحزب، وهو الأمر الذي كاد أن يؤسس لحزب موازي لحزب الشعب أطلق عليه حزب الشعب القبائلي، لولا جهود قادة الحزب هناك واستئسادهم في الدفاع عن مبادئ الحزب من خلال دحض النظرية العرقية التي بنيت عليها النزعة البربرية واستثارة المشاعر الوطنية، وتعزيز وشائج الترابط والتماسك الاجتماعي الجزائري[2].

وقد كادت هذه الأزمة أن تعصف بالحزب، لولا أنّ القياديين قد وضعوا كل مشاكل الحزب جانبا حتى يتحقق الاستقلال، لقد كان تغليب المصلحة الوطنية خلال هذه الأزمة بمثابة طوق النجاة من هذا المنعرج الذي سعت السلطات الفرنسية لاستغلاله أحسن استغلال لإضعاف الحزب ومن ثم الحركة الوطنية.

وبالفعل لم تذكر المصادر التاريخية أن مسألة الهوية الجزائرية قد نوقشت بعد هذه الأزمة، إلا بعد استقلال الجزائر، فحتى عند انعقاد مؤتمر الصومام التاريخي 1956م، تم استبعاد هذه القضية من على طاولة كل الحاضرين كون الكفاح المسلح هو ما يجمعهم كلهم، لقد كان الهدف الأسمى لكل الجزائريين آنذاك هو التحرر من ظلام الاستعمار بعد قرن وربع القرن من المعاناة.

وفي تعقيب له حول هذه الأزمة؛ يذكر محمد الهادي حارش، أن ما اصطلح عليه أزمة حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، كانت مجرد نقاشات في مسألة الهوية الوطنية وتصور للأمة الجزائرية، قدمها كل طرف داخل الحزب، غير أنها تطورت فيما بعد لتصبح أزمة كادت تعصف بكيان الحزب ككل، ومرد هذا الأمر أزمة التسيير داخل الحزب، فالأزمة أزمة هوية قبل أن تكون أزمة بربرية[3]، كما يعود ويقول أنّ سبب هذه الأزمة هم قادة الحزب

---

[1]– بن يوسف بن خدة، جذور أول نوفمبر 1954م، ترجمة: مسعود حاج مسعود، دار الشاطبية للنشر والتوزيع، ط2، 2010م، ص238.

[2]– المرجع نفسه، ص240/244.

[3]– محمد الهادي حارش، دراسات عن تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص54.

أنفسهم وعلى رأسهم ميصالي الحاج، الذي حكم الحزب بصيغة فردية بعيدا عن الهيئة الاستشارية للحزب، "فقادة الحزب لم +يكن في مقدورهم التطرق بوضوح لمسألة الهوية الجزائرية في كامل مكوناتها... خاصة في ظل تنامي الوعي العروبي، وعلاقة ميصالي الحاج مع شكيب أرسلان الذي كان داعما للتوجه العروبي ومن ثم القومية العربية"[1].

وهو ما حاول حسين آيت أحمد بيانه في عديد من المرات، من خلال حديثه عن العلاقة بين مقاطعتي الجزائر وتيزي وزو، والتي اتسمت بالتوتر طوال مسيرة الكفاح التحرري، ففي كتابه روح الاستقلال حاول آيت أحمد الرجوع إلى هذه المسألة، من خلال تتبع جذورها إلى أن طرحت على مستوى قيادة الحزب، حيث يرجع الخلاف بين المقاطعتين (الجزائر والقبائل) إلى أخطاء استراتيجية وسياسية ارتكبها قادة الحزب، بالإضافة إلى أخطاء بسيكولوجية طبعت نفسية القادة، الذين كانوا يتوجسون من ظهور جهوية قبائلية، تعصف بالمسار النضال للحزب، بالرغم من أن مناضلو القبائل كانوا قد طرحوا فكرة التبعية الإدارية لقطاع منطقة الجزائر درءً للشك[2].

من جانب آخر؛ لم تكن القضية البربرية بعيدة عن اهتمام مناضلو مقاطعة القبائل، بل كانوا يستدعونها كل ما سنحت الفرصة، وهو ما حدث في مارس 1946م، خلال زيارة عمار خليل لمنطقة القبائل من أجل متابعة عمل الحزب، إذ بادره حسين آيت أحمد بمشكلة القبائل بالقول أنّ "الجزائر بربرية من الناحية الإثنية، وفيها ناطقون بالعربية وناطقون بالبربرية، وننتمي نحن للفئة الأخيرة، ولسنا ضد الإسلام الذي نعيش يوميا قيمه الإيجابية والديناميكية، لكننا نعارض الديماغوجية الدينية كعامل في التكوين السياسي"[3]، غير الأحداث التي كانت تعرفها الجزائر في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، جعلت القادة يوجهون جهدهم نحو الكفاح من أجل استرجاع السيادة الوطنية، وهو ما أشار إليه آيت أحمد في كتابه "إلى الشباب المطالبين باللغة البربرية الذين يلوموننا بأننا لم نطرح –أو لم نحسن طرح

---

[1]– المرجع السابق، ص55.

[2]– حسين آيت أحمد، روح الاستقلال مذكرات مكافح 1942–1952م، ترجمة: سعيد جعفر، منشورات البرزخ، دط، 2002م، ص83

[3]– المرجع نفسه، ص86.

⋆: مؤتمر حزب الشعب الجزائري 15 فيفري 1947م.

هذا المطلب– خلال هذا المؤتمر*، أجيب أننا فعلا لم نكف عن فعل ذلك، فالبربرية كنا نعيشها، ومسألة العودة إلى الأصول لم تكن تطرح للوثبة الشعبية التي خرجت منها، كما لم تطرح للهياكل التي كانت متجذرة فيها، فترقية الفكر الثوري والممارسات الديمقراطية كانت طريقة لرد الاعتبار للثقافة البربرية، وإن لم نكن –وربما ذلك خطأ– نطالب بالحق في كتابة وتعليم اللغة البربرية، فكان ذلك يرجع لكون أن الحزب وإن أراد ذلك لم تكن له السلطة الفعلية لمنح ذلك، ولا يجب أن نخفي أنه حتى وإن كنا نستعمل القبائلية والعربية الدارجة في المناطق الناطقة بالعربية، فاللغة الفرنسية كانت الأداة الأساسية إن لم نقل الوحيدة عندما نصل إلى نوع ما من التجريد والاتصال الشفهي والكتابي لدى المؤسسات القيادية في منطقتنا وداخل الحزب"[1]، وفي هذا إشارة واضحة أن المسألة البربرية لم تكن المشكلة الأساس للمجتمع الجزائري، وأن مناقشتها داخل الحزب لم تكن لتعطي أي نتيجة لغياب السلطة الفعلية للحزب، كما أنه لم تكن هناك لغة رسمية أثناء الاجتماعات داخل الحزب، وهو نفس التوجه الذي نبّه إليه بي يوسف بن خدة بالقول أن "الثقافة واللغة البربرية كانت متداولة في هياكل الحزب، ولم يحدث أبدا أن طرحت مسألة الاعتراف بها داخل هياكله"[2].

الفرع الرابع: الربيع الأمازيغي وعلاقته باللغة الأمازيغية

بعد الاستقلال أعيد فتح دفاتر الصراع الهووي من جديد، خاصة بعد أن اعتمدت الدولة سياسة عربية محضة، إذ جاءت في المواثيق الوطنية 1961م و1963م[3] لتكرّس الانتماء العروبي للجزائر، وأنّ الجزائر دولة عربية وتنتمي إلى دائرة الحضارة العربية الإسلامية، حينها تعالت الأصوات بضرورة الالتفات للنسيج الاجتماعي الجزائري بصورة أوضح، فمن غير المعقول أن يتم اختزال مكونات المجتمع في مكون واحد، وحرمان ملايين الجزائريين من لغتهم الأم، لكن على النقيض من ذلك، جرى التضييق على دعاة الأمازيغية وألغي كرسي البربرية من جامعة الجزائر، وزجّ بالمنادين بها في السجون، كما تم إلغاء بعض القنوات الإذاعية المحلية، وتقليص ساعات البث الإذاعي للقنوات الأمازيغية، وكرد

---

[1]– المرجع السابق، ص 106.

[2]– بن يوسف بن خدة، جذور أول نوفمبر 1954م، مرجع سابق، ص246.

[3]– نصت المادة الخامسة من دستور 1963م على أن اللغة العربية هي اللغة القومية والرسمية للدولة.

فعل على ذلك تأسست الأكاديمية البربرية عام 1967م بفرنسا، على يد مولود معمري، والتي حملت على عاتقها مهمة لم شتات الحركة الأمازيغية، إذ عملت على تأسيس كراسي البربرية في كثير من الجامعات الفرنسية، كما تمكنت من الحصول على إذن البث عبر الإذاعة الفرنسية كل يوم لمدة ربع ساعة، هذا بالنسبة لعملها في الخارج، أما على المستوى الداخلي فقد استطاعت الاكاديمية البربرية في إحياء النزعة البربرية من جديد خاصة على مستوى معقلها الأول (منطقة القبائل)، التي كانت أكثر المناطق تأثرا بهذه النزعة.

لقد كانت الجزائر في أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات تعيش وضعا اقتصاديا صعبا، فقد فشلت كل المشاريع التنموية التي كانت من المفروض أن تحدث ثورة على كافة الأصعدة، وهذا الأمر ساهم في تأجيج التوتر داخل الجزائر، أما على المستوى الثقافي فلم يكن يختلف الأمر على المجالات الأخرى، فقد عرفت دوائر الحكم في الجزائر صراعا بين النخبة المفرنسة ونظيرتها المعربة، إذ حاولت الأولى تعطيل مسعى التعريب الذي تبنته الدولة الجزائرية منذ الاستقلال واستطاعت أن تكبحه في عهد الرئيس بومدين، من خلال إلغاء التعليم الأصلي (الإسلامي) وتوحيد المناهج، إلا أن عملت التعريب قد عرفت نشاطا كبيرا في عهد الرئيس بن جديد، واستطاعت النخبة المعربة أن تمسك بمفاصل السلطة، لقد كانت خطابات القومية العربية في أوج قوتها، الأمر الذي جعلها لا تحسن التصرف مع مشكلات الواقع الاجتماعي الجزائري، إذ أن منطقة القبائل كانت تعرف حراكا ثقافيا كبيرا، أصبحت بموجبه تطرح الأمازيغية كهوية وطنية وبل تعدت ذلك إلى المطالبة بأن تكون اللغة الأمازيغية لغة وطنية أيضا، وقد توّج هذا الحراك بأحداث الربيع الأمازيغي 20 أبريل 1980م (المنعرج الثاني لنشاط الحركة البربرية).

وبالرجوع إلى أسباب حدوث تلك المظاهرات نجد أنه تظافرت مجموعة من الأسباب والتي جعلت الأمور تنفلت من بين يدي أصحاب القرار، ولعل أبرزها سوء التعامل الحكومة السياسية مع ملف الأمازيغية، إذ بقيت تلعب دور المتفرج في هذه القضية، رغم أن كل الأحداث كانت تشير إلى أن الأمر قريب من الخروج عن السيطرة، فأمام التحريض التي كانت تمارسه بعض الأطراف من دعاة البربرية، وتشير إليه بشأن التاريخ الجزائري، وتصوّر العرب على أنهم غزاة وأن الجزائر مازالت مستعمرة[1]، كما لعب التضييق الذي مارسته الدولة

[1]– ناصر الدين سعيدوني، المسألة البربرية، مرجع سابق، ص 173.

في ما يخص النشاطات التي كانت تدعو لها الاكاديمية البربرية، وعلى رأسها محاضرات مولود معمري، ومسرحية كاتب ياسين حرب ألفي سنة، وامتد التضييق حتى إلى قطاع الحالة المدنية، إذ لم تكن تسمح الدولة الجزائرية بتسجيل أسماء المواليد الذين يحملون أسماء أمازيغية أو أجنبية[1].

وكرد فعل على أحداث الربيع الأمازيغي؛ واستجابة لبعض مطالب الحركة البربرية، قامت الدولة الجزائرية بخلق بعض المعاهد في بعض الجامعات الجزائرية (خاصة تلك الواقعة في منطقة القبائل، أو المدن التي تتحدث الأمازيغية)، كما وجهت اهتمامها نحو الثقافة الأمازيغية عند طريق إحياء بعض مظاهرها سعيا منها لاحتواء مطالب الحركة البربرية، التي قامت بتصعيد نشاطها "حتى تحول دون تراجع تأثيرها في الشارع القبائلي، أمام تصاعد المد الإسلامي الذي امتدت تأثيراته إلى بلاد القبائل، بفعل الانفتاح الديمقراطي والتعددية السياسية التي أخذت بها الجزائر سنة 1988م"[2]، وهكذا طرقت الحركة أبواب السياسة ودخلتها من بابها الواسع، غير أن ما عرفته الجزائر من أحداث دموية في التسعينيات، جعلت اهتمام جل الأحزاب والجمعيات في الجزائر منصب على المشهد السياسي العام للبلاد، وأهملت بذلك كل القضايا الثقافية، التي سرعان ما عادت لتتصدر المشهد السياسي من جديد، خاصة مع عودة الاستقرار الأمني للبلاد، إذ مثّل مقتل أحد طلبة ثانوية بني دوالة (محمد قرماح) يوم 18 أفريل 2001م [المنعرج الثالث من نشاط الحركة البربرية حركة العروش (2001-2003)]، الشرارة لاندلاع مظاهرات منددة بما حصل والتي سرعان ما تطورت لتصبح مواجهات بين الشعب والدرك الوطني آنذاك، أدت إلى انسحاب قوات الدرك الوطني خوفا من انفلات الأوضاع، الأمر الذي ترك المجال لدعاة البربرية لتأطير الحركة وتوجيهها إذ انبثقت عن هذه السياسة تشكيل لجان شعبية تتكون من العروش الأمازيغية والتي تولت تنظيم المجتمع القبائلي، كما قامت بعقد اجتماع مع مندوبي مجالس القرى لولايات تيزي وزو وبجاية والبويرة 10 ماي 2001م، أفضى هذا الاجتماع إلى إقرار مجموعة من المطالب (أرضية القصر) والتي اعتبرتها الحد الأدنى الذي يمكن التفاوض حوله مع الدولة الجزائرية، لتقرر في النهاية تنظيم مسيرة نحو الجزائر العاصمة،

---

[1]- صالح بلعيد، في المسألة الأمازيغية، مرجع سابق، ص58.

[2]- المرجع السابق، ص177.

من أجل فرض مطالبها على السلطات الجزائرية، والتي سرعان ما تحولت إلى عمليات حرق وتخريب للممتلكات العامة والخاصة، مما أدى إلى اندلاع مظاهرات بين المتظاهرين وسكان العاصمة، أفضت في النهاية إلى تفرق المتظاهرين وانتهاء المسيرة على ومشاهد التخريب الكبيرة التي بثّتها التلفزة الجزائرية آنذاك، والتي كان لها وقع كبير عند الجزائريين.

"لقد كانت خطة حركة العروش تهدف أساسا إلى القضاء على نفوذ الدولة الجزائرية في منطقة القبائل، وجر السلطات الجزائرية إلى استعمال القوة معهم حتى يمكن لهم تجنيد الرأي العام لصالحهم"[1]، وهو دليل على أن حركة العروش سياسية أكثر مما هي حركة ثقافية، تسعى لإعادة الاعتبار للثقافة الأمازيغية، وهو ما فهمته الدولة الجزائرية جيدا، فقامت بإدراج اللغة الأمازيغية في الدستور كلغة وطنية، وبذلك احتوى هذا القرار جميع مطالب الحركة الأمازيغية، وأصبحت منذ ذلك الوقت القضية الأمازيغية بيد الدولة الجزائرية.

وبالعودة إلى نشاط الحركة البربرية بين المنعرجين السابقين نجد أنه في سنة 1989م، خرجت بعض الأحزاب والجمعيات التي كانت تناصر القضية الأمازيغية في السر إلى العلن مستغلة الانفتاح السياسي الذي تميزت به الجزائر آنذاك، ومن بين تلك الجمعيات الحركة الثقافية البربرية (MCB)، والتي نص خطابها الأول على أن لا جزائر بدون أمازيغية[2]، غير أن ما عرفته الجزائر من أحداث بعد ذلك جعل الجمعية تنقسم إلى قسمين، ارتبط كل طرف بحزب (التجمع من أجل الثقافة والديموقراطية وحزب جبهة القوى الاشتراكية)، الأمر الذي أضعف شوكة الحركة، غير أن هذه الحركة استطاعت أن تعود للظهور مجددا عن طريق دعوتها لمقاطعة الدراسة للعام الدراسي 1995/1994م، وهي الدعوة التي لاقت استجابة متباينة بين مختلف الولايات (100% في تيزي وزو، 90% في

---

[1]– ناصر الدين سعيدوني، المسألة البربرية، مرجع سابق، ص 179.

[2]– تأسست هذه الجمعية على أعقاب الانفتاح السياسي الذي عرفته الجزائر آنذاك، ومن أهم المطالب التي نادت بها هذه الحركة:

– الهوية: أمازيغية افريقية عربية إسلامية عالمية.

– الأمازيغية مقوم أساس من مقومات الوحدة الوطنية.

– إعادة النظر في المنظومة التربوية.

– الثقافة الجزائرية ذات سمات متعددة. ينظر صالح بلعيد، في المسألة الأمازيغية، مرجع سابق، ص59.

بجاية، 20% في البويرة، 03% في سطيف)، في حين لم تنخرط باقي الولايات ضمن هذا المطلب (الشاوية، بني ميزاب، وأهل شينوة)، وهو الأمر الذي جعل القضية الأمازيغية تتسم بالجهوية، مع أنها قضية تمس أغلب الجزائريين، وهو الأمر الذي أضعف كثيرا هذه الحركة[1].

[1]– صالح بلعيد، في المسألة الأمازيغية، مرجع سابق، ص59.

المبحث الثاني: المدرسة الجزائرية ودورها في صناعة الهوية الوطنية

لقد لعبت المدرسة الجزائرية بعد الاستقلال دورا كبيرا في تحديد ملامح الهوية الجزائرية، خاصة مع تزايد عدد التلاميذ الملتحقين بها، لقد كانت المدرسة بمثابة القالب الذي يطبع التوجه السياسي والثقافي للمجتمع الجزائري، ولذلك فقد اضطلعت بالكثير من المهام، جعلتها محطة اهتمام الساسة الجزائريين، كما شهدت العديد من الصراعات حول جوهر الوظيفة التي سيتم منحها إياها، فهل تكتفي المدرسة بالتعليم أم أنها تكون أرضية لصناعة الهوية مستقبلا، ولذلك شاهدنا ذلك الصراع يؤدي أن يكون للجزائر نمطين من المدارس (المدارس النظامية ومدارس التعليم الأصلي)، ليتقرر في النهاية توحيد التعليم نتيجة ذلك الصراع الأيديولوجي بين المنهجين.

سنحاول في هذا المبحث التطرق إلى دور المدرسة الجزائرية في صناعة الهوية، ودور التعريب في هذا المسعى، كما نستعرض أيضا قانون ترسيم الأمازيغية الذي هو فاتحة جديدة لتوجه الجزائر.

المطلب الأول: سياسة التعريب في المدرسة الجزائرية

إن المتتبع لمسار التعريب في الجزائر يدرك أنه كان خيار سياسي بامتياز، رغم كل ما أثير حوله من خلافات بين قادة الجزائر آنذاك، وهو ما يطرح الكثير من الأسئلة حول الغاية من طرحه في ذلك الوقت بالذات، خاصة وأن أركان الدولة الجزائرية لم تتوضح بعد، وهل كان للتوجه القومي للساسة الجزائريين دور في تبني ذلك المسعى؟

لقد كان التعريب أحد أكبر التحديات التي واجهت الحكومة الجزائرية بعد الاستقلال، ففي سعيها نحو التفرد عن المستعمر القديم، سعت الدولة الجزائرية إلى تبني التعريب كعنوان لذلك، غير أن هذا الأخير قد واجهته العديد من المشاكل التي قوّضت نجاحه، ولذلك وجب التساؤل ماذا نعني بالتعريب؟ ولماذا فشل على الأقل في توحيد الجميع خلفه؟ وما موقف الجزائريين منه؟

الفرع الأول: مسار التعريب في الجزائر

قبل الحديث عن مسار التعريب ومآلاته، يجب أن نتطرق إلى الواقع اللغوي في الجزائر غداة الاستقلال، إذ تأخذ اللغة في البلاد شكل واقع ثلاثي المكونات، فإلى جانب اللغة الأم (الأمازيغية)، توجد العربية والفرنسية، ولهذا يجب الأخذ بعين الاعتبار هذه الثلاثية في أيّ عملية لهيكلة الثقافة الوطنية، فاللغة في الجزائر "لغة وجود قبل ما هي لغة تواصل"[1]، وذلك نظير الأدوار التي اشتغلت عليها طوال تاريخ الجزائر، إذ لطالما استدعي المكون اللغوي ليكون عنصر انفراد عن الوافد الجديد مهما كان انتماؤه وتوجهه، ففي العصور القديمة حافظت الأمازيغية على تفرد المجتمع الجزائري، وكانت عنصرا موحدا للمجتمع ضد المحتلين الذين مروا على هذا الوطن، ثم ما لبثت أن حلّت اللغة العربية مكان الأمازيغية في هذا المجال، إذ أن الهوية العربية الإسلامية للجزائر صارت ترفع ضد الفرنسيين الروميين، وضد المسيحيين النصارى[2]، وصار مطلب إحياء الثقافة الوطنية العربية على رأس مطالب الحركة الوطنية.

---

[1]– جلبير غرانغيوم، اللغة والسلطة والمجتمع، ترجمة: محمد أسليم، افريقيا الشرق، المغرب، دط، 2011، ص85/84.

[2]– خولة طالب الابراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغوية، مرجع سابق، ص175.

إنّ معنى التعريب عند المدافعين عنه، يعني بالضرورة أن تصبح للجزائر لغة وطنية مقابلة للدولة الوطنية، بحيث تصير اللغة العربية هي لغة الاستعمال اليومي، بل تصير اللغة الأم في الجزائر، فالتعريب إذا "عملية بناء وترميم وانطلاقة ثورية لتعزيز استقلالنا وحماية مكاسب ثورتنا وإيجاد وحدة ثقافية، تكون خير ضمان لوحدتنا الوطنية ووقايتها من شر الازدواجية التي تعاني منها مدارسنا"[1]، فهو بهذا المفهوم قد ارتبط باستكمال الكفاح التحرري، وسعي السلطات نحو الحفاظ على القيم الثقافية الجزائرية، من أجل بناء دولة مستقلة ومتفردة عن المستعمر القديم، فاللغة العربية لها علاقة وثيقة بالهوية، وبناء الشخصية الوطنية، وهي الوحيدة القادرة على الحيلولة دون الاندماج والتلاشي في الثقافة الأجنبية، كما أنها الوحيدة القادرة على المحافظة على أصالة ونوعية الشخصية الوطنية، ولهذا كانت الدعوة للتعريب بمثابة استعادة هوية مفقودة، خاصة أمام انتشار اللغة الفرنسية في الأوساط الإدارية والتعليمية الجزائرية، فاللغة الفرنسية تحيل حسبهم على الاستعمار، والتبعية للخارج، ولهذا فإن أي تقدم علمي وتكنولوجي لا يكون باللغة الأم، ما هو إلا انتصار مؤقت، لأنه جاء بمكاسب أجنبية لا مكاسب داخلية، ولهذا يجب أن نعيد صياغة كل ما هو آت من وراء البحار باللغة العربية، لأنها تحيل على الإسلام، والماضي التاريخي الذي شهد عزة الجزائر، وسطوتها الكبرى، فعملية التعريب تهدف في المقام الأول جعل اللغة العربية لغة حضارة عصرية، تحتل سائر المواقع التي تحتلها اللغة العربية[2].

إنّ مطلب التعريب بالنسبة للمدافعين عنه يرجع بالأساس إلى الأدوار التي اشتغلتها اللغة العربية منذ الفتح الإسلامي للمنطقة، إذ أصبحت اللغة تتدخل باعتبارها عاملا موحدا حول عنصري اللغة والأمة، ولهذا كان لها تأثيرا كبيرا في توحيد الأمة الإسلامية قديما، فاللغة العربية تتيح للمسلمين فرصة للتوحد، أكثر مما تتيحه لها أي مؤسسة أخرى.

---

[1]– سليمان بشنون، الثقافة والشخصية الوطنية، دار هومة، الجزائر، دط، 2013، ص140

[2]– جلبير غرانغيوم، اللغة والسلطة والمجتمع، مرجع سابق، ص36/32.

*: لا يمكننا فهم الإسلام من دون اللغة العربية، غير أننا بالإمكان أن نبقى مسلمين من دون العربية، فالإسلام لم يأت ليلغي الانتماءات.

**: أسالت هذه النقطة بالتحديد الكثير من الحبر بين الباحثين، ومن أجل إثبات الأصل المشرقي سيقت الكثير من الأمثلة التي تطعّم هذا التوجه، كمعاجم الكلمات الأمازيغية وما يقابلها في العربية.

أما في العصر الحديث ومع ظهور الأيديولوجيات المختلفة، فإن دور اللغة العربية تعدّي الدور الوظيفي للغة، ليصبح لها بعدا إيديولوجيا ارتبط بالدولة القطرية (القومية العربية)، إذ صارت الشعوب العربية الناطقة باللغة العربية، تجعل من اللغة عنوانا لانتمائها إلى أمة أوسع من المحيط إلى الخليج، ولهذا كانت حجج أصحاب هذا المطلب تدور حول هذا الفلك، فهي من جهة لغة القرآن ولسان التعبير عن الإسلام، ولا يمكننا فهمه من دون اللغة العربية*، كما أنها تمثل اللغة الأم في الجزائر من جهة أخرى، وذلك أنّنا من أصل مشرقي، ولا أدل على ذلك من التقارب اللساني بين الأمازيغية والحميرية القديمة**.

يعتبر مولود قاسم نايت بلقاسم رائد التعريب في الجزائر، فقد كان رحمه الله من أشد المدافعين على هذا المسعى، بل حمل على عاتقه هذه المهمة منذ أول أيام تقلده وزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي، ولأجل ذلك وضع خطة يتم بمقتضاها تعريب التعليم، والمحيط، والإدارة الجزائرية التي كانت جل تعاملاتها بالفرنسية، ولذلك نجده يقول "لا بد أن تعود اللغة العربية إلى ما كانت عليه في العهود الزاهرة لهذه البلاد، عندما شاركت وساهمت المساهمة الكبرى في انتاج الحضارة الإسلامية، التي كان لها الدور الفاصل في الحضارة الإنسانية"[1]، فاللغة تستمد قيمتها من الاستعمال الذي تخضع له، ولأجل ذلك وضع خطة يتم بمقتضاها استعادة تلك القيمة، ولإنجاح مسعى التعريب، بحيث تتضمن خطته ما يلي:

- إجراء المناقشات في مجلس الوزراء بالعربية، ويرافقه تعريب الدوائر الحكومية، وكل ما يتعلق بها من مراسلات وكتابات على الأبواب والبيانات.
- تنظيم دروس عربية لمن لا يعرف لا يعرفها من الوزراء والموظفين، حتى يسهل التواصل بين الموظفين من جهة، والشعب من جهة أخرى.
- تغيير أسماء الأماكن التي لازالت تحتفظ بأسمائها الفرنسية.
- استغلال أماكن الترفيه كالمسرح، وإلزامية التحدث بالعربية، أي كتابة مسرحيات بالعربية الفصحى[2].

---

[1]– مولود قاسم نايت بلقاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، ص527.

[2]– مولود قاسم نايت بلقاسم، قيمة اللغة في نظر بعض الأمم، مجلة الأصالة، العدد 24، السنة الرابعة، ربيع الأول–ربيع الثاني 1395هـ الموافق لـ مارس–أفريل 1975م، ص2.

الفرع الثاني: مراحل التعريب

لقد كانت خطة مولود قاسم تقتضي في المقام الأول تعريب الأمخاخ والقلوب قبل الألسنة، خاصة أولئك الذين يتولون مناصب عليا في البلد، لأنهم هم الذين تم استئصال روحهم ومسخها، "هذه الطائفة الأمية في لغتها، عوض أن تخجل وتحاول التدارك أو على الأقل تعترف بهذا النقص، نجدها تجسر على احتقار العربية وكل ما هو عربي"[1]، فلذلك لا يمكن أن تنجح عملية التعريب، إلا إذا قمنا بمحو الفرنسية من قلوب الطائفة المثقفة، لأنها الماسكة بزمام الإدارة والتعليم.

إن نجاح عملية التعريب يمر عبر مراحل لعل أولها تعريب التعليم بجميع مراحله حتى الوصول إلى التعليم العالي، ثم تعريب الإدارة لأنها ثاني القطاعات اتصالا بالمواطن، إضافة إلى تعريب المحيط، ووسائل الاتصال حتى يتعود المواطن على اللغة العربية وتصير لغة الاتصال الوحيدة التي تمكنّه من متابعة البرامج الوطنية، إن تعميم استعمال اللغة العربية، لا يمر إلا عبر الإرادة السياسية المتمثلة في رئيس الجمهورية، ومن بعده مجمع اللغة العربية، ثم معرفة اللغة الوطنية عن طريق نشرها عبر وسائل الاعلام (الجرائد والتليفزيون)، أما النقطة الثالثة فهي توفير العتاد المادي الضروري لذلك[2].

وفي هذا الصدد يحدد مولود قاسم مجموعة من الوسائل التي تضمن مواصلة حركة التعريب، وتعطي له دفعة كبرى، وتتمثل هذه الوسائل في:

- المساجد: مهمتها تحفيظ القرآن للصغار، وتدريس الدروس للكبار (الفقه، الحديث، كما تساهم في مكافحة الأمية بالسبورة والكتاب)
- استصدار المجلات والجرائد باللغة العربية حتى تأدي دور الاعلام.
- تنظيم المحاضرات والندوات في المراكز الإسلامية المختلفة عبر مختلف الولايات واستقطاب أكبر عدد من الجماهير، على أن تكون المحاضرات باللغة العربية.
- تنظيم تظاهرات عالمية واستقطاب مختلف الأساتذة ومناقشة مختلف القضايا الدينية واللغوية التي تخص العالم العربي (ملتقيات الفكر الإسلامي)، على أن تتولى الوزارة تنظيمها وتوجيهها، والاهتمام بمضمونها.

---

[1]– مولود قاسم نايت بلقاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، ص20.

[2]– بوعلام جوهري، البعد الدعوي في أعمال مولود قاسم، مرجع سابق، ص259.

- الاستعانة بوسائل الاعلام المختلفة كالإذاعة والتليفزيون وتسهيل نشاطها، مع وضع برامج دقيقة تعنى بنشر اللغة العربية، كترجمة الأفلام الأجنبية أو دبلجتها على الأقل[1].

لقد مرت عملية التعريب في الجزائر بعدة مراحل وعقبات، أدّت إلى تسارعها أحيانا، وإلى تراجعها في أحيان أخرى، ولهذا وجب الإشارة أنّ قد المسألة اللغوية في الجزائر ارتبطت بالأساس بمعضلة بناء الدولة الجزائرية، لذلك سارعت الحكومة الجزائرية لاحتوائها عن طريق جملة من القرارات أهمها قيام جمهورية الجزائر ذات الدين الإسلامي واللسان العربي، كما سارعت الدوائر الحكومية إلى تبني سياسة التعريب، وهنا عرفت اللغة العربية نقلة نوعية، بعدما كانت لغة تدّرس مثل غيرها من اللغات، أضحت بموجب تلك القوانين لغة التدريس الرسمية، إذ لم تنقضي سنة 1971م حتى أصبح تدريس مواد الفلسفة والتاريخ والتربية المدنية والأخلاق يتم بالعربية.

لقد مرت عملية التعريب في المدرسة الجزائرية بالمراحل التالية:

1962-1964م: دخلت اللغة العربية رسميا مجال التعليم عبر أطواره الثلاثة بشكل تجريبي، ولذلك تراوح حجمها الساعي الأسبوعي بين خمس وسبع ساعات، وفي سنة 1963مكانت هناك 3 ثانويات معربة تماما.

1966-1967م: تمّ تعريب السنة الأولى ابتدائي تماما، أما السنة الثانية فتمّ لها ذلك في السنة الدراسية 1968/1967م.

وبهذا أصبح التعريب بمثابة الثورة الشاملة التي يجب أن تمس كل القطاعات، كما يجب أن توفّر له كافة الشروط من معلمين ومكونين، ولذلك فقد أنشئت المعاهد التربوية من أجل تكوين المدرسين والأساتذة.

عرف التعريب انقطاعا في فترة الرئيس هواري بومدين، حيث جمّد التعريب رغبة في تقويم مساره، وألغي التعليم الأصلي بذريعة وحدة التعليم، وهو القرار الذي انتقده مولود قاسم، معتبرا ذلك حربا على اللغة العربية، ففي الوقت الذي تتناقش الدول الكبرى وتقعّد لموضوع اللغة، حيث يعتبرونها بمثابة الجنسية (فرنسا)، أو مادة المواد (ألمانيا)، نرى أناسا عندنا

---

[1]- مولود قاسم نايت بلقاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، 531/529.

يقولون أنّها مجرد أداة، وأنّ اللغة العربية على وضعها الحالي غير طيّعة، والانسان العاقل يختار لنفسه الأداة التي تؤدي الغرض بأحسن الطرق[1].

غير أن عملية التعريب قد عرفت استئنافها مع مطلع سنة 1979م وشرع في تطبيق المدرسة الأساسية والتعريب الشامل إلى أن تحقق ذلك فعلا في 1989م، وهي السنة التي وصلت فيها أول دفعة معربة بشكل كامل إلى الجامعة، التي عرفت هي الأخرى عمليات تعريب ممنهجة، بدأت منذ الدخول الجامعي لسنة 1971م[2]، إذ عرفت التعريب منحى تصاعديا اشتمل على تعريب التخصصات الإنسانية والاجتماعية، كالتاريخ والفلسفة التي أصبحت معربة تماما، ثم الانتقال إلى تعريب التخصصات العلمية، وفق خطة تهدف إلى تعريب الجامعة بشكل تام ونهائي.

ولعل من المناسب أن نشير أن الدولة الجزائرية قد قامت بمساعي حثيثة لتعزيز وجود اللغة العربية في الجزائر، عن طريق استصدار العديد من المراسيم[3] التي تكرس لهيمنة اللغة العربية على كافة مفاصل الدولة الجزائرية، حتى أضحت هناك علاقة وثيقة بين السلطة

---

[1]– مولود قاسم، أصالية أم انفصالية، مرجع سابق، ج2، ص25.

[2]– ينص المرسوم المؤرخ في 1971/08/25 قرارات لتعريب مؤسسات التعليم العالي، ويتضمن ما يلي: "إن أحد أهم المبادئ المسجلة في إصلاح التعليم العلي المطبق منذ سبتمبر 1971م، يتمثل في ضرورة إتقان اللغة العربية من قبل الطلبة الذين حضروا شهاداتهم باللغة الأجنبية.

[3]– تمثلت هذه المراسيم في:

– إجبارية معرفة اللغة الوطنية على الموظفين: 1968/04/26م.

– وجوب استعمال اللغة العربية في تحرير وثائق الحالة المدنية: 1970/02/19م

– قانون تعريب الأختام الوطنية: 1973/01/10م.

– القانون المتضمن تنظيم التربية والتكوين: 1976/04/16م.

– المجمع الجزائري للغة العربية: 1986/08/19م.

– قانون تعميم استعمال اللغة العربية: 1991/01/16م.

واللغة والمجتمع، وعليه فإن المتتبع لهذه العلاقة يدرك أن أسئلة اللغة تصوب نحو ثلاثة اتجاهات هي:

1/ دور اللغة في بناء الدولة وصون المجتمع، باعتبارها عاملا موحدا

2/ دور اللغة في حماية الهوية

3/ علاقة اللغة بالقانون

فبالنسبة للنقطة الأولى؛ نجد أن عملية التعريب اكتسبت دلالة أكبر غداة الاستقلال، إذ أضحت العملية ترتبط بالجانب النفسي لأصحابها أكثر مما ترتبط بالجانب العلمي والتقني، إذ أن البحث عن وحدة المجتمع العرقية واللغوية، قاد المسؤولين الجزائريين من غير وعي منهم، أو بطريقة متعمدّة إلى تمجيد العروبة، وصار التعريب حسبهم هو إحلال اللغة العربية في التعليم محل اللغة الفرنسية الأجنبية، وتوسيع مجال استعمالها، حتى تنتقل من أداة صالحة للتعبير عن الأحاسيس والعواطف والأفكار، إلى أداة البحث في العلوم وتحرير المراسلات.

أما بالنسبة للنقطة الثانية، فإن ارتباط اللغة العربية بالكفاح المسلح ضد فرنسا، وارتباطها بمعايير الجهاد والثورة، جعلها محط اهتمام الجزائريين، فاللغة العربية أتاحت للجزائريين فرصة التفرد والاختلاف عن الفرنسيين، وأضحت كلمة عربي مرادفا للإسلام، كما رفعت الهوية العربية في مقابل الهوية الفرنسية، التي سعى المستعمر لنشرها داخل الجزائر، من خلال العديد من المراسيم والقوانين.

أما النقطة الثالثة وهي التي يرى من خلالها جلبير غرانغيوم بأن اللغة تمارس نوعا القانون على مستعملها، ولهذا فاللغة الفرنسية مثلا عبارة عن هيمنة استعمارية، فهي تحمل في طياتها نمطا من الاكراه، وقد تمثّل ذلك في علاقتها مع المجتمع، وكذلك فعلت اللغة العربية، ولذا فإنّ التعريب أصبح مشكلة لأنه أتى ضمن علاقة الهيمنة التي طبعت الاتصال باللغة الفرنسية، كما أنه اتخذ أشكالا متعددة، ومسّ مرجعيات جوهرية (الأمازيغية، المسيحية) حتى أنه أصبح يعبّر عن صورة البلاد بأكملها، متجاوزا تلك الصورة الثقافية للمجتمعات المغاربية[1].

[1]– جلبير غرانغيوم، اللغة والسلطة والمجتمع، مرجع سابق، ص8.

الفرع الثالث: مشاكل التعريب

ولهذا فقد صادفت عملية التعريب في الجزائر مشاكل عدة، كما طرحت عديد الإشكالات التي لازالت مرتبطة بهذا الخيار إلى يومنا هذا، فإلى جانب أنّه يهدد اللهجات المحلية، على اعتبار أن تبني نموذج الدولة اليعقوبية، ذات اللغة والثقافة الواحدة، هو حرب على اللهجات والثقافات المختلفة التي تميّز الجزائر، فإنه لا يزال يتأرجح بين قطبين متعارضين؛ الأول يرى التعريب مجرد إقلاب؛ بحيث يتم على هذا المستوى تعريب المواد الأدبية والفلسفية والعلمية بما يتناسب مع القيم الأخلاقية والأيديولوجية للأمة الجزائرية، وبالتالي فإنه يتجاوز على هذا المستوى تحويل لغة التدريس من فرنسية إلى عربية أو العكس، إلى أدلجة محتوى المقررات الدراسية، بينما يرى الثاني التعريب على أنه ترجمة، حيث يتّم ترجمة المقررات ومحتوى الدروس إلى العربية[1]، وهكذا فإن غموض معنى التعريب، هو السبب المباشر الذي جعل ذلك المسعى الذي تبنته الدولة الجزائرية يعرف كل تلك الفوضى، فالقسم الأول حاول من خلال التعريب أن يسترجع الذات الجزائرية، لكنه سرعان ما اصطدم بسؤال أي ذات نحن بصدد استرجاعها؟ ولهذا نشهد تداخلا واضحا لعملية التعريب مع عملية رسكلة الهوية الوطنية، التي باشرتها الدولة الجزائرية غداة الاستقلال، في حين أن القسم الثاني حاول من خلاله الولوج إلى ميدان الثقافة العالمية، مع الحفاظ على تعدد الثقافات التي تميّز الجزائر، وبالتالي يكون التعريب وفق هذا المعطى "يتجاوز كونه مسألة لسانية"[2].

من زاوية أخرى نرى أن فشل عملية التعريب يرجع بالأساس أنّ بعض الأطراف استغلته لشرعنة نظام الحكم، والحفاظ على مكاسب طائفة على حساب أخرى، ولهذا فقد قدّم على أنّه طوق النجاة لخطاب السلطة، وتحولت العملية من أيديولوجيا إلى نظام سياسي حمل معه الكثير من مظاهر الاستبداد والتسلط الثقافي، دون الأخذ بالاعتبار تلك الازدواجية اللغوية التي تميز الجزائر، إذ قدّمت اللغة العربية كبديل للغة الفرنسية، وكلغة خطاب رسمية للسياسي الجزائري، مما دفع بفئة من الشعب الجزائري إلى الاحتجاج، وذلك أن التعريب يمسّ خصوصيتها الثقافية بل يمتد حتى إلى وجودها، ولهذا كان صدى مطلب التعريب في

---

[1]– المرجع السابق، ص17/16.

[2]– جلبير غرانغيوم، اللغة والسلطة والمجتمع، مرجع سابق، ص17.

المناطق الناطقة بالأمازيغية ضعيفا جدا، بل إنّ اللغة العربية نزلت منزلة اللغات الأجنبية، وهو الأمر الذي ساهم في تعطيل هذا المسعى، بل فتح الباب على مصراعيه للكثير من النقاشات والجدالات التي ما فتئت تذكر كلما فتحت دفاتر هذا المشروع.

من زاوية أخرى؛ تجدر الإشارة أنه قد جرت عمليات حثيثة لربط عملية التعريب بالإسلام، إذ لطالما اعتبرت اللغة العربية الوعاء الحاوي للإسلام، ولا يمكن تخيل الإسلام من دون العربية، ولهذا يمكن فهم سياسة التعريب على أنها محاولة لنقل شرعية الإسلام إلى الدولة بواسطة اللغة العربية، وهكذا تحولت عملية استعادة/بناء الهوية الجزائرية إلى أيديولوجية قاتلة، ارتبطت بفكرة الدولة عند المسؤولين الجزائريين، وأصبح نجاح الاستقلال السياسي والاقتصادي الجزائري مرهون بنجاح الاستقلال الثقافي، هذا الأخير أصبح السبيل الوحيد للاختلاف عن المستعمر الفرنسي، ولعل هذا السبب هو الذي جعل مولود قاسم يعتبر المصادقة على قانون تعميم اللغة العربية[1] (16 جانفي 1991م) في الجزائر بمثابة فاتح نوفمبر ثاني، وبأن هذا القرار سيفتح آفاق النهضة للدولة الجزائرية، فالتاريخ لم يسجل أن دولة استطاعت أن تحقق نهضتها الاقتصادية بغير لغتها الوطنية[2].

من جانب آخر ارتبطت عملية التعريب بكثير من المحاور الأيديولوجية والاجتماعية للدولة الجزائرية، إذ أن العملية تتجذر بعمق في حقل الصراعات الطبقية، والتنافس بين الفئات الاجتماعية، فإذا كان التعريب من الناحية الأيديولوجية رهان أصحاب النظرة الإسلامية في بناء الدولة، فإنه من الناحية الاجتماعية طريق نحو ضمان تكافؤ الفرص داخل المجتمع، فاللغة العربية أضحت لغة الخبز عند فئات كبيرة من المجتمع، ولهذا أصبحت اللغة العربية تدخل ضمن استراتيجية إعادة انتاج الطبقات[3].

---

[1]– نص القانون أن اللغة العربية مقوم من مقومات الشخصية الوطنية، وثابت من ثوابت الأمة الجزائرية، يجسد العمل بها مظهرا من مظاهر السيادة الوطنية، ولهذا تلزم جميع الإدارات والهيئات والمؤسسات والجمعيات باستعمال اللغة العربية وحدها، كما يجب أن تحرر جميع العقود والوثائق الرسمية باللغة العربية وحدها، كما يجب أن تجرى الامتحانات الخاصة بالالتحاق بجميع الوظائف في الإدارات والمؤسسات باللغة العربية.

[2]– بوعلام جوهري، البعد الدعوي في أعمال مولود قاسم، مرجع سابق، ص240.

[3]– جلبير غرانغيوم، اللغة والسلطة والمجتمع، مرجع سابق، ص 26/22.

ولهذا فقد تباينت ردة فعل فئات المجتمع حول قانون التعريب الذي فرضته الحكومة الجزائرية، ففي المقام الأول دافعت الفئة الحاكمة على خيار التعريب رغم أنه لم يكن يهمها في ذاته، بل يهمها مخرجاته، التي تضمن لها استمراريتها ومصالحها الخاصة، أما بالنسبة للطبقة البرجوازية فإن التعريب يمس بصورة مباشرة بمكانتها، فهي الفئة التي تتحكم بالإدارة وتتحكم في مفاصل الدولة الأخرى، لذلك سعت لتعطيله أو لتأخيره على الأقل، إدراكا منها أن التعريب سيجعل من الفئة المعربة تصل إلى المناصب التي تتحكم فيها هذه الفئة، في حين أن فئة التجار والحرفيين، لم يكن يعنيها من التعريب غير أن يتيح لها مزيدا من الفرص والتسهيلات لممارسة نشاطاتها، أما الفئة المهمشة من الشعب فإنها تسعى لإسماع صوتها في كل مرة تتاح لها، وخاصة إذا حدثت أي توترات على المستوى الاجتماعي.

"إن سياسة التخطيط اللغوي التي قامت بها وزارة التعليم الأصلي أدت إلى توسع كبير في أعداد الخريجين من الطلبة المعربين، بحيث فاقت مخرجات النظام التعليمي القدرات الاستيعابية للإدارات وأماكن العمل المتاحة التي كانت تفضل غالبا الطلبة ذوي التكوين الفرانكفوني، وهذه المناقضة خلقت للحكومة تعقيدات كبيرة، وكانت سببا في الإحباط الذي بدأ يستولي على تلك الجموع من المتخرجين، فبزوال هذا النوع من التعليم بدأ هؤلاء الطلاب يشعرون أنهم ضحايا منظومة تعليمية قاصرة"[1]، وهو ما ساهم في التعجيل بتراجع اللغة العربية وتقهقرها أمام الفرنسية، خاصة بعدما أضحت هذه الأخيرة بمثابة جسر نحو كل نجاح مأمول، وموجة للحصول على الحظوة الاجتماعية.

وإذا أردنا أن نستقرأ العوامل التي جعلت التعريب يتراجع ويتقهقر، يمكن القول أن أحد أهم أسباب فشله يكمن في غموض مفهومه، وعدم تحديده، رغم محاولة أصحاب هذا الاتجاه إزالة مخاوف المتوجسين منه بقولهم أنّهم يقبلون التعدد اللغوي، ويدعون لتعلم اللغات، على أن تكون اللغة العربية في الصدارة، وبذلك أصبح التعريب عنوانا للأصالة، والعودة للماضي، باعتباره اندماجا جديدا في عالم قديم تم الابتعاد عنه بفعل الاستعمار، فالمسؤولين الجزائريين وإن كانوا قد ادعوا أنهم يحاربون تركة المستعمر، إلا أنهم لم تكن لهم الجدية في تطبيق

---

[1]– خديجة حالة، التعليم الأصلي ودوره في حركة التعريب بالجزائر (1970–1977م)، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أحمد دراية–أدرار–، الجزائر، 2018/2017، ص299.

مسعى التعريب من خلال تبني التشريع الفرنسي(قانون 31 ديسمبر 1962م)[1]، وهو ما كرّس لثنائية قاتلة داخل المجتمع الجزائري.

فشل التعريب أيضا لأنه عجز عن الإجابة على سؤال النهوض، في عالم اليوم الذي تحكمه التقنية والعقلانية، ورغم التطمينات التي قدمّها أصحابه ومحاولة تقديم نماذج قيام أمم حديثة بلغتها الأصلية مثل اليهود وسوريا بدرجة أقل، إلا أنه عجز عن مجاراة نمو المجتمع الجزائري، فمفهوم التعريب الذي قدمه أصحابه لا يعدو أن يكون إقلابا، مما حكم على اللغة العربية بالجمود.

فشل التعريب لأنه جاء وسط مجتمع جديد وفرضته الوقائع، وأعادت إنتاجه بنيات ما بعد الاستقلال، ويتميز بتعدد الهويات وتعايشها في آن واحد، وإقرار التعريب؛ يقتضي إقرار التوجه اليعقوبي للدولة، والذي بدوره ينظر إلى تصور ضيق للهوية، فرغم أن أصحابه جعلوا منه معيارا للتفرد والقطيعة مع المستعمر، إلا أنهم وقعوا في تبعية أخرى للمشرق، فأصبح المشرق أسطورة بالنسبة إليهم، حتى أن بناء الدولة الجزائرية الحديثة كان يخضع لمفهوم الدولة القديم، والذي يربط الدولة بالشخص، أو الأسرة، ويصبح عمر تلك الدولة مقترنا بعمر تلك الأسرة أو السلالة الحاكمة.

إن إقرار اللغة الوطنية الموحدة في مجتمع ذو إثنية لغوية يقترن برفع قيمة ثقافة مركزية على حساب ثقافة شعبية مهمشة (المركز والهامش)، فاللغة سواء شئنا أم أبينا هي وجود في ذاتها، وتحتوي على أيديولوجيا للذات تقوم بتوجيهها وهيكلتها، والدولة لم تأخذ بعين الاعتبار هذه النقطة بالذات، الأمر الذي جعل التعريب يقع بين فكي كماشة؛ التيار الفرنكفوني الذي رآه تهديدا لمصالحه، وتيار محلي(أمازيغي) رأى فيه تجسيدا للتهميش والإقصاء.

---

[1]– القانون رقم 157/62 الصادر في 1962/12/31 الذي ينص على ضرورة استمرارية العمل بالقانون الفرنسي ما عدا مواده الفرنسية والعنصرية أو المخالفة للحقوق والحريات العامة.

المطلب الثاني: الأمازيغية لغة تأبى الاندثار

تعتبر اللغة الأمازيغية اللغة الأم لشطر مهم من الشعب الجزائري، لذلك فهي تلعب دورا كبيرا في صناعة الأحداث الاجتماعية خصوصا على المستوى الشعبي، ولهذا فقد تعاملت معها الدولة الجزائري بشكل حذر للغاية، خاصة بعد اندلاع حركة الربيع البربري مطلع الثمانينات، وحركة الربيع الأسود بداية القرن الحالي، إذ عرفت بعد ذلك الدساتير الجزائرية ورود كلمة الأمازيغية وتمازيغت، ضمن مقرراتها، إلى أن تم الاعتراف بها كلغة وطنية في تعديل 2001م.

الفرع الأول: اللغة الأمازيغية ضمن المقررات الدراسية

شهد العام 1995م دخول اللغة الأمازيغية ضمن المنظومة الدراسية بشكل رسمي، وقد كانت تدرّس في 16 ولاية جزائرية، غير أنه سرعان ما انحسر تدريسها لتراوح 9 ولايات فقط مطلع سنة 2011م[1]، نتيجة الصراع الأيديولوجي بين أقطاب التعريب والفرنكوفون والتمزيغ، لأن المدرسة لم تعد مكانا لتثقيف الأطفال وتعليمهم فقط، بل أصبحت مكانا لصناعة الإنسان وتثبيت هويته، ولهذا كان الاهتمام باللغة الأمازيغية والمناداة بترسيمها، نابع من أنها ليست مجرد وسيلة لإيصال المعلومات فقط، بل هي وسيلة أساسية لإقامة العلاقات مع الآخرين واستمرارها، الأمر الذي جعل فئة الأمازيغ تنادي بترسيمها كلغة وطنية، وأن تحظى بدورها بالاهتمام كالذي تلقاه اللغة العربية، كما تمت المطالبة بإدخالها المناهج التعليمية، وأن تصبح لغة تدريس المواد التعليمية، إذ أن الربط بين الهوية ولغة التعليم، باعتبار أن هذه الأخيرة مسؤولة عن بناء العلاقات الاجتماعية المختلفة، من ناحيتين مختلفتين، فعلى المستوى الاجتماعي، تستطيع اللغة أن تشير إلى العلاقة بين لغة الفرد والعالم الاجتماعي الأوسع الذي يتعرف عليه من خلال مؤسسات مثل الأسرة والمدرسة والعمل، وعلى المستوى الثقافي تشير اللغة إلى العلاقة بين الفرد وأفراد جماعته العرقية التي تجمعه معها تاريخ مشترك ولغة مشتركة[2].

---

[1]– طيب غماري، اللغة، المدرسة، والهوية الوطنية الجزائرية، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع والطباعة، الجزائر، 2016، ص82.

[2]– ضياء الدين زاهر، اللغة ومستقبل الهوية التعليم نموذجا، وحدة الدراسات المستقبلية، الإسكندرية/مصر، دط، 2017، ص30.

وبالحديث عن لغة التدريس في الجزائر، نستطيع القول أنّها لم تكن يوما خيارا بيداغوجيا أو ثقافيا، بل خيارا ورهانا سياسيا[1]، راهنت عليه السلطة كثيرا لبناء الهوية الجزائرية بعد الاستقلال، هذا الخيار الذي كان مدفوعا نتيجة تنامي الخطاب القومي العروبي، سعت الجزائر من خلاله الوصول إلى هوية وطنية منسجمة مع المحيط المغاربي من جهة، والشرق أوسطي من جهة أخرى، فاللغة العربية لم تكن سوى حاضنة تدعم التوجه السياسي للدولة الجزائرية بعد الاستقلال.

غير أن المطالب والمساعي المنادية بضرورة إعادة هيكلة الهوية الوطنية بجميع أركانها دون إقصاء لأي طرف، ونتيجة الضغوطات الاجتماعية، أجبر السلطات الجزائرية بضرورة إدراج اللغة الأمازيغية ضمن المناهج الدراسية، كتتويج لمسار الاعتراف الرسمي بالهوية الأمازيغية؛ كأحد أبعد الهوية الوطنية، وهو الأمر الذي دفع الدولة الجزائرية للبحث عن أدوات لتجسيد دسترة الثقافة الأمازيغية، من خلال إحداث هياكل لترقية وتطوير اللغة الأمازيغية، بحيث شكّل إنشاء المحافظة السامية للغة الأمازيغية سنة 1995م، أول الخطوات التي تجسّد هذا المسعى، خصوصا وأن هذا الهيكل هو الذي سيسهر على ترقية اللغة الأمازيغية وإعادة إدماجها، وإدخالها ضمن منظومة التربية والتعليم (للإشارة فقط فقد تم دمج الأمازيغية في 16 مؤسسة تعليمية، كما تم إنشاء ليسانس اللغة الأمازيغية، وإدماجها في وسائل الإعلام في نفس السنة 1995م).

ولأجل هذا الغرض بالتحديد؛ فقد استحدثت العديد من البرامج والمخططات تسهر على ذلك، الأمر الذي توّج بالاعتراف الرسمي بها كلغة رسمية للدولة الجزائرية، عقب التعديل الدستوري عام 2016م، ثم دستور 2020م، والذي أقرّ أن الأمازيغية لغة وطنية إلى جانب اللغة العربية، وهي من المواد الثابتة والصماء، الغير قابلة للتعديل مستقبلا، كتتويج لنضال طويل للحركة الأمازيغية، وبهذا تكون قد حققت أحد أهم أهداف الحركة، وهو دسترة البعد الأمازيغي كأحد أركان الهوية الوطنية، وكذا إدخال اللغة الأمازيغية ضمن البرامج الدراسية.

[1]– طيبي غماري، اللغة، المدرسة، والهوية الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص88.

الفرع الثاني: آفاق تدريس الأمازيغية ودورها في تعزيز الهوية الوطنية

تجدر الإشارة أن تعليم اللغة الأمازيغية لم يقتصر على المناطق الناطق أهلها باللغة الأمازيغية، بل تعدى ذلك إلى المناطق الناطقة بالعربية، رغم أنّ تعليمها كان اختياريا في المقام الأول، إلا أنه لوحظ بعض الإقبال على تعلمها، إذ أصبحت تدرس على مستوى 43 ولاية من مجموع 48 ولاية[1].

وبالرغم من المكاسب[2] التي حققتها الحركة الأمازيغية؛ من خلال الاعتراف بها كلغة وطنية واستحداث هياكل، ومؤسسات تعمل على ترقيتها (أكاديمية اللغة الأمازيغية والمجمع الجزائري للغة الأمازيغية)، إلا أن الواقع الثقافي والاجتماعي، ينبئنا أن هناك طريقا طويلا لازال ينتظر الحركة من أجل أن تحتل اللغة الأمازيغية، المكانة المرجوة منها.

ولعل أبرز التحديات التي تنتظر تلك الهياكل الإدارية المستحدثة مشكلة الحرف الذي تكتب به اللغة، والذي لازال يشكل صداعا كبيرا لرواد الحركة، ففي حين يبدو الأمر محسوما عند الطوارق الذين لازالوا يعتبرون أنّ خط التيفيناغ هو المعبر عن الثقافة والهوية الأمازيغية، نجد أن الأمر لازال محل مد وجذب بين مناضلي الحركة في هنا في الشمال، إذ نجد أن أمازيغ الأوراس اختاروا الحرف العربي كمعبر عن الثقافة الأمازيغية، "لأنه أكثر التصاقا من حيث المخارج بالأصوات الأمازيغية"[3]، ومن الجميل أن نحفظها بلغة خالدة تستمد شرعيتها من الدين الإسلامي، في الحين أن منطقة القبائل قد ذهبت على النقيض

---

[1]– محمد الأمين أوكيل، الهوية الأمازيغية ومسألة بناء الدولة الوطنية في الجزائر–مقاربة قانونية–، مجلة الاجتهاد للدراسات القانونية والاقتصادية، المجلد 8، العدد 4، 2019، ص347.

[2]– إذا أردنا أن نعدد المكاسب التي حققتها الحركة الأمازيغية نجد: أ/ أنها أصبحت لغة وطنية بجانب اللغة العربية، ب/ تنامي عدد الناطقين بها سواء داخل التجمعات الحضارية أو الفضاءات الاجتماعية، ت/ دخولها ميدان الاعلام بحيث أصبح لها قنوات خاصة تعمل على نشر الثقافة الأمازيغية، ث/ أصبح لها حضور قوي في الجانب السينمائي والمسرح، ج/ دخولها ميدان النشر والتأليف خاصة ما تعلق بالمعاجم اللغوية، لأكثر اطلاع حول المكاسب التي حققتها الأمازيغية ينظر: نجلاء نجاحي، مسيرة الأمازيغية في الجزائر بين البناء الثقافي والمشروع السياسي والفعل التربوي، مجلة العلامة، العدد الخامس، 2017، ص12/11.

[3]– بهلول العونية، جيلالي كوبيبي معاشو، اللغة الأمازيغية في الجزائر الرهانات والتحولات، مجلة آفاق فكرية، المجلد 4، العدد 9، أكتوبر 2018، ص161/147

من ذلك واختارت الحرف اللاتيني كمعبر عن الثقافة والهوية الأمازيغية، وعلتهم في ذلك، أن غالبية ما أنجز من بحوث ودراسات حول الأمازيغية، كان بالحرف اللاتيني، إضافة أن كتابتها بالحرف اللاتيني، قد يسمح لها بالانتشار أكثر، ويسهل على أصحاب اللغات والثقافات الأخرى مهمة تعلمها، وهو ما ينبأ بخلاف كبير ليس على المستوى الثقافي فحسب بل على المستوى الاجتماعي أيضا، فتنوع الكتابة يفضي إلى عدم الفهم، إذ من غير المعقول أن تكتب لغة واحدة بعدة خطوط في آن واحد، وهذا منقصة في حد ذاتها.

إن الهدف الرئيسي لتدريس الأمازيغية وإدماجها، كان من أجل تمتين الروابط الثقافية بين أبناء الشعب الجزائري، وتعزيز الإيمان بتراث الأمة الجزائرية، وترسيخ مبادئ الإسلام التي لا ترفض الاختلاف، وتعزيز القيم الإنسانية والأخلاقية، غير أن المتغيرات اللغوية الخمسة المتمثلة في القبائلية، والشاوية، والميزابية، والشنوية، والتارقية، تجعل واقع التدريس[1] صعبا لا محالة، ما لم يتم إعداد برامج تراعي هذه المتغيرات الخمسة، سواء من حيث المضامين أو من حيث المتغيرات الأبجدية، المتمثلة بالخط بالدرجة الأولى، حتى لا يتم نسف كل تلك المجهودات السابقة التي قامت بها الحركة الأمازيغية، لأن مشكلة اللغة كانت دائما ما تتصدر المشهد الهوياتي في الجزائر، وهذا الاختلاف من شأنه أن يكون محل هجوم كبير من أعداء اللغة الأمازيغية، وعلتهم في ذلك أن اللغة التي لم يتفق حولها أصحابها من حيث الكتابة كيف لها أن تحقق وحدة المجتمع.

ولهذا وضع الأستاذ صالح بلعيد مجموعة من الشروط[2] لتنال لغة ما العرف اللغوي في العالم متمثلة في:

1/ المعايرة: وهي القالب الذي يجمع مختلف اللهجات التي تنتمي إلى هذه اللغة.

2/ الاستقلالية: وهي أن تكون لغة أصيلة في ذاتها تنتمي إلى الجذمين اللذين يجمعان مختلف اللغات الأخرى (سامية أو حامية)

---

[1]– من الصعوبات والمعيقات الكبيرة التي تواجه تدريس الأمازيغية: أ/ اختلاف اللهجات، ب/ مشكلة الحرف، ت/ عدم تعميمها وعدم إجبارية تعلمها، ث/ الحجم الساعي، إذ أنها تدرس بمقدار 18 ساعة في الأسبوع، أي أقل ب 6 ساعات من العربية، ج/ نقص الخبرة لدى مؤطريها، ح/ التوظيف السياسي للقضية.

[2]– صالح بلعيد، في المسألة الأمازيغية، مرجع سابق، ص193/194.

3/ التاريخية: ويعني به قدم اللغة، واللغة الأمازيغية قديمة، ولها مجال جغرافي يحدها.
4/ الحيوية: أي أن تكون مرتبطة بالحدث الاجتماعي الداخلي والعالمي الخارجي.

إن هذه المعايير التي صاحبت توطين اللغة الأمازيغية؛ تقودنا نحو العديد من الإشكالات، لعل أبرزها هل تملك اللغة الأمازيغية ذلك الرصيد اللغوي الذي تقوم على أساسه اللغة؟

إن تراجع الأمازيغية وانحسارها يرجع بالأساس إلى التفاوت الكبير الحاصل بينها وبين اللغات التي عرفت الاحتكاك معها ولهذا وجب على المطالبين بترسيم اللغة الأمازيغية أن يسرعوا في تفعيلها، لأن اللغة سواء شئنا أم أبينا بحاجة إلى "يقظة ذاتية"[1]، فإذا كانت اللغة العربية تستمد قوتها من القرآن الكريم، فلابد للغة الأمازيغية أن تستمد قوتها من بعدها الحضاري الطويل، فاللغة الأمازيغية التي عاصرت العديد من اللغات قديما واستطاعت الصمود أمامها، بإمكانها أن تعود من جديد وتتصدر المشهد الثقافي من جديد، ولهذا يرى محمد الهادي حارش أننا بإمكاننا "أن نصل إلى الامازيغية الكلاسيكية أو الفصحى وذلك بالعمل على تصفية اللهجات الأمازيغية من كل الكلمات الدخيلة عليها، وذلك بالعودة إلى الكلمات الأمازيغية الأصلية في كل هذه اللهجات ومقابلتها مع بعضها، وبذلك تتكامل هذه اللهجات وتتشكل الأمازيغية الفصحى، وبذلك لا يشعر أفراد هذه الأمة بالفوارق بين هذه اللهجات ويتنمى روح الانتماء لديهم"[2].

أما عن مشكلة الخط فيرى أنه من الضروري أن تكتب بالتيفيناغ[3]، لأنه "أهم شاهد مادي على النبوغ الأمازيغي قبل الإسلام، إلى درجة أنه يعد من بين أقدم الأبجديات التي عرفتها الإنسانية، فالعقلية التي قامت بابتكار ذلك الخط، استندت بلا ريب إلى تراكم معرفي وفكري كبير، وإلا لما تهيأ لها هذا الابتكار العظيم المتكامل، الذي استطاع أن يستمر استمرارا عجيبا رغم الطمس والمسخ، بل وينبت من أنقاضه ليحضر بشكل قوي وجميل داخل

---

[1]– التجاني بولعوالي، راهن الأمازيغية في ضوء المتغيرات الجديدة، افريقيا الشرق، المغرب، دط، 2014، ص7.

[2]– محمد الهادي حارش، دراسات في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص 102.

[3]– المرجع نفسه، ص140.

الثقافة الأمازيغية، التي راحت تزدان وتتباهى بأبجديتها المتميزة في القدم، وبسموها في الشكل"[1].

إن الاقصاء والتهميش الذي تعرضت له الأمازيغية بعد الاستقلال جعل البعض من روادها يعتبرها قضية وجود، وهو ما يتجلى في قول عضو المحافظة السامية للأمازيغية عز الدين الزعلاني: "إن الأمازيغية بالنسبة لشعبنا وجود، والعربية والإسلام والفرنسية مكاسب، أي عناصر مقبولة منا، فهويتنا أحادية ولابد أن تكون أحادية، أي أمازيغية فقط، والعربية والإسلام مكملان لها"[2]، وهو قول فيه من الخطورة بما كان، خاصة وأن نموذج الدولة القصرية ذات العرق الواحد، والثقافة الواحدة، قد عفا عليه الزمن، والأهم من ذلك أن الأحادية اللغوية لم تعد قادرة على ضمان وحدة الأمم، وهذا النموذج هو الذي تعرفه الجزائر بالضبط، فالبلاد معروف عنها أنها مزيج من الثقافات، النابعة عن تعدد الألسن، ولهذا وجب البحث عن مجموعة من الحلول، والتي تضمن التعدد في إطار الوحدة السياسية للبلاد، والذي نرى أنه سيكون الحل الأمثل لمشكلة الهوية في الجزائر.

"فالهوية ليست معطى أحاديا جاهزا صافيا نقيا نازلا من السماء، وإنما الهوية مركبة من جملة من انتماءات موضوعية تشتغل مع بعضها لتكون كلاّ متكاملاّ، تعبيرا عن السمات المشتركة لمجموعة بشرية، بها تصير ذات خصوصيات تميزها عن الآخر"[3].

إنّ حل الاشكال اللغوي في الجزائر يجب أن يكون بيد الشعب الجزائري وحده، فهو القادر على احتواء الأزمة، لأنه عانى ويلات ومآسي حملها وحده، فالتاريخ المشترك للجزائريين هو الدافع لجعله يتقبل الآخر والانفتاح الثقافي، ولهذا يجب أن يستند الخطاب الهوياتي للنخبة السياسية في الجزائر على ثلاثة مرتكزات رئيسية هي: البعد الجغرافي، والبعد الديني، والبعد اللغوي والثقافي، هذه الأبعاد الثلاثة هي التي يجب أن يبني عليها الجزائري هويته، وهي أبعاد –في الحقيقة–تتداخل وتتراكب مرة وتتضاد مرة أخرى، وقد يعلو أحدها

---

[1]– التيجاني بولعوالي، الإسلام والأمازيغية، مرجع سابق، ص114.

[2]– عثمان سعدي، البربر الأمازيغ عرب عاربة، مرجع سابق، ص9.

[3]– محمد الصادق بوعلاقي، الهويات الجماعية في الدولة العربية الحديثة خصوصيات ثقافية أم منازعات سلطوية؟، ضمن كتاب الدولة وسؤال الهوية في المنطقة المغاربية، تقديم وجيه كوثراني، مركز تكامل للدراسات والأبحاث، 2012، ص127.

على الآخر على حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي يمر بها البلد، غير أنّ البعد اللغوي كان دائما مربط الفرس في هذه الهوية (بربري/عربي)، بحيث أن هذا المنشأ اللغوي عادة ما يكون، بمثابة الأصل ويرتبط الجزائري أيما ارتباط مهما تبدلت ظروفه (الهجرة)، أما البعد الثاني فهو الفضاء الوطني الذي تمثله الجزائر كبلد ينتمي إلى الأمة العربية أو الإسلامية أو المتوسطية (البعد الثالث)، وهذا على حسب كل شريحة، هذه الأبعاد تتداخل وتتضاد على حسب تصرف كل فئة، بحيث تكون اللغة هي الفصل في هذه الأبعاد.

وفي الأخير نستطيع القول أنّ سؤال الهوية في الجزائر يطرح أسئلة أكثر مما يقدم أجوبة، وعلى الدولة الجزائرية احتواء هذا الإشكال، وتقديم الحلول الناجعة لضمان عدم استغلاله من طرف مؤسسات تسعى لإثارة النعرات وتفتيت المجتمعات، وما الربيع العربي الذي نخر أجساد الدول العربية في الشام ببعيد، إن السياسة اللغوية التي استخدمتها الدولة لتنظيم التعدد اللغوي داخل الدولة، عبر وضعها لمجموعة من الخطط تضمن الحق لكل فئة تعلم لغتها واستخدامها في مجال الحياة الاجتماعية المختلفة –كانت المدرسة مسرحا لها، بحيث لطالما احتوت مجال هذا الصراع واستوعبت تمزق الواقع اللغوي، الأمر الذي أثر على وظيفتها الأساسية والتي هي التعليم بالدرجة الأولى– لم يعد كافيا، فالدولة الجزائرية من خلال تلك السياسة قامت بما يشبه بصناعة الهوية اللغوية للأمة، والهوية هويات؛ دينية، لغوية، ثقافية، جهوية، إقليمية، عرقية، وغيرها، ولهذا لا يجب حصر الصراع في محور اللغة التي تعبر عن هوية الشعب الجزائري، فإذا كانت اللغة العربية قد هيمنت على المشهد الاجتماعي والديني الجزائري، فإنها مطالبة اليوم أن تثبت ذاتها في عالم اليوم أولا، بأنها لازلت لغة ثقافة وبإمكانها المناجزة، خاصة مع التراجع الرهيب الذي نلمسه في استعمالها على المستوى التكنولوجي.

من جانب آخر ولتنال اللغة الأمازيغية هي الأخرى الحظوة الاجتماعية المأمولة، التي تسمح لها بالتغلغل داخل النسيج الاجتماعي الجزائري، يجب عليها أن تثبت أنها لغة قائمة بحد ذاتها، وبإمكانها أن تناجز بقية اللغات، والخروج من دائرة المهرجانات والفلكلور الشعبي، فاللغة كائن حي له خصائص ومميزات، فهي تنمو وتتطور، أو تتقلص وتتكمش تبعا للجو المحيط بها سياسيا واجتماعيا وثقافيا وفنيا، وأول رهان لها، تجاوز مشكلة الخط

الذي تكتب به، حتى لا تقع ضحية في يد أي طرف يحاول استغلالها مستقبلا، لأن الخط يمثل ذلك الوعاء الحاضن للغة، وإلا سوف تبقى لغة مشافهة لا غير.

إن ما ميّز الهوية الوطنية؛ أنها صنعت من قبل النخب التي سيطرت على مقاليد الحكم، ولذا كان السلوك اللغوي في الجزائر من أكثر العناصر التي تدعم اللاإجماع حول الهوية الوطنية، وهذا يرجع بالأساس أن النخب الجزائرية تساوي بين الهوية واللغة، فأصبحت اللغة هي المعيار الذي يحدد الانتماء، فبدل اعتبار اللغة أحد أقطاب الهوية، أصبحت الناظم الذي تنتظم حوله الجماعات، وتتحد حوله التوجهات.

ولذا فإن الاهتمام بقضايا الهوية نابع في الأساس من سعي السلطة الجزائرية للسيطرة على هذه المسألة بعيدا من أي توظيف سياسي لها مستقبلا، تجنبا لأي تصادم مع الحركة الثقافية الأمازيغية كما حدث في السابق، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هل نحن بحاجة إلى صناعة هويتنا، حتى نثبت تفردنا عن غيرنا؟

أعتقد أن الإجابة على هذا السؤال تقودنا إلى الالتفات قليلا إلى ماضي هذه الأمة، وكيف استطاعت أن تتجاوز المحن المتتالية التي ألمت بها، واستطاعت أن تداوي جروحها، لقد كان الإسلام هو الرابط الوحيد لوحدة وتماسك عنصري الأمة واستمرارها، وفي ظل هذا التلاحم اتخذ الانتماء والهوية في بلاد المغارب شكلا متميزا، بعد أن لعبت الأرض هذا الدور في قرون غابرة سبقت الإسلام.

وعليه أعتقد أننا بحاجة لصناعة هوية دينية إقليمية يكون فيها الإسلام والجغرافيا محورا هذه الهوية الجديدة، وأنه علينا أن نتجاوز مفهوم الدولة القديم، إلى مفهوم الدولة الحديث، الذي يرتبط بمفهوم المواطنة والتي يقوم فيها الفرد بواجباته وفق قوانين الدولة التي تضمن له حريته.

الخاتمة

خاتــمة:

وفي ختام هذا البحث يمكن القول أنّ شخصية مولود قاسم، قد تداخلت في تكوينها العديد من المرجعيات المختلفة، الأمر الذي جعل شخصيته تتسم بالثقافة الموسوعية، فالرجل قد عاصر فترتين مهمتين من تاريخ الجزائر الحديث، وكانت له مساهمات كبيرة أثناء الكفاح التحرري، وأثناء إعادة البناء في نطاق الدولة الجزائرية المستقلة، ولهذا وجب وضع شخصيته في ذات السياق التاريخي الذي كان يعيش فيه، ثم ضرورة معرفة مصادره الفكرية والثقافية، ونقدها، قبل مساءلتها، خاصة وأن هذه الأخيرة قد أثرت كثيرا على توجهاته الفكرية فيما بعد.

وقد خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج نذكر منها:

أولا: إن مشكلة البحث في أصل الأمازيغ، مشكلة شغلت ومازالت تشغل علماء الأنثروبولوجيا وعلماء اللغة، لكن الشيء الذي نستطيع أن نؤكده أن هذه الدراسات ورغم جديتها، واختلاف مشاربها وتوجهاتها، لم تفصل في أصل الأمازيغ بشكل قطعي، بل أن المجتمع المغاربي (الجزائري) تشكل من عنصر محلي وآخر أجنبي جمعتهما الجغرافيا، وقد ساهم الدين واللغة في تثبيت الوحدة القومية وتمتين شعور الانتماء.

ثانيا: أن تعدد اللهجات واللغات؛ إنما نشأ من اختلاف ثقافات الشعوب التي وفدت على المنطقة واحتفظت بلغاتها، وأن هذه الثقافات قد ساهمت في تطور المجتمع المغاربي من جهة، وتراجعه من جهة أخرى.

ثالثا: أن دراسات الانثروبولوجيا اللغوية كانت بعيدة عن الواقع، خاصة وأنها كانت تجهل قواعد الخط الأمازيغي (التيفيناغ)، كما أن هذه الدراسات كانت من خارج الحقل الاجتماعي الامازيغي، والمراهنة على المعطيات المادية لكشف تاريخ المنطقة فيه مغارة كبيرة قد تؤدي لإلحاق شعب بآخر (تشابه المعطيات التاريخية للشعوب في فترات تاريخية معينة).

رابعا: تأثر المدنية الجزائرية بالنظم الاجتماعية للحضارات الوافدة، غير أن النظام الاجتماعي الجزائري احتفظ بخصوصيته رغم ما تعاقب عليه من حضارات، بفضل النظام الأسري الفريد الذي كانت تتمتع به الاسرة الأمازيغية.

خامسا: رغم أن الأمازيغ قد عاصروا العديد من الحضارات، وامتزجوا بكثير من الثقافات، إلا أنهم حافظوا على خصوصيتهم الثقافية، وذلك بفضل اللغة الأمازيغية.

سادسا: دراسة بنية الخطاب في فلسفة مولود قاسم، يجب أن يكون بمعزل عن خطاب السلطة الجزائرية من جهة، وخطاب الأمة العربية والإسلامية من جهة أخرى، لأن التوجهات السياسية للدولة الجزائرية آنذاك غطت على كثير من الأفكار الإصلاحية التي أراد أصحابها تطبيقها في الواقع الاجتماعي الجزائري.

سابعا: أن مفهوم الأصالة يحمل دلالات وأبعاد وطنية وحضارية، فهي التعلق بالعقيدة والقيم الرفيعة، والحضارة التي اكتسبناها من التراث والتاريخ، وحفظت لمجتمعنا شخصيته، ومكنته من مقاومة الاستعمار، فهي لا تعني التحجر والركود، وإنما تقبل التجدد والتطور ومسايرة العصر الذي نعيش فيه، فالأصالة هي مذهب وسط، وليست جمود قابع، بل هي الوقوف على نقطة صلبة ثابتة من الماضي المجيد ثم الانطلاق نحو المستقبل حتى لا نضيع بين الأمم.

ثامنا: لم يكن وراء غيرة مولود قاسم على العربية انغلاق فكري أو تعصب مذهبي، فمن المعروف عنه أنه كان متعدد الألسن، وشغوف على الثقافات التي تحملها اللغات الأخرى، لكن الرصيد التاريخي والشعبي للغة العربية في الجزائر، جعلته ينتصر لها، فاللغة العربية هي بعد العقيدة الإسلامية والرابطة بين الشعوب الإسلامية، والعروة الوثقى التي جمعتهم في ماضيهم وحاضرهم.

تاسعا: اللغة عند مولود قاسم؛ هي من تعطي الفكر واللون والشكل والقوام ليفكر، وبالتالي وجب علينا أن نحمي لغتنا ونطورها لأنها تمنح صاحبها التفرد، فهي ذلك الروح في جميع الكيان الوطني وذلك الاسمنت الذي يضمن وحدة البنيان القومي.

عاشرا: أن للإسلام أهمية كبرى في تشكيل إنية الفرد والمجتمع الجزائري، ولذلك وجب جعله أحد دعائم هذه الأمة، فالإسلام بالنسبة إليه ثورة شاملة، بل روح الحياة؛ بشرط وعيه،

فالإسلام هو منهج الحياة في شتى مناحيها، ولهذا استحق أن يكون دعامة إنية الفرد الجزائري.

إحدى عشر: الإسلام هو الرابط الوحيد لوحدة وتماسك عناصر الأمة واستمرارها، فالمرجعية الأصلية للهوية الوطنية هي الإسلام.

اثنا عشر: العلاقة القائمة بين اللغة ومحيطها هو ما يمنح لها استمراريتها، ولهذا إذا أراد دعاة الأمازيغية أن تخرج اللغة الأمازيغية من دائرة الفلكلور والمهرجانات، أن يثبتوا أنها لغة قائمة بحد ذاتها، لها خط يجمع شتات لهجاتها المختلفة.

ثلاثة عشر: فرض تدريس الأمازيغية في المدرسة الجزائرية هو تصالح مع التاريخ، ومساهمة في لمّ الشمل بين فئات الشعب، فمن غير المعقول أن تحرم فئة كبيرة من المجتمع من التعلم بلغتها الأم.

وأخيرا الواجب علينا اليوم هو العمل على بلورة خصائصنا الثقافية والحضارية، وفق أدوات تتيح لنا إمكانية تجلية حدود التميز والاشتراك مع المجتمعات العالمية المختلفة، دون الحاجة إلى حرارة الانفعال التي تصاحب مثل هذا النوع من العمل، علينا أن نثبت أننا مختلفون نعم، لكن هذا الاختلاف يكون داخل دائرة الوحدة، وليس الخلاف لأجل الاختلاف فقط.

فإذا كان علينا النبش في ذاكرة التاريخ، فيجب أن يكون هذا الأمر توقا للانعتاق والتحرر، وذلك لا يتأتى إلا بالعمل المتأني في تجميع كل ما يتعلق بالثقافة الأمازيغية، من آثار ووثائق ومرويات شفاهية، تساهم في إنتاج تاريخ ثقافي، يحقق أبعاد هووية مرغوبة، وبالتالي فإن أي حديث عن هوية جزئية أو خاصة، عربية كانت أم أمازيغية هو من قبيل الخرافة، لأن هوية الجزائري اليوم ساهمت فيها عناصر متعددة، وذات جذور عميقة متنوعة.

وفي الأخير؛ نقول إن تاريخ الأمم لا يبنى من طرف الساسة فقط، وإنما يشترك فيه الشعب كله، ولا يمكن أن يكون هذا البناء إيجابيا، إلا إذا وجد من يحضنه ويؤطره.

الملاحق

الملحق 01:

الملحق 02:

الملحق 03: مولود قاسم وأحمد بن نعمان بأحد الندوات الوطنية

الملحق 04: مولود قاسم والرئيس هواري بومدين في المسجد إحياء لليلة القدر

الملحق 06: مولود قاسم رفقة ضيوف الجزائر بملتقيات الفكر الاسلامي

الفهارس

أولا: فهرس الأعلام

ثانيا: فهرس الأماكن والبلدان

ثالثا: فهرس المصادر والمراجع

رابعا: فهرس الموضوعات

أولا: فهرس الأعلام

(أ)

- أقسوح محمد، ص3
- آيت علجت الطاهر، ص4
- أوعمرو جلواح محمد، ص4
- أمين عثمان، ص7، 28
- الإبراهيمي أحمد طالب، ص15
- آيت مسعودان، ص26
- أوغسطين، ص36

افريقش بن قيس، ص56

(ب)

- بن الشيخ محمد الشريف، ص10
- بومدين الهواري، ص11
- بودة أحمد، ص12
- بلهادي الأمين، ص12
- بن يحي محمد، 15
- بلعلام محمد الصغير، ص16
- بيوض إبراهيم، ص26
- بروكوب، ص36، 41

- البكري، ص37

(ج)

- جوليان أندري، ص40

- الجيلالي عبد الرحمن، ص47

(ح)

- ابن حزم، ص37

- بن حمير، النعمان، ص37

(خ)

- خيضر محمد، ص13، 17

- ابن خلدون، ص37، 56

(د)

- دباغين محمد الأمين، ص10، 12

- دو غونداياك، ص14

- دحلب سعد، ص16، 17

- ديكارت رينييه، ص28

(ذ)

- ذو المنار أبرهة، ص37

(ر)

- الروابحية حامد، ص12

- راجف بلقاسم، 13

- ابن رشد، ص28

(س)

- سعد الله أبو القاسم، ص9

- سعدوني العربي، ص20

- ابن سينا علي، ص28

- ساليستيوس، ص35، 41، 50

- سترابون، 36

(ش)

- شيبان عبد الرحمن، ص20

- شقار محمد أمقران، ص3

- شريفي عمرو، ص5

- شفيق محمد، ص42

(ص)

- الصديق محمد صالح، ص5

- صالح الداي، ص16

(ط)

- الطويل توفيق، ص7

(ظ)

- ظاهر عمر، ص170

(ع)

- العيدلي يحي، ص4
- عقون محمد العربي، ص49

(غ)

- غلاب عبد الكريم، ص44
- غرانغيوم جلبير، ص 150

(ف)

- فيلالي عابد، ص13
- فيخته، ص28، 29

(ق)

- قاسم محمود، ص7
- قزال استيفان، ص38

(ك)

- كانط، ص7، 9، 15، 28
- كامب غابرييل، ص40، 42
- الكعاك عثمان، ص43

(ل)

- لقبال موسى، ص48

(م)

- المقراني، ص3
- محمود زكي نجيب، ص7
- ماركس، ص7
- مهري عبد الحميد، ص10، 12، 13
- مزغنة أحمد، ص10، 12
- المدني أحمد توفيق، ص12، 48
- الميلي مبارك، ص12، 47
- مصطفاي شوقي، 13
- مهري عبد الرحمن، ص15
- المسعودي، ص37
- ماسينيسا، ص55

(هـ)

- هيغل، ص7
- هيرودوت، ص35

(و)

- وافي عبد الواحد، ص7

- الوزان الحسن، ص57

(ي)

- يزيد محمد، ص13

ثانيا: فهرس الأماكن والبلدان

(أ)

- ألمانيا، ص9، 15، 16، 18، 25، 28، 29
- إيفيان، ص16
- إيغيل علي، ص27
- إيطاليا، ص44
- إسبانيا، ص35، 44
- إثيوبيا، ص35

(ب)

- بلعيال، ص3
- بني عباس، ص3، 4، 27
- باب عزون، ص5
- باريس، ص7، 13
- براغ، ص9
- بون ص15، 16
- بيليفيد، ص16
- باتنة، ص22

(ت)

- تونس، ص5، 7، 10، 12، 13، 18

- تشيكوسلوفاكيا، ص9، 15
- تيزي وزو، ص22
- تلمسان، ص22
- تمنغست، ص22
- تركيا، ص35

(ث)

- ثامقرا، ص4

(ج)

- الجزائر، ص3، 5، 6، 8، 10، 11...
- جنيف، 16
- جبل طارق، ص48

(ح)

- حدرموت، ص 80

(ر)

- روما، ص36، 45

(ز)

- الزيتونة، ص4، 5، 13، 23

(س)

- السويد، ص9

- سوريا، ص18، 24

- سبأ، ص37

(ش)

- الشام، ص7

(ط)

- طروادة، ص35

(ع)

- العراق، ص7، 13، 14

- عين صالح، ص16

- عنابة، ص22

(ف)

- فرنسا، ص3، 7، 8، 9، 12، 13، 14

- فلسطين، ص24، 37، 44

- الفرس، ص35، 49

(ق)

- القبائل، ص3

- القاهرة، ص7

- قسنطينة، ص21

- قرطاج، ص36

- قبائل غسان، ص37

- قفصة، 40

(ك)

الكويت، ص23

كنعان، ص38

(ل)

- ليبيا، ص35

(م)

- مصر، ص7، 8، 11، 14، 18، 24، 28

- مليانة، ص21

- المدية، ص21

- معسكر، ص47

- مغرب، ص38

(ن)

- النمسا، ص9، 15

- نوميديا، ص36

(هـ)

- الهند، ص36

(و)

- ورقلة، ص16

(ي)

- اليونان، ص35، 45
- اليمن، ص37، 42

ثالثا: فهرس المصادر والمراجع:

أ_ القرآن الكريم

ب_ المصادر الأصلية:

* نايت بلقاسم مولود قاسم.

01_ إنية وأصالة، دار الأمة، الجزائر، دط، 2013.

02_ أصالية أم إنفصالية، دار الأمة، الجزائر، دط، 2013، ج1، ج2.

03_ ردود الفعل الأولية داخلا وخارجا على غرة نوفمبر، دار الأمة، الجزائر، دط، 2007.

04_ شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830، دار الأمة، الجزائر، ط2، 2007، ج1، ج2.

05_ الجزائر عظيمة، مجيدة، فكفاكم قزمية ومركوبية يا مخربشون، مجلة الثقافة، السنة 17، العدد 39، 1986.

06_ مفاهيم وصيغ خاطئة عن تاريخنا، مجلة الثقافة، العدد 94، السنة 16، 1986.

07_ في خضم معركة التعريب، مجلة الجزائرية، عدد 130، 1985.

08_ قيمة اللغة في نظر بعض الأمم، مجلة الأصالة، العدد 24، السنة الرابعة، ربيع الأول–ربيع الثاني 1395هـ الموافق لـ مارس–أفريل 1975م.

ج_ المراجع:

(حرف الألف)

*الإبراهيمي خولة طالب.

09_ الجزائريون والمسألة اللغوية –عناصر من أجل مقاربة اجتماعية لغوية للمجتمع الجزائري–، ترجمة: محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، ط2، 2013.

* أجبرون شارل.

10_ تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة، عيسى عصفور، منشورات عويدات، بيروت–باريس، ط1ن 1982.

* أزايكو علي صدقي.

11_ الاسلام والامازيغية أو البدايات الأولى لدخول بلاد الأمازيغ في المجال الإسلامي، ضمن كتاب الهوية من أجل ثقافة مغربية ديمقراطية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، دط، 2002.

*استفان قزال.

12_ تاريخ شمال افريقيا القديم، ترجمة، محمد التارزي مسعود، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، دط، 2007، ج1.

* الأشرف مصطفى.

13_ الجزائر –الأمة والمجتمع–، ترجمة: حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، دط، 2007.

* أيت أحمد حسين.

14_ روح الاستقلال مذكرات مكافح 1942–1952م، ترجمة: سعيد جعفر، منشورات البرزخ، دط، 2002م.

(حرف الباء)

* بشنون سليمان.

15_ الثقافة والشخصية الوطنية، دار هومة، الجزائر، دط، 2013.

* البكري أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد.

16_المسالك والممالك، تحقيق: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2003، ج1.

*بلاح بشير.

17_ التدافعات الثقافية في الاستوغرافيا الجزائرية 1962/1998-جذورها والعوامل المؤثرة فيها-، الدار الخلدونية للنشر والطباعة، الجزائر، دط، 2017.

* بلخميسي مولاي.

18_ الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دط، 1981.

*بلعيد صالح.

19_ في المسألة الأمازيغية، دار هومة، الجزائر، ط2، 1999.

*بودهان محمد.

20_ في الهوية الأمازيغية للمغرب، منشورات تلويزا، المغرب، ط2، 2013.

* بوعزيز يحي.

21_ أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995، ج1.

* بوعلاقي محمد الصادق.

22_ الهويات الجماعية في الدولة العربية الحديثة خصوصيات ثقافية أم منازعات سلطوية؟، ضمن كتاب الدولة وسؤال الهوية في المنطقة المغاربية، تقديم وجيه كوثراني، مركز تكامل للدراسات والأبحاث، 2012.

* بولعوالي التجاني.

23_ راهن الأمازيغية في ضوء المتغيرات الجديدة، افريقيا الشرق، المغرب، دط، 2014.

(حرف التاء)

* ترادجل بيتر.

24_ السوسيوليسانيات–مدخل إلى دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع–، ترجمة: محمد كرم الدكالي، افريقيا الشرق، الدار البيضاء/المغرب، دط، 2007.

(حرف الثاء)

* الثعالبي أحمد شقار.

25_ هوت ثريا مضيئة من سماء الوطن، عن أحمد بن نعمان، مولود قاسم نايت بلقاسم حياة وآثار، شهادات ومواقف، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، دط، 2016.

(حرف الجيم)

* الجابري محمد عابد.

26_ العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، ضمن كتاب: البحث اللساني والسيميائي، سلسلة ندوات ومناظرات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء/المغرب، ط1، 1984.

* جورجي زيدان.

27_ تاريخ التمدن الإسلامي، دار مكتبة الحياة، بيروت، دط، دت، ج2.

* جوزيف جون.

28_ اللغة والهوية قومية–إثنية–دينية، ترجمة: عبد النور خرافي، عالم المعرفة –سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب–، الكويت، أغسطس 2007.

* جوليان شارل أندري.

29_ افريقيا الشمالية تسير–القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية–، ترجمة، المنجي سليم وآخرون، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1976.

30_ تاريخ افريقيا الشمالية–تونس، الجزائر، المغرب الأقصى–من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م، تعريب، محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1978.

* الجيلالي عبد الرحمن.

31_تاريخ الجزائر العام، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1965، ج1.

* جين أفريك (اليونيسكو).

32_حضارات افريقيا القديمة، اشراف: جمال مختار، 1985، ج2.

(حرف الحاء)

* حارش محمد الهادي.

33_ دراسات في تاريخ الجزائر الماضي والحاضر، دار هومة، الجزائر، دط، 2013.

34_ التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، دط، دت.

* حساني مختار.

35_تاريخ الدولة الزيانية، منشورات الحضارة، الجزائر، دط، 2009، ج3.

* حماد أحمد عبد الرحمان.

36_العلاقة بين اللغة والفكر –دراسة للعلاقة اللزومية بين الفكر واللغة–، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 1985.

* حمداوي جميل.

37_ الحضارة الأمازيغية أنثروبولوجيا الانسان، التاريخ، الكتابة، الديانات والثقافة، افريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2016.

* حنفي بن عيسى.

38_ أثر المجتمع في تبدل اللغة، مجلة الثقافة، العدد 29، أكتوبر/نوفمبر 1975، ص44.

* ابن حوقل أبو القاسم.

39_صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دط، 1992.

(حرف الخاء)

*بن خدة بن يوسف.

40_ جذور أول نوفمبر 1954م، ترجمة: مسعود حاج مسعود، دار الشاطبية للنشر والتوزيع، ط2، 2010م.

* ابن خلدون عبد الرحمن.

41_ ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت، دط، 2000.

* خليفي بشير.

42_ الفلسفة وقضايا اللغة قراءة في التصور التحليلي، الدار العربية للعلوم ناشرون- منشورات الاختلاف، لبنان-الجزائر، ط1، 2010.

* خليل حلمي خليل.

43_ التخطيط اللغوي وتلوث اللغة، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 2، 2000.

(حرف الدال)

* دبوز محمد علي.

44_ تاريخ المغرب الكبير، مؤسسة تاوالت الثقافية، ليبيا، دط، 2010، ج1.

* الدراجي بوزياني.

45_ القبائل الأمازيغية -أدوارها، مواطنها، أعيانها-، دار الكتاب العربي، الجزائر، دط، 2007، ج1.

46_ ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية، مؤسسة بوزياني للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2013.

(حرف الراء)

* ريسلير جميل.

47_السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر، ترجمة: نذير طيار، دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني،
ط1، 2016.

(حرف الزاي)

* زاهر ضياء الدين.

48_ اللغة ومستقبل الهوية التعليم نموذجا، وحدة الدراسات المستقبلية، الإسكندرية/مصر، دط، 2017.

* الزبيري محمد العربي.

49_التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1972.

(حرف السين)

*سالم حورية.

50_أثر اللغة العربية في تكوين الأدب الشفوي الأمازيغي –منطقتا القبائل وبجاية أنموذجا– ، دار الأمل، تيزي وزو/الجزائر، دط، 2015.

* سالوستيوس غايوس كريسبوس.

51_الحرب اليوغرطية، ترجمة: المبروك دويب، منشورات جامعة بنغازي، ليبيا، دط، دت.

* السامرائي إبراهيم.

52_ دراسات في اللغة، مطبعة العاني، بغداد، دط، 1961.

* سبينسر وليم.

53_الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، دط، 2007.

* سعد الله أبو القاسم.

54_ تاريخ الجزائر الثقافي 1500–1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ج1.

* سعدي عثمان.

55_البربر الأمازيغ عرب عاربة وعروبة الشمال الافريقي عبر التاريخ، دار الأمة، الجزائر، دط، 2008. التعريب في الجزائر–كفاح شعب ضد الهيمنة الفرنكوفونية–، دار الأمة، الجزائر، دط، 1993.

* سعود الطاهر.

56_ الحركات السلامية في الجزائر–الجذور التاريخية والفكرية–، مركز الدراسات والبحوث، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2012.

* سويدي محمد.

57_ مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري –تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغيير في المجتمع الجزائري المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، دت.

(حرف الشين)

* شريط عبد الله.

58_ محمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، مطبعة البعث، الجزائر، ط1، 1965.

* شفيق محمد.

59_ ثلاث وثلاثون قرنا من تاريخ الأمازيغ، مؤسسة تاوالت الثقافية، ليبيا، دط، دت.

* شمامة خير الدين.

60_ إشكالية اللغة العربية بين مخلفات الاستعمار وضغط العولمة، ضمن كتاب: اللغة والهوية في الوطن العربي –إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية–، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط1، 2013.

* شنيتي محمد البشير.

61_ أضواء على تاريخ الجزائر القديم، دار الحكمة، الجزائر، دط، 2003.

*بن الشيخ عصام.

(حرف الصاد)

* الصديق محمد صالح.

63_ الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم –خواطر وذكريات ومواقف وشهادات–، دار الأمل، تيزي وزو/الجزائر، ط2، 2004.

*صفر أحمد.

64_ مدنية المغرب العربي في التاريخ، مرجع سابق، ص178. ومولود قاسم، شخصية الجزائر، ج1.

* صفر أحمد.

65_ مدنية المغرب العربي في التاريخ–عشرون قرنا من تاريخ افريقية من عصور ما قبل التاريخ إلى العهد البيزنطي–، دار النشر بوسلامة، تونس، ج1، 1959.

(حرف الطاء)

* الطبري أبو جعفر محمد بن جرير.

66_ تاريخ الملوك والرسل الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط2، دت، ج1.

(حرف الظاء)

* ظاهر عمر.

67_ تأملات في فلسفة اللغة –خصوصية اللغة العربية وإمكاناتها–، الرافدين للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2008.

(حرف العين)

* عباد صالح.

68_ الجزائر خلال العهد التركي 1514–1830، دار هومة، الجزائر، دط، 2012.

*عبد الكريم محمد الجزائري.

69_ لغة كل أمة روح ثقافتها، دار الشهاب، باتنة/الجزائر، دط، 1989.

*عشراتي سليمان.

70_ الشخصية الجزائرية–الارضية التاريخية والمحددات الحضارية–، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2002.

*عشراتي سليمان.

71_ الشخصية الجزائرية–بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدولة الحمادية–، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2002، ج2.

*عقون محمد العربي.

72_الاقتصاد والمجتمع في الشمال الأفريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2003.

73_الأمازيغ عبر التاريخ _نظرة موجزة في الأصول والهوية، التنوخي للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 2010.

* عميراوي أحميدة.

74_آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري 1830-1954، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، دط، 2007.

(حرف الغين)

*غرانغيوم جلبير.

75_ اللغة والسلطة والمجتمع، ترجمة: محمد أسليم، افريقيا الشرق، المغرب، دط، 2011.

* غماري طيبي.

76_ اللغة، المدرسة، والهوية الوطنية الجزائرية، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع والطباعة، الجزائر، 2016.

*غلاب عبد الكريم.

77_ قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2005، ج1.

* غوتييه ايميل فليكس.

78_ماضي شمال افريقيا، ترجمة، هاشم الحسيني، مؤسسة تاوالت الثقافية، ليبيا، دط، 2010.

(حرف الفاء)

*فرحاتي فتحية.

79_نوميديا من حكم الملك جايا إلى بداية الاحتلال الروماني 213-46 ق.م، منشورات أبيك، الجزائر، دط، 2007.

(حرف القاف)

* قداش محفوظ.

80_الجزائر في العصور القديمة، ترجمة: صالح عباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1993.

(حرف الكاف)

*كامب غابرييل.

81_ البربر ذاكرة وهوية، ترجمة: عبد الرحيم حزل، افريقيا الشرق، المغرب، دط، 2010.

82_ في أصول بلاد البربر ماسينيسا أو بدايات التاريخ، تعريب، العربي عقون، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، دط، دت.

* الكعاك عثمان.

83_ البربر، مؤسسة تاوالت الثقافية، ليبيا، دط، 1375هـ.

*الكوخي محمد.

84_ سؤال الهوية في شمال افريقيا –التعدد والانصهار في واقع الانسان واللغة والثقافة والتاريخ–، افريقيا الشرق، المغرب، دط، 2014.

*كوراني أليس.

85_ اللغة والمجتمع عند العرب–الجاحظ نموذجا–، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2013.

(حرف اللام)

* ليمام مراد.

86_ سؤال الهوية في نظام الخطاب العربي –مأزق الأصل في الأنطولوجيا الإسلامية–، افريقيا الشرق، الدر البيضاء/المغرب، دط، 2018.

(حرف الميم)

*مدني أحمد توفيق.

87_ كتاب الجزائر، المطبعة العربية، بيروت، دط، 1350هـ.

88_ هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، مصر، دط، 2001.

* المسدي عبد السلام.

89_ الهوية العربية والأمن اللغوي –دراسة وتوثيق–، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة/قطر، ط1، 2014.

* المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين.

90_ مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط6، 1984.

* مها محمد فوزي معاذ.

91_الأنثروبولوجيا اللغوية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية/مصر، دط، 2011.

* مهديد إبراهيم.

92_ القطاع الوهراني ما بين 1850و1919م –دراسة حول المجتمع الجزائري، الثقافة والهوية الوطنية–، منشورات دار الأديب، وهران/الجزائر، دط، دت.

*الميلي مبارك.

93_تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دط، دت، ج1.

(حرف النون)

* نجلاء نجاحي.

94_ مسيرة الأمازيغية في الجزائر بين البناء الثقافي والمشروع السياسي والفعل التربوي، مجلة العلامة، العدد الخامس، 2017.

* نصار كريستين.

95_الانسان والتاريخ –أثر التاريخ وتأثره بسيكولوجية الفرد–ن منشورات جروس برس، لبنان، ط1، 1991.

*بن نعمان أحمد.

96_ اطلبوا الوطنية ولو في فرنسا، دار الأمة، الجزائر، ط1، 2005.

97_ فرنسا والأطروحة البربرية –الخلفيات، الأهداف، الوسائل والبدائل–، دار الأمة، الجزائر، دط، 2011.

98_ مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، دار الأمة، الجزائر، ط1، 2008.

(حرف الهاء)

* هسوف عبد اللطيف.

99_ الأمازيغ قصة شعب، دار الساقي، بيروت، ط1، 2016.

(حرف الواو)

* الوريمي ناجية.

100_ النهضويون العرب من تجديد اللغة إلى تجديد الخطاب –مقاربة نقدية–، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي –إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية–، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسيات، قطر، ط1، 2013.

ج_ الرسائل والأطاريح العلمية:

(حرف الباء)

* بكاري عبد القادر.

101_ منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني (1519-1830)، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر، 2016/2015.

*بلقاسم عبد الرزاق.

102_ الهوية الحضارية للأمة الجزائرية بين مولود قاسم نايت بلقاسم ومصطفى الأشرف – دراسة تحليلية–، مذكرة ماجيستير، قسم العلوم الإنسانية: شعبة الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة باتنة/الجزائر، 2015/2014.

(حرف التاء)

*تاحي إسماعيل.

103_ مولود قاسم نايت بلقاسم نضاله السياسي ونظرته للهوية، مذكرة ماجيستير، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة/الجزائر، 2007/2006م.

(حرف الحاء)

* حالة خديجة.

104_ التعليم الأصلي ودوره في حركة التعريب بالجزائر(1970-1977م)، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أحمد دراية–أدرار–، الجزائر، 2018/2017، ص299.

(حرف الدال)

* درقاوي منصور.

105_ الموروث الثقافي العثماني بالجزائر ما بين القرنين 10-13هـ/16-19م بين التأثير والتأثر، رسالة ماجيستير، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر، 2015/2014، ص11.

(حرف اللام)

*لعموري عليش.

106_ المقومات الأساسية في بناء الإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم (1992/1927)، ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول سؤال الهوية والإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم الفلسفة، جامعة الحاج لخضر، باتنة/الجزائر، 2010، ص 384.

د_ المجلات:

(حرف الألف)

* أوكيل محمد الأمين.

107_ الهوية الأمازيغية ومسألة بناء الدولة الوطنية في الجزائر-مقاربة قانونية-، مجلة الاجتهاد للدراسات القانونية والاقتصادية، المجلد 8، العدد 4، 2019.

(حرف الباء)

* بوعزيز يحي.

108_ الطلبة الجزائريون ودورهم في الثورة، مجلة الثقافة، العدد 83، سبتمبر/أكتوبر، 1984م.

* بغورة زواوي.

109_ الدولة والأمة الجزائرية في فكر النخبة الجزائرية المعاصرة -مولود قاسم نايت بلقاسم نموذجا، مجلة الفلسفة المصرية، السنة 13، العدد 13، مركز الكتاب للنشر، 2004.

* بهلول العونية.

110_اللغة الأمازيغية في الجزائر الرهانات والتحولات، مجلة آفاق فكرية، المجلد 4، العدد 9، أكتوبر 2018.

(حرف السين)

* سعيدوني ناصر الدين.

111_ المسألة البربرية في الجزائر–دراسة الحدود الإثنية للمسألة المغاربية–، مجلة عالم الفكر، العدد 4، المجلد 32، أبريل–يوليو 2004.

(حرف الصاد)

* صديق ليلى.

112_ تأثير اللغة العربية في غيرها من اللغات، مجلة حوليات التراث، العدد 6، 2006.

(حرف العين)

*عيساوي مها محمود.

113_ الانسان المغاربي القديم الصحراوي وإشكالية التدوين من خلال الرسوم الصخرية، دورية كان التاريخية، العدد 17، سبتمبر 2012.

(حرف الغين)

*غوتي حجوي.

114_ تاريخ الأمازيغ، دورية كان التاريخية، العدد 10، ديسمبر 2010.

(حرف الزاي)

* زناتي أنور محمود.

115_ اللغة العربية ودورها في التواصل الحضاري بين الشعوب، دورية كان التاريخية، العدد 13، سبتمبر 2011.

(حرف الميم)

* معاطي أبو النجا.

116_ نشرته مجلة العربي الكويتية، العدد 335، أكتوبر 1986م.

(حرف النون)

* نجاحي نجلاء.

117_ مسيرة الأمازيغية في الجزائر بين البناء الثقافي والمشروع السياسي والفعل التربوي، مجلة العلامة، العدد الخامس، 2017.

و_ أعمال ملتقى:

(حرف الكاف)

* كيحل مصطفى.

118_ نقد أيديولوجيا خطاب الهوية والدولة عند محمد أركون –من ميتافيزيقا الخطاب إلى تاريخيته–، ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول سؤال الهوية والإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم في ظل العولمة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم الفلسفة، جامعة الحاج لخضر باتنة/الجزائر، 2010.

(حرف العين)

* عاشور زهراء.

119_ الهوية اللغوية بين ساطع الحصري ومولود قاسم نايت بلقاسم، أعمال الملتقى الوطني الأول حول سؤال الهوية والإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم في ظل العولمة، قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة/الجزائر، 24/23 نوفمبر 2010.

* عليش لعموري.

120_ المقومات الأساسية في بناء الإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم (1992/1927)، ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول سؤال الهوية والإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم الفلسفة، جامعة الحاج لخضر، باتنة/الجزائر، 2010.

رابعا: فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الشكر	
الإهداء	
مقدمة	**أ-ن**
الفصل الأول: شخصية مولود قاسم وفكره	**2**
المبحث الأول: حياته الشخصية والعلمية	**3**
المطلب الأول: المولد والنشأة	**3**
المطلب الثاني: رحلاته العلمية	**5**
الفرع الأول: رحلته العلمية إلى تونس	**5**
الفرع الثاني: رحلته العلمية إلى مصر	**6**
الفرع الثالث: هجرته إلى أوروبا	**8**
المبحث الثاني: نضاله السياسي والثقافي	**9**
المطلب الأول: انخراطه في صفوف الحركة الوطنية ونشاطه السياسي	**9**
الفرع الأول: انضمامه لحزب الشعب	**9**
الفرع الثاني: نشاطه في الحركة الوطنية	**10**
المطلب الثاني: نشاطه الثقافي	**17**
الفرع الأول: مولود قاسم الوزير	**17**
الفرع الثاني: مساهمته في ملتقيات الفكر الإسلامي	**20**
الفرع الثالث: جهوده في مجال التعريب	**22**
المبحث الثالث: المنحى الروحي والفكري عند مولود قاسم	**26**
المطلب الأول: المرجعية الإسلامية	**26**
المطلب الثاني: المرجعية الغربية	**27**

الفصل الثاني: تاريخية تشكل المجتمع الجزائري	**32**
المبحث الأول: البربر، جدلية الأصول والانتماء	**33**
المطلب الأول: أصول البربر	**34**
الفرع الأول: من خلال النصوص القديمة	**34**
الفرع الثاني: أصول البربر عند المسلمين	**36**
المطلب الثاني: البربر، جدلية الوصل والفصل بين الشرق والغرب	**39**
الفرع الأول: أصول البربر عند الباحثين الفرنسيين	**39**
الفرع الثاني: أصول البربر عند الباحثين العرب	**41**
الفرع الثالث: أصول البربر عند الباحثين الجزائريين	**45**
المبحث الثاني: تسميات البربر وتقسيماتهم	**53**
المطلب الأول: التسمية	**53**
المطلب الثاني: تقسيمات البربر	**60**
المبحث الثالث: ميلاد المجتمع الجزائري والظروف التاريخية لتشكله	**63**
المطلب الأول: المجتمع الأمازيغي القديم	**64**
المطلب الثاني: المراحل التاريخية لتطور النظام الاجتماعي الأمازيغي	**67**
الفرع الأول: النظام الاجتماعي في العصر القديم	**67**
الفرع الثاني: النظام الاجتماعي في العصر الوسيط	**74**
الفرع الثالث: النظام الاجتماعي في العصر الحديث	**77**
الفصل الثالث: المقومات الأساسية في التكوين التاريخي للمجتمع الجزائري	**84**
المبحث الأول: التطور الديني واللغوي في شمال افريقيا-الجزائر-	**85**
المطلب الأول: الديانة	**85**
المطلب الثاني: اللغة	**87**
المطلب الثالث: سؤال الهوية في الجزائر-الأسباب والمحددات-	**90**
المبحث الثاني: مقومات المجتمع الجزائري عند مولود قاسم	**94**

المطلب الأول: المقوم التاريخي	**95**
المطلب الثاني: المقوم الديني	**99**
المطلب الثالث: المقوم اللغوي	**106**
الفصل الرابع: حدود وامتداد فكرة الإنية، نحو أفق صناعة هوية جزائرية	**126**
المبحث الأول: خطاب الهوية في الجزائر، نقاط التلاقي والتلاغي	**128**
المطلب الأول: الخطاب العروبي الإسلامي	**129**
الفرع الأول: واقع اللغة العربية في الفترة الاستعمارية	**129**
الفرع الثاني: علاقة الحركة البربرية بالمشاريع الفرنسية	**131**
الفرع الثالث: أهمية اللغة العربية في بناء الدولة الجزائرية	**134**
المطلب الثاني: الخطاب الأمازيغي الفرنكفوني	**141**
الفرع الأول: أسباب انحسار اللغة الأمازيغية	**141**
الفرع الثاني: الخطاب الأمازيغي	**144**
الفرع الثالث: واقع اللغة الأمازيغية في الفترة الاستعمارية	**146**
الفرع الرابع: الربيع الأمازيغي وعلاقته باللغة الأمازيغية	**150**
المبحث الثاني: المدرسة الجزائرية ودورها في صناعة الهوية	**155**
المطلب الأول: سياسة التعريب في المدرسة الجزائرية	**156**
الفرع الأول: مسار التعريب	**156**
الفرع الثاني: مراحل التعريب	**159**
الفرع الثالث: مشاكل التعريب	**163**
المطلب الثاني: الأمازيغية لغة تأبى الاندثار	**167**
الفرع الأول: الأمازيغية ضمن المقررات الدراسية	**167**
الفرع الثاني: آفاق تدريس الأمازيغية ودورها في تعزيز الهوية الوطنية	**169**
خاتمة	**176**

الملاحق	180
فهرس الأعلام	184
فهرس الأماكن والبلدان	190
فهرس المصادر والمراجع	195
فهرس الموضوعات	211

ملخص البحث

تناقش هذه الورقة سؤال الهوية في الجزائر، وأبرز أسبابه ومحدداته، عند مولود قاسم نايت بلقاسم، وذلك عن طريق فتح ملف تكوينية المجتمع الجزائري، وتطوره في فترات تاريخية مختلفة، مع بيان دور اللغة الأمازيغية في الحفاظ على تفرد هذا المجتمع، الذي ورغم معاصرته للعديد من شعوب الحضارات المختلفة، بقي محافظا على لغته وعاداته، رغم الفوات الحضاري الكبير الذي كانت تتميز به الشعوب الوافدة إليه، كما تسلط الضوء على دور الإسلام في تغيير البنية الاجتماعية الأمازيغية/الجزائرية، وكيف استطاع التغلغل لداخل هذه البنية وتطويعها، حتى أضحى الانتساب للعرق العربي شرفا، ومدعاة للتفاخر بين الأمازيغ أنفسهم.

وفي ضوء هذه الجدلية ناقش مولود قاسم إنية/هوية المجتمع الجزائري، والتي يرى أنها ترتكز على أربع مقومات رئيسة هي: اللغة والدين والتاريخ وحب الوطن، وبهذه المقومات يستطيع الانسان الجزائري الحفاظ على أصاليته، والنجاة من عواصف التغيير التي تعصف بالمجتمعات.

Research Summary:

This paper discusses the question of identity in Algeria, and its most prominent causes and determinants, according to Mouloud Kassem Nait Belkacem, this is done by opening the file of the formation of algerian society, and its development in different historical periods, with clarification The role of the amazigh language in preserving the uniqueness of this society, which despite its contemporaneity with many peoples of different civilizations, he maintained his language and customs, despite the great civilizational progress that characterized the peoples coming to it, it also sheds light on the role of islam in changing the algerian social structure, and how he was able to penetrate into this structure and adapt it, so that belonging to the Arab race became an honor, and a cause for pride among the Amazighs themselves.

In light of this controversy Mouloud Kassem discussed the identity of algerian society, which he believes is based on four main components: language, religion, history and patriotism, With these ingredients the algerian person can maintain his authenticity, and to survive the storms of change that ravage societies.